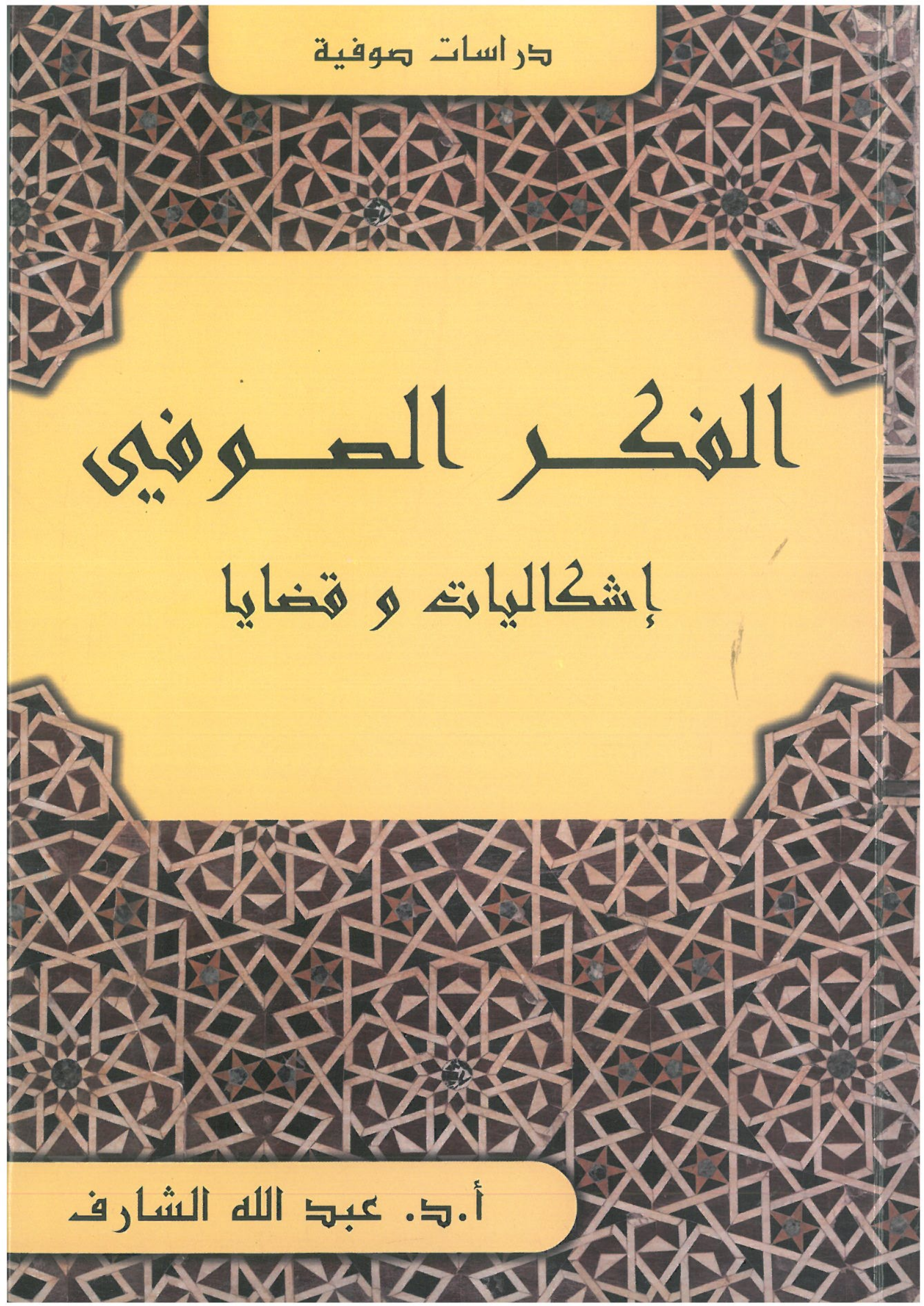


دراسات صوفية
الفكر الصوفي
إشكاليات و قضايا
أ.د. عبد الله الشارف

إن الأداة المعرفية التي اعتمد عليها المتصوفة في إرساء قواعد تصورهم المعرفي، تقوم أساسا على عنصري التأويل والتجربة الباطنية. والتأويل كما هو معلوم حمل اللفظ على مجازه لا على حقيقته، أو بعبارة أخرى صرف المعنى الظاهري إلى معنى باطني مع وجود القرينة. لكن ثبت أن المتصوفة، باستثناء الجنيد والمحاسبي ومن سار على نهجهما، لم يكونوا من المتمكنين في العلوم الشرعية كالتفسير، والفقه وأصوله، وطرق التأويل وأساليبه وضوابطه، بل كان أكثرهم يمقت العلم إلا "علم الأذواق"، أما "علم الأوراق" فلا يعول عليه عندهم، ومن هنا فإنهم أولوا كثيرا من النصوص القرآنية اعتمادا على علم الأذواق، ذلك العلم الذي ترجع أصوله إلى الرؤية الباطنية، حيث تغدو تجربة الصوفي الشخصية مقياسا للحكم على الأشياء. وبعبارة أخرى يفرق الصوفية بين علم الظاهر وعلم الباطن أو بين الشريعة والحقيقة.

الفكر الصوفي

إشكاليات و قضايا

أ.د. عبد الله الشارف


بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل إلى التصوف

التصوف مظهر من المظاهر الثقافية المكونة للفكر الإسلامي. ذلك أن التراث الفكري للحضارة الإسلامية يضم، إلى جانب الفقه وعلم أصوله: التصوف، والتفلسف، والمنطق، والأدب، وعلم الكلام، والعلوم الطبيعية، من فلك، وكيمياء، وطب، وعلوما ومعارف أخرى.

وإذا كان علم الكلام والتفلسف قد أصابهما نوع من الفتور أو الذبول، فإن التصوف ما زال يحيا في بعض الأوساط الاجتماعية والثقافية، وما ذلك إلا لأن فرضياته التي ينطلق منها تحاول الإعتماد على نصوص من الكتاب والسنة. كما أن وضعية التغريب والفتنة التي نعيشها، والتكالب على الدنيا والفساد الاجتماعي والأخلاقي، كل ذلك قد يكون عاملا من عوامل انتشار منطق التصوف والإقبال على الممارسة الصوفية. إلا أنه ينبغي الاجتهاد للوصول إلى موقف إزاء التصوف، يكون حدا وسطا بين الرافضين رفضا باتا؛ وهم السلفيون المتشددون، وبين المتعصبين للتصوف القائلين بالقبول التام للفكر الصوفي واعتباره الجوهر الحقيقي للإسلام.

ومما لاشك فيه أن كثيرا من أوائل كبار المتصوفة ومنظريهم؛ كأبي القاسم الجنيد والحارث المحاسبي، لم يصوغوا أفكارهم ونظرياتهم إلا بعد تفكير واجتهاد فقهي، ومن هنا فإنهم اجتهدوا كغيرهم، فمنهم من كان مصيبا في اجتهاده، ومنهم من لم يوفق في ذلك، فمال عن الجادة وانحرف. ومعظم هؤلاء ممن عاصروا زمن التفاعل الثقافي في عهد الدولة العباسية، وتأثروا بالفلسفات والمذاهب اليونانية والفارسية، أو ممن عاشوا عصور انحطاط الأمة الإسلامية؛ حيث تبلور التصوف الطرقي الذي لا يزال قائما.

ومن باب النزاهة والإنصاف أن يعرض الإنتاج الصوفي على الكتاب والسنة، ويدرس على ضوء قواعد الشريعة ومقاييسها، فما وافق منه مبادئ الدين وأهدافه ولم يتعارض مع مقاصده قبل واحتفظ به، وما خالف تلك المبادئ والأهداف رد ورفض. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد"[1].

إن عملية تجريد العطاء الصوفي من البدع والشوائب والشطحات والضلالات، والاحتفاظ بما ينفع في ميدان تربية النفوس، وعلاج أمراض القلوب ومحو الرذائل وغرس الفضائل، عملية مفيدة وبناءة ينبغي أن ينتدب لها أولوا الرأي من العلماء والفقهاء، وما دامت الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، فإن كثيرا من كتب المتصوفة على علاتها تزخر بالحكم والأفكار الخلقية والسلوكية والتربوية الهامة.

ولقد افترق المسلمون في موقفهم إزاء التصوف إلى ثلاث فرق: الفرقة الأولى مالت إلى القبول التام والانتصار للتصوف، والفرقة الثانية حملت شعار الرفض المطلق للفكر الصوفي، أما الفرقة الأخيرة والتي يمثلها أصحاب تيار الوسط، فإنها لم ترفض هذا الفكر، وإنما احتفظت منه بما لا يتعارض مع قواعد الشرع ولا يتنافى مع أصول العقيدة.

ولا ريب أن الباحث الحصيف لا يصعب عليه فهم العوامل النفسية والاجتماعية والسياسية التي تكمن وراء انتشار موقف الفرقتين الأولى والثانية، وأن عامل رد الفعل، إلى حد ما، يلعب دورا أساسيا في نشأة الموقفين: موقف الانتصار وموقف الرفض، باعتبار أن التصوف في الإسلام كان، من حيث النشأة والانتشار، بمثابة رد الفعل تجاه الصراعات السياسية، وحياة البذخ والترف، في منتصف القرن

[1] - رواه البخاري ومسلم.

الثاني للهجرة حيث صعود نجم الدولة العباسية. ومن هنا فإن الميل إلى التصوف والدفاع عنه قد يكون بسبب ذلك.

كما أن موقف الرفض يعتبر رد فعل تجاه المتصوفة وانزلاقاتهم من قبل كثير من المسلمين وخاصة بعض الفقهاء. ذلك أن الطريقة التي أخذ بها عموم الصوفية في فهم وممارسة العبادة، أثارت عليهم حفيظة الفقهاء الذين بذلوا كل ما في وسعهم للرد عليهم والتصدي لهم، بل كانوا أحيانا يوغرون عليهم صدور الحكام. ومع أن هؤلاء الفقهاء كانوا يهدفون بحملتهم هذه إلى غاية حميدة تتجلى في الذب عن الشريعة الإسلامية والحفاظ على نقائها وصفائها، والحيلولة دون تسرب الأفكار المنحرفة، فإن موقفهم كان كثيرا ما يتسم بنوع من الشدة والقساوة، مما جعل شقة الخلاف تتسع بين الفريقين يوما بعد يوم.

ولعل موقف الفرقة الثالثة باعتداله ووسطيته، يكون أقرب إلى الصحة والصواب سواء من حيث النقل أو العقل. ويمثل هذا الموقف كثير من علماء الإسلام، على رأسهم أحمد بن تيمية وتلميذه محمد بن قيم الجوزية، وكذلك الإمام أبو إسحاق الشاطبي وغيرهم. وفي هذا الصدد يقول الشيخ أحمد بن تيمية: "وكان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية، لما في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة، وما وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية، حتى صار المنحرفون صنفين: صنف يقر بحقها وباطلها، وصنف ينكر حقها و باطلها كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه. والصواب هو الإقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة"[2].

---

[2] - أحمد بن تيمية: "مجموع الفتاوى"، دار النشر، مجمع الملك فهد السعودية، .د.ت. ج 10، ص 82.

ويقول أبو إسحاق الشاطبي: "ولفظ التصوف لابد من شرحه أولا حتى يقع الحكم على أمر مفهوم....فلنرجع إلى ما قال فيه المتقدمون: وحاصل ما يرجع فيه لفظ التصوف عندهم معنيان: أحدهما التخلق بكل خلق سَنِي والتجرد عن كل خلق دنيء، والآخر إنه الفناء عن نفسه والبقاء لربه، وهما في التحقيق إلى معنى واحد... فيكون الأول عملا تكليفيا والثاني نتيجته... ومجموعهما هو التصوف. وإذا ثبت هذا فالتصوف بالمعنى الأول لا بدعة في الكلام فيه لأنه إنما يرجع إلى تفقه ينبني عليه العمل وتفصيل آفاته وعوارضه، وهو فقه صحيح وأصوله في الكتاب والسنة ظاهرة، فلا يقال في مثله بدعة"[3].

ثم يضيف قائلا: "وفي غرضي إن فسح الله في المدة أن ألخص في طريقة القوم أنموذجا يستدل على صحتها، وأنه إنما دخلتها المفاسد وتطرقت إليها البدع من جهة قوم تأخرت أزمانهم عن عهد ذلك السلف الصالح وادعوا الدخول فيها من غير سلوك شرعي... حتى صارت في هذا الزمان الأخير كأنها شريعة أخرى"[4].

ومن القضايا المرتبطة بإشكالية التصوف؛ هناك قضية النشأة. فإذا كان أغلب شيوخ التصوف ومؤرخيه يرجعون نشأته إلى القرن الثاني للهجرة، فإن منهم من يذهب إلى أن التصوف عرف عند الصحابة ونشأ في أحضانهم. ففيما يخص الاتجاه الأول، يذهب بعض المؤرخين إلى أن ظهور التصوف كان نتيجة إقبال الناس على الدنيا والانشغال بها، ولذا عرف المقبلون على الزهد والعبادة باسم الصوفية أو المتصوفة. ومنذ ذلك الحين غلبت هذه التسمية على هذه الطائفة من الزهاد؛ فيقال، رجل صوفي وللجماعة؛ الصوفية. ويقال بأن أول رجل لقب بالصوفي هو أبو هاشم الكوفي المتوفى سنة 150هـ، وأنه بنى أول خانقاه للصوفية في الرملة من بلاد

---

[3] - أبو إسحاق الشاطبي: "الاعتصام"، دار ابن عفان، السعودية، 1412-1992، ص247.

[4] - أبو إسحاق الشاطبي؛ "الاعتصام"، ص259.

الشام. وكان يقول بالحلول والاتحاد، وكان باطنيا ودهريا، وهو من الموالي. وقيل أن أول من تسمى ببغداد صوفيا هو عبدك الصوفي. ويقول عبد الرحمن بن خلدون رحمه الله في مقدمته:

"فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجَنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختُصَّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة"[5]. ومال قبله شيخ الإسلام أحمد بن تيمية إلى هذا الرأي، فقال رحمه الله: "إن نشأة التصوف كانت في أوائل القرن الثاني الهجري وأنه لم يشتهر إلا بعد القرن الثالث". وقال رحمه الله: "إن أول ما ظهرت الصوفية في البصرة، وأول من بنى دويرة للصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن يزيد من أصحاب الحسن، وكان في البصرة من المبالغة في الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن في سائر أهل الأمصار. ولهذا يقال فقه كوفي وعبادة بصرية"[6].

ويقول عمر رضا كحالة عن اسم الصوفية: "اشتهر هذا الاسم قبل المائتين من الهجرة، فهو اسم محدث بعد عهد الصحابة والتابعين"[7].

وفيما يتعلق بالاتجاه الثاني؛ أكتفي بإيراد كلام للصوفي أحمد بن عجيبة التطواني (ت 1224هـ)، حيث يقول: "وأما واضع هذا العلم، يعني علم التصوف، فهو النبي صلى الله عليه وسلم علمه الله له بالوحي والإلهام، فنزل جبريل عليه السلام أولا بالشريعة، فلما تقررت نزل ثانيا بالحقيقة (!!)، فخص بها بعضا دون بعض. وأول من تكلم فيه وأظهره، سيدنا علي كرم الله وجهه وأخذه عنه الحسن البصري... وأخذه عن الحسن حبيب العجمي، وأخذه عن حبيب أبو سليمان داوود الطائي....

---

[5] - عبد الرحمن بن خلدون: "المقدمة"، دار الكتاب العربي، بيروت، 1425هـ/2004م، ص 432.

[6] - أحمد بن تيمية: "مجموع الفتاوى"، ج 10، ص 138.

[7] - عمر رضا كحالة: "الفلسفة الإسلامية وملحقاتها"، طبعة الحجاز، دمشق، 1394هـ، ص 213.

وأخذه عن معروف الكرخي أبو الحسن سرى بن مغلس السقطي، وأخذه عن السري إمام هذه الطريقة ومظهر أعلام الحقيقة أبو القاسم محمد بن الجنيد، ثم انتشر التصوف في أصحابه وهلم جرا، ولا ينقطع حتى ينقطع الدين.

ومن رواية أخرى أخذه عن سيدنا علي رضي الله عنه أول الأقطاب سيدنا الحسن ولده، ثم عنه أبو محمد جابر، ثم القطب سعيد الغزواني، ثم القطب فتح السعود، ثم القطب سيدي عبد الرحمن المدني، ثم القطب الكبير مولاي عبد السلام بن مشيش، ثم القطب الشهير أبو الحسن الشاذلي، ثم خليفته أبو العباس المرسي، ثم العارف الكبير سيدي أحمد بن عطاء الله، ثم العارف الكبير سيدي داوود الباخلي، ثم العارف سيدي محمد بحر الصفا، ثم العارف ولده سيدي علي بن وفا، ثم العارف سيدي عبد الرحمن الفاسي، ثم العارف سيدي محمد بن عبد الله، ثم العارف سيدي قاسم الخصاصي، ثم العارف سيدي أحمد بن عبد الله ثم العارف سيدي العربي بن عبد الله، ثم العارف الكبير سيدي علي بن عبد الرحمن العمراني الحسني، ثم العارف الشهير شيخ المشايخ سيدي مولاي العربي الدرقاوي الحسني، ثم العارف الكامل المحقق الواصل شيخنا سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسني، ثم عبد ربه وأقل عبيده أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني (أي صاحب هذا النص) ثم عنه خلق كثير والمنة لله العلي الكبير"[8].

وتحدث عبد الرحمن بدوي في كتابه: "التصوف الإسلامي في القرنين الأول والثاني"، عن بعض الصحابة؛ أمثال أبي ذر الغفاري، وأويس القرني، وعمران الحصين، ناعتا إياهم بالصوفية الأوائل، كما انتهج النهج نفسه كثير من الكتاب المعاصرين من ذوي الميول الصوفية. غير أن إطلاق لفظ الصوفية على الصحابة

---

[8] - أحمد بن عجيبة: "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت، ج 1، ص 5-6.

رضوان الله عليهم ينطوي في الحقيقة على نوع من الإسقاط، ولا ينبني على أسس منطقية سليمة، ذلك أنه ليس كل من عرف بالزهد أو الورع مثلا، يمكن حشره في فئة الصوفية. صحيح أن سلوك الصحابة كان سلوكا ربانيا مستقيما، وظل نموذجا للسلوك المثالي، لكن هذا لا يعني أن بعض الصحابة كانوا متصوفة.

إن انتقال المسلمين من الحياة البسيطة إلى حياة الترف والمدنية والأخذ بأسباب الحضارة وتقليد الفرس والروم، كل ذلك كان له أثر عميق في عقلية المسلم ونفسيته، مما نتج عنه تسرب الضعف الإيماني إلى قلبه، ولم يسلم كثير من الفقهاء أيضا من هذا التأثير؛ حيث سرى الوهن في نفوسهم، وأخلدوا إلى الدنيا ووقفوا على أبواب الخلفاء والأمراء، ومع ذلك بقي علم الفقه يشق طريقه مهتما بالمستجدات اليومية وبالاجتهاد واستنباط الأحكام.

وفي هذا يقول أبو العلا عفيفي: "لم تكن الثورة التي قام بها الفقهاء ضد الصوفية في الحقيقة، إلا رد فعل للثورة الروحية التي أراد الصوفية أن يحدثوها في الدين، فقد أدرك الصوفية أن الدين قد أصبح في عرف الفقهاء جملة رسوم وأوضاع لا حياة ولا روحانية فيها.

وهذه الرسوم والأوضاع إن أرضت ظاهر الشرع وأشبعت عقول المشرعين المفتونة بتقعيد القواعد، وتعمير القوانين، حتى لو أدى ذلك إلى اصطناع "الحيل" و"المخارج" غير المعقولة، لم تكن لترضي باطن الشرع، ولا تشبع العاطفة الدينية عند الصوفية. لذلك كان لابد من أن ينقسم علم الشريعة إلى قسمين: علم ظاهر الشرع الذي يدرس الأعمال التي تجري على الجوارح؛ وهي العبادات والمعاملات وقد

سمي ذلك علم الفقه. والثاني علم الأعمال الباطنة أو أعمال القلوب وهو التصوف أو علم الحقائق"[9].

ولعل من الصعوبة بمكان أن نحصر أو نضبط الجوانب المختلفة للمعرفة الصوفية؛ تلك الجوانب التي يمكن إخضاعها لعملية النقد والتنقيح، لكن لا بأس من الاقتصار والتركيز هنا على جانبين أساسيين وهما: المصدر والأداة، أي المصدر المعرفي والأداة المعرفية في تكوين الإنتاج الصوفي.

فيما يتعلق بالمصدر أو المجال المعرفي الذي يستمد منه التصوف مادته الأولية فإنه يضم بالأساس القرآن والسنة، ثم أقوال ووقائع مشاهير المتصوفة وشيوخ القوم، ثم أخبار بني إسرائيل وعبادهم ورهبان النصارى، ويضم أيضا حكم وأقوال بعض الفلاسفة من ذوي النزعة المثالية الصوفية، أمثال أفلاطون اليوناني، وفيلون وافلوطين الإسكندريين وغيرهم، بالإضافة إلى أفكار وتصورات متعلقة باعتقادات الصابئة وبعقائد فارسية وهندية. وهذا المزيج يضم أهم العناصر الأساسية المكونة لبنية المعرفة الصوفية. ومما لاشك فيه أن هناك تنافرا بين بعض هذه العناصر كالقرآن والسنة من جهة، والفلسفة الأفلاطونية مثلا من جهة ثانية. فكيف يا ترى جمع المتصوفة بين هذه العناصر بالرغم من استحالة الجمع أو التوفيق بينها؟

لقد تم لهم ذلك بواسطة عنصر يتعلق بالمنهج و الأداة، إنه عنصر التأويل حيث عمد كثير من المتصوفة إلى تأويل جملة من الآيات بطريقة تتلائم مع المعرفة الصوفية. وممن اشتهر منهم على سبيل المثال، في ميدان التأويل، الفيلسوف الصوفي ابن سينا في كتابيه "رسالة الطير" و "الإشارات والتنبيهات"، وابن الفارض صاحب نظرية العشق الإلهي، والسهروردي صاحب نظرية الإشراق الصوفي، ومحيي الدين بن عربي فيلسوف وحدة الوجود الصوفية.

---

[9] - أبو العلا عفيفي: "التصوف الثورة الروحية في الإسلام"، دار الشعب، بيروت، 1982، ص 106.

وبالنسبة للسنة، فإنهم إن عدموا حديثا صحيحا أو حسنا يعضدون به كلامهم، لم يتورعوا من ذكر أحاديث ضعيفة أو موضوعة؛ مثل ما فعل أبو طالب المكي في كتابه "قوت القلوب"، وأبو حامد الغزالي في مؤلفه المشهور "إحياء علوم الدين". كما أنهم كثيرا ما عمدوا إلى تأويل الأحاديث تأويلا صوفيا باطنيا.

ومن ناحية أخرى لا يخفى على أحد أن أخبار أنبياء بني إسرائيل وعبادهم مليئة بالإسرائيليات والقصص المختلقة والموضوعة، ومع ذلك اعتمد عليها المتصوفة في بناء مذهبهم وأوردوها في كتاباتهم واحتجوا بها احتجاجهم بالآيات والأحاديث.

إن الأداة المعرفية التي اعتمد عليها المتصوفة في إرساء قواعد تصورهم المعرفي، تقوم أساسا على عنصري التأويل والتجربة الباطنية. والتأويل كما هو معلوم حمل اللفظ على مجازه لا على حقيقته، أو بعبارة أخرى صرف المعنى الظاهري إلى معنى باطني مع وجود القرينة، لكن ثبت أن المتصوفة، باستثناء الجنيد والمحاسبي ومن سار على نهجهما، لم يكونوا من المتمكنين في العلوم الشرعية كالتفسير، والفقه وأصوله، وطرق التأويل وأساليبه وضوابطه، بل كان أكثرهم يمقت العلم إلا "علم الأذواق"، أما "علم الأوراق" فلا يعول عليه عندهم، ومن هنا فإنهم أولوا كثيرا من النصوص القرآنية اعتمادا على علم الأذواق، ذلك العلم الذي ترجع أصوله إلى الرؤية الباطنية، حيث تغدو تجربة الصوفي الشخصية مقياسا للحكم على الأشياء. وبعبارة أخرى يفرق الصوفية بين علم الظاهر وعلم الباطن أو بين الشريعة والحقيقة.

وفي هذا الصدد يقول أبو حامد الغزالي: "اعلم أن جانب العمل متفق عليه، وأنه مقصود لمحو الصفات الرديئة وتطهير النفس من الخلاق السيئة، ولكن جانب العلم مختلف فيه، وتباين فيه طرق الصوفية طرق النظار من أهل العلم، فإن الصوفية لم يحرصوا على تحصيل العلوم ودراستها... بل قالوا: الطريق تقديم المجاهدة بمحو

الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها، والإقبال بكل الهمة على الله تعالى، ومهما حصل ذلك، فاضت عليه الرحمة، وانكشف له سر الملكوت وظهرت له الحقائق"[10].

إذن فالمعرفة التي يصل إليها الصوفي عبر التجربة الباطنية، معرفة مباشرة بغير وسائط من مقدمات أو قضايا منطقية أو براهين، إنها معرفة الكشف والإلهام.

وفي هذا المعنى يقول أحمد بن تيمية: "وأهل المكاشفات والمخاطبات يصيبون تارة ويخطئون أخرى، كأهل النظر والاستدلال في موارد الاجتهاد، ولهذا وجب عليهم أن يعتصموا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن يزنوا مواجيدهم ومشاهداتهم ورؤاهم ومعقولاتهم، بكتاب الله وسنة رسوله ولا يكتفوا بمجرد ذلك، فإن سيد المحدثين والمخاطبين والملهمين من هذه الأمة هو عمر بن الخطاب، وقد كانت تقع له وقائع فيردها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم"[11].

ومن ناحية أخرى يقول سعيد حوى: "من أعظم أعلام التصوف المجمع على إمامتهم عند المسلمين؛ الجنيد. والجنيد نفسه كان على مذهب أبي ثور في الفقه أي لم يكن مجتهدا، ومن ثم فالصوفي محكوم بكلام أئمة الاجتهاد(...).

والصوفي لا تأتي إمامته إلا من حيث كونه متحققا بما ذكرته النصوص، وإذا خرج التصوف عن ذلك وتكلم الصوفي بغير ذلك فعندئذ تكون الكوارث وقد كانت(...) وعلى كل حال. فإن قضية تزكية النفس وتقوى القلب والمراقبة في العبادة، والتحقق بمقامات الإيمان والإسلام والإحسان والتقوى والشكر شيء رئيسي، وتذوق أجزاء العقيدة وأصولها شيء لابد منه، وهي معان تحدثت عنها نصوص الكتاب والسنة، والصوفية هم أكثر الناس بحثا واستقصاء عن طرق التحقق بهذه المعاني(......) لابد من وجود علم التصوف(...). إن نشأة علم يبحث أحوال الصحة

---

[10] - أبو حامد الغزالي: "ميزان العمل"، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1409هـ/1989م، ص 40.

[11] - أحمد بن تيمية: "مجموع الفتاوى"، المرجع السابق، ج 11، ص 65.

والمرض للقلب والنفس وطرائق الصحة، وأنواع المرض شيء عادي(....). هذا العلم قد دخل فيه ما لم يدخل في غيره، إذ أصبحت خواطر الشيوخ جزءا منه بصرف النظر عن انطباقها على أصول الشريعة، وأصبحت المقامات والخواطر والواردات أصولا برأسها، وأوجدت طقوس وشعائر خاصة لكل طريقة، وربي أبناء كل طريقة وأتباع كل شيخ على الكره للغير"[12].

قد تكون في عملية إحياء علم التصوف الحقيقي والصحيح، خير للمسلمين لما في ذلك من تهذيب للأخلاق وتقوية للمعاني الروحية. لكن ألا يمكن أن يؤدي ذلك مع الزمن، إلى ظهور الانحرافات والشطحات نفسها، وتقديس الشيوخ واعتبار وارداتهم ورؤاهم أصح وأصدق من السنة؟ ألن تعود إلى الساحة الخواطر والإلهامات نفسها؟ بل كيف يمكن لمن يسلك سبيل التصوف ألا يكون قلبه محل ورود الواردات وإشراق الإشراقات المختلفة، التي قد تكون أحيانا قوية أو غامضة فتعمي نور العقل، فيجهل حكم الله فيها، أو يمنع صاحبها، بفعل الشحنة الروحية الطارئة والمباغتة من عرضها على الكتاب والسنة؟ وهل ضل أكثر المتصوفة مع بدايتهم الصادقة إلا بحلاوة الوجد والذوق التي أعقبت ورود الواردات وإشراق الإشراقات؟

إن المطلع على كتابات الحلاج وابن الفارض وابن عربي، وابن سبعين والسهروردي الإشراقي وغيرهم، يجد أنهم يتحدثون عن تجربتهم الباطنية وأفكارهم وإلهاماتهم، بنوع من الأدب والتواضع يتخلله شيء من الإعجاب والشعور بالولاية والاصطفاء!

أليسوا هم الخاصة وغيرهم العامة؟ ألم يخبرونا بأنهم اطلعوا على أمور أو كشفت لهم أمور وأشياء لا تكشف إلا "لأهل الله والمقربين"؟!! لقد بدأ هؤلاء طريقهم بالزهد والتجرد وتربية النفس، ليصبحوا من الخاصة أو خاصة الخاصة، ومن أهل الحقائق والرقائق وغيرهم في ظلام دامس!

---

[12] - سعيد حوى: "جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما"، القاهرة، د.ت، ص 105-106.

لماذا يا ترى انحرف معظم المتصوفة وخصوصا المتفلسفة منهم والمتأخرين من أتباع الطرق والزوايا؟.

هناك عوامل كثيرة وراء ذلك الانحراف، ولعل ثنائية الحقيقة والشريعة التي افتعلها المتصوفة تكون من بين العوامل الأساسية في ذلك: إن الصوفي عندما يقول بأنه ينتسب إلى أهل الحقيقة، فإنه قد يؤسس في نفسه نفورا من الفقه في الدين، ومن هنا يفتح على نفسه بابا كبيرا في الجهل بأحكام الدين. كما أنه بانغماسه في عالم الحقيقة وتحليقه في الأجواء الروحية، قد أحدث في كيانه اضطرابا وخللا بين الجانب الروحي والجانب المادي لشدة اهتمامه بالأول وإهماله للثاني، مما أدى به إلى سوء فهم مهمة الاستخلاف في الأرض التي تعني إلى جانب العبادة المحضة، إعمار الأرض وبناء الدور والمؤسسات والاهتمام بالمسلمين وبالحرث والنسل.

قال الإمام محمد بن القيم مستنكرا قول الصوفية بأن هناك علما باطنا وظاهرا:

"ومن كيد الشيطان ما ألقاه إلى جهال المتصوفة من الشطح والطامات، وأبرز لهم في قالب الكشف من الخيالات، فأوقعهم في أنواع الأباطيل والترهات، وفتح لهم أبواب الدعاوى الهائلة، وأوحى إليهم أن وراء العلم، طريقا إن سلكوه أفضى بهم إلى الكشف العياني، وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن، فحسن لهم رياضة النفوس وتهذيبها وتصفية الأخلاق، والتجافي عما عليه أهل الدنيا، وأهل الرياسة، والفقهاء وأرباب العلوم، والعمل على تفريغ القلب وخلوه من كل شيء، حتى ينقش فيه الحق بلا واسطة تعلم. فلما خلا من صورة العلم الذي جاء به الرسول، نقش فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الأباطيل، وخيله للنفس حتى جعله كالمشاهد كشفا وعيانا، فإن أنكره عليهم ورثة الرسل، قالوا: لكم العلم الظاهر ولنا الكشف الباطن، ولكم ظاهر الشريعة، وعندنا باطن الحقيقة، ولكم القشور ولنا

اللباب. فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة والآثار كما ينسلخ الليل من النهار، ثم أحالهم في سلوكهم على تلك الخيالات، وأوهمهم أنها من الآيات البينات، وأنها من قبل الله إلهامات. فلا تعرض على السنة والقرآن وأن تعامل إلا بالقبول والإذعان، وكلما ازدادوا بعدا وإعراضا عن القرآن وما جاء به الرسول، كان هذا الفتح على قلوبهم أعظم"[13].

ثم إن الأستاذ سعيد حوى إذا كان يقصد بقوله: "لابد من وجود علم التصوف كعلم يبحث عن أحوال الصحة والمرض للقلب...." طريقة أو منهجية منطقية لا علاقة لها بفلسفة التصوف وقواعده، من مشيخة وسماع وشطحات وخرافات، فهذا في نظري، والله أعلم، لا يتعارض مع الدين لأننا أحوج ما نكون الآن إلى طريقة منهجية في دراسة أمراض النفس والبحث في عللها المزمنة، والأخذ بيدها إلى عالم الطمأنينة والعافية. هذا وينبغي أن يكون هذا العلم مجردا من نظام المشيخة والطرقية، مستفيدا مما يشتمل عليه التصوف من الحكم والآداب التي لا تتعارض مع الكتاب والسنة.

إن تصوف الأوائل مع التزامهم ما استطاعوا بقواعد الدين وضوابطه، يبقى تصوفا أملته الظروف والتحولات الاجتماعية والسياسية والثقافية، التي عرفها المجتمع الإسلامي. وإذا كان واقعنا الآن مختلفا عن ذلك الواقع، لماذا نفتعل خلق ظاهرة التصوف على طريقة الجنيد أو أحد من المتأخرين من الشيوخ الطرقيين؟ إن الأمة الإسلامية الآن بصدد يقظة قوية لا يختلف فيها اثنان ويشهد بذلك الأعداء، فيجب والحالة هاته، أن ينصب الاهتمام على فكر البناء والإقلاع والانطلاق، لا فكر

---

[13] - محمد بن قيم الجوزية: "إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان"، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج 1، ص 119.

رد الفعل والمواجهة السلبية عن طريق العزلة والتحليق في عالم الإشراقات والكشوفات، والانصراف عن شؤون المجتمع وهموم الأمة.

يتناول هذا الكتاب: "الفكر الصوفي: إشكاليات وقضايا"، موضوعات صوفية مختلفة: منها ما له علاقة بالسياسة والمجتمع مثل: "كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي بين سلطتي المرابطين والموحدين"، أو "موقف السلطان المولى سليمان العلوي من التصوف الطرقي"، أو "علاقة الصوفية الطرقية المعاصرة بأمريكا" بهدف تكوين حلف لمواجهة المد السلفي. ومنها ما يرتبط بقضايا شاذة: عبادة النفس عند بعض أرباب الصوفية، والنزوع نحو الحلول ووحدة الوجود. ومنها ما هو معرفي مثل: "إشكالية العلم اللدني بين محيي الدين بن عربي الحاتمي ومحمد بن قيم الجوزية". ومنها ما هو تربوي سلوكي مثل: "شيخ التربية وشيخ العلم والتعليم"، أو "التخويف النفسي عن الحارث المحاسبي".

كما حرص المؤلف على إدراج بعض النصوص الصوفية في ثنايا مباحث الكتاب، قصد تحليلها وربطها بالثقافة والمجتمع؛ أي أن النصوص الصوفية هي بمثابة مرايا تنعكس فيها مشاهد وصور نابعة من الواقع الاجتماعي والثقافي والحضاري.

ونظرا لكون الكاتب مارس تجربة صوفية قبل أربعة عقود، وحرر كتابا في الموضوع تحت عنوان: "تجربتي الصوفية: مساهمة في فهم الكيان الصوفي"، فقد حرص على إدراج ملخص موجز لهذه التجربة ضمن فصل من فصول الكتاب، لعل القارئ يستفيد منها، ومن أسباب ممارستها، ومن ومنعرجاتها، والنتائج التي تمخضت عنها.

وحرر بقرية بني صالح من قرى تطوان
المحروسة في رجب الخير 1442هـ

الفصل الأول

قراءة في التصوف المغربي

1- التصوف المغربي: النشأة والتأسيس

2- كتاب "الإحياء" لأبي حامد الغزالي بين سلطتي المرابطين والموحدين

3- الحركة الصوفية في العصر المريني

4- التصوف السياسي في عهـد السعديين

5- التصوف الطرقي والزوايا في العصر العلوي

1.5- الزاوية الناصرية

2.5- الزاوية الوزانية

3.5- موقف السلطان المولى سليمان من الزوايا والطرقية

6- خلاصة

1 ـ التصوف المغربي؛ النشأة والتأسيس

إذا كان ظهور التصوف في المشرق العربي الإسلامي، يؤرخ له عادة بنهاية القرن الثاني للهجرة، فإنه يصعب أو قد يتعذر الحديث عن حركة صوفية حقيقية في المغرب قبل القرن الخامس الهجري. ذلك لأن القطر المغربي بما في ذلك المغرب الأوسط والأدنى، كان خلال القرون الأربعة الأولى للهجرة في معزل عن كثير من التيارات الثقافية والفكرية التي كان الشرق العربي الإسلامي آنذاك مسرحا له.

إن عامل الفتوحات الإسلامية وانفتاح الحضارة الجديدة الناشئة، على الأمم المجاورة كالفرس والهند والرومان، وما إلى ذلك من عوامل الاحتكاك الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، كل هذه الأسباب والبواعث أدت إلى ما يسمى بالتلاقح الفكري والثقافي، إذ سرعان ما تسربت عناصر من ثقافات ومعتقدات تلك الأمم، وامتزجت بالثقافة الإسلامية، ثم برزت جلية في جوانب كثيرة من هذه الثقافة؛ خاصة في علم الكلام والفلسفة والتصوف. فكان منها مثلا نظريات لابن سيار النظام وأبي الهديل العلاف في علم الكلام، ونظريات لأبي يعقوب الكندي وأبي نصر الفارابي في الفلسفة ونظريات للحكيم الترمذي وأبي منصور الحلاج وغيرهما في التصوف.

ولعل هذا المجال الأخير كان أكثر خصوبة وأكثر انتشارا في المدن والحواضر الإسلامية مثل بغداد والكوفة والبصرة وباقي مدن الشام ومصر وخراسان. فلم يكد يطلع القرن الثالث الهجري، حتى كان التصوف قد تجاوز مرحلة التأسيس وإرساء القواعد، وانطلق ينشئ المدارس الصوفية المختلفة، ويطور مبادئ وتعاليم السلوك الصوفي، فنتج عن ذلك ظهور أدبيات صوفية تتضمن ألوانا من الرموز والإشارات الروحية، وصنوفا من المعاني والأحوال والمقامات، كما تتضمن أفكارا فلسفية ذات أصول هندية ويونانية، عبروا عنها بالفناء ووحدة الوجود ووحدة الشهود.

وهكذا أصبحت المؤلفات والرسائل الصوفية تعد بالمئات، كما كثر المتصوفون، حتى غدا تأثيرهم قويا في بعض الأوساط الاجتماعية، مما أدى إلى احتدام الصراع بينهم وبين الفقهاء، بل كان للسلطة أحيانا مواقف حاسمة حيال بعضهم كما هو الشأن فيما يتعلق بالحلاج الذي حكم عليه بالقتل صلبا.

وخلاصة القول؛ إن هذه المظاهر الصوفية الناتجة عن العوامل المشار إليها آنفا لم يكن لها وجود في الأقطار المغربية الثلاثة. وإن ما ذهب إليه بعض الدارسين من أن التصوف عرف وانتشر في تلك الأقطار، زمن انتشاره في المشرق محض تخمين وافتراض لا يقوم على أسس علمية. يقول إبراهيم حركات:

"أما في المغرب المسلم فإن ريح التصوف هبت من طريق الدعاة، وعدد من الفقهاء وحتى المحدثين. وقد يكون في تراجم أبي العرب في طبقاته، والمالكي في رياض النفوس ما يغني عن كل تفصيل في هذا الباب. غير أن الدعاة الذين كانوا في أول الفتوح من بعض الصحابة والتابعين، ثم ممن لحقهم من الوافدين والمحليين، لم يتجاوزوا في الدعوة حدود الدين إلى خدمة نظام سياسي بعينه. وعد أبو يعرب من أوائلهم؛ إسماعيل بن عبيد من موالي الأنصار (ت 107هـ). وكان ناسكا يلبس الصوف، وأنشأ مسجدا بالقيروان. وعرف بتاجر الله، فقد كان يخصص ثلث موارده للصدقات(...). وتتحدث مصادر التاريخ المغربي عن شخص شاكر الذي قيل أنه من أصحاب عقبة بن نافع وأنه أنشأ رباطا عرف لدى العامة ب"رباط سيدي شيكر"(...) فإن ما يهم الآن هو أن دائرة الزهاد العباد اتسعت ونمت في وقت واحد تقريبا مع مرحلة الفتح الإسلامي، وعن طريق شبكة الرباطات العديدة التي ساهم في إنشائها ولاة كحسان بن النعمان وموسى بن نصير، وخواص مثل شاكر هذا وغيره، كما في رباط ماسة ورباط أغمات. وكان نصيب السواحل منها حظ الأسد، بسبب احتمال وقوع غارات معادية من الضفة الشمالية لحوض المتوسط. وفي كل حال فإن الصوفية الأولين خرجوا من

صفوف المرشدين الدينيين، ثم من الفقهاء، وهذا هو التدرج الذي حصل بالمشرق منذ صدر الإسلام والعصر الأموي"[14].

إن قول الكاتب إبراهيم حركات: "إن ريح التصوف هبت من طريق الدعاة وعدد من الفقهاء وحتى المحدثين"، كلام يفتقر إلى الدليل العلمي والتمحيص الدقيق، إذ كيف يمكننا أن نطلق صفة التصوف على الفقهاء أو الدعاة الذين شاركوا في الفتوحات الإسلامية الأولى؛ من الصحابة والتابعين، أو من الذين وفدوا بعد ذلك على تلك البلدان المفتوحة، والحالة أن التصوف لم يكن معروفا في حياة الصحابة ولا التابعين، ولا زمن الدولة الأموية وإنما نشأ بعد تأسيس دولة بني العباس ببضعة عقود.

وقوله: "وعد أبو العرب من أوائلهم إسماعيل بن عبيد من موالي الأنصار(ت:107هـ) وكان ناسكا يلبس الصوف، وأنشأ مسجدا بالقيروان..."، لا يعني أن إسماعيل هذا كان متصوفا لمجرد أنه اشتهر بالنسك ولبس الصوف، أو لقب بتاجر الله. ولا يخفى على الباحث اللبيب ما تتضمنه هذه الأحكام مما يسمى بالإسقاط.

وكذلك قوله: "فإن الصوفية الأولين خرجوا من صفوف المرشدين الدينيين ثم من الفقهاء، وهذا هو التدرج الذي حصل للمشارقة..."، يفتقر أيضا إلى شواهد علمية، أو بالأحرى، يتعارض مع حقائق تاريخية متعلقة بنشأة التصوف، ذلك أن جل المتصوفة الأوائل ولجوا التجربة الصوفية بعد حياة لا علاقة لها بالفقه أو الإرشاد الديني، وهذا ما يلاحظ من تتبع حياة أفراد من أولئك المتصوفة أمثال؛ إبراهيم بن أدهم، والشبلي، و ذو النون المصري وغيرهم.

[14] - إبراهيم حركات: "مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى ق15/9م"، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2000، ج 3، ص 6-7.

ثم إن كاتبنا عندما يقول: "فإن ما يهم الآن هو أن دائرة الزهاد والعباد اتسعت ونمت في وقت واحد تقريبا مع مرحلة الفتح الإسلامي... وفي كل حال فإن الصوفية الأولين خرجوا من صفوف المرشدين الدينيين ومن الفقهاء..."، أحسبه لا يميز بين الزهاد والعباد وبين الصوفية، والحال أن الفرق بينهما كبير ودقيق، كما أن الزهد من جوهر الإسلام في حين أن التصوف شيء طارئ عليه.

وفصل الخطاب في هذه المسألة، أن التصوف في المغرب ظهر مع مطلع القرن الخامس الهجري. وإلى هذا الرأي يميل بعض الباحثين والدارسين من بينهم الأستاذ علال الفاسي، الذي قسم التصوف في المغرب إلى أربعة عصور: العصر الأول يتمثل في عهد أبي مدين في القرن الخامس الهجري، والعصر الثاني من زمن عبد السلام بن مشيش أواخر القرن الخامس إلى زمن أبي الحسن الشاذلي في القرن السابع، والعصر الثالث من زمن الشاذلي إلى عهد سليمان الجزولي من القرن السابع الهجري إلى القرن التاسع الهجري، والعصر الرابع والأخير من عهد الجزولي إلى يومنا هذا من القرن التاسع إلى القرن الرابع عشر الهجري.[15]

وأومأت الدكتورة منال عبد المنعم جاد الله إلى الرأي نفسه في كتابها؛ "التصوف في مصر والمغرب": "وعلى الرغم من ظهور التصوف في القرن الثاني الهجري وانتشاره في الشرق العربي إلا أن المجتمع المغربي كان بمعزل عنه، ولم يعرفه أهله كما عرفه إخوانهم المشارقة حتى أوائل القرن الخامس الهجري، وقبله بقليل وذلك في عهد المرابطين"[16].

---

[15] - انظر: علال الفاسي: "التصوف الإسلامي في المغرب"، مجلة الثقافة المغربية، عدد 1، 1970، ص 38.

[16] - منال عبد المنعم جاد الله: "التصوف في مصر والمغرب"، منشأة المعارف بالأسكندرية، 1997، ص 127.

ومع ذلك فإن المرء لا يستبعد ظهور أو وجود بعض الأفراد من المتصوفة في المنطقة المغاربية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، بيد أن عددهم ضئيل إذا ما قورن بعدد زملائهم في المشرق.

ومن ناحية أخرى، يمكن الحديث عن نمو وتطور أدبيات الزهد والرقائق والمواعظ، في المنطقة المغاربية بدءا من مرحلة فتح الإسلام. ذلك أن المناخ الديني والثقافي والاجتماعي والسياسي الذي كان سائدا في هذه المنطقة، خلال القرون الثلاثة التي أعقبت الفتح الإسلامي، كان مناسبا لازدهار وانتشار هذا النوع من الأدبيات.

2 - كتاب "الإحياء" لأبي حامد الغزالي بين سلطتي المرابطين والموحدين.

انطلاقا من القرن الخامس الهجري بدأت بعض معالم الفكر الصوفي تنتشر في المغرب، لكن هذه المعالم لم ترق إلى مستوى النضج والتطور الذين عرفهما التصوف آنذاك في المشرق. ثم طلع القرن السادس الهجري، يحمل في أحشائه بذور أول مدرسة صوفية في المغرب على يد ابن حرزهم وأبي يعزى. أما الأول فهو أبو الحسن علي بن إسماعيل، من أصل أندلسي استوطن أجداده مدينة فاس. ويستفاد من بعض المصادر مثل "التشوف إلى رجال التصوف"، و"جذوة الاقتباس"، و"الروض العطر الأنفاس"، و"أنس الفقير"، أن ابن حرزهم هذا سافر إلى المشرق ومكث فيه سنوات، احتك خلالها برجال الفقه والتصوف، كما اتصل بأبي حامد الغزالي وتأثر به.

ولما رجع إلى المغرب نشر أفكاره الصوفية، كما عمل على تدريس كتابه "إحياء علوم الدين"، ذلك الكتاب الذي حظي بمنزلة خاصة في قلوب صوفية المغرب.

وقال عنه التادلي صاحب التشوف: "فإن إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد الطوسي الغزالي رضي الله عنه، هو المنتهى في ذلك. وفد ذكرت من فضائل الإحياء في أثناء ذكر الرجال الأكابر ما ستقف عليه إن شاء الله وقد ذكرت من فضائله (...) وما طعن عليه إلا علماء الدنيا الذين أظهر عوارهم، والنهار لا يحتاج إلى دليل"[17].

والواقع أن تأثير هذا الكتاب استمر قائما في قلوب صوفية المغرب؛ مثل أبي يعزى، و ابن جليل القصري صاحب كتاب "شعب الإيمان"، وأبي الحسن الشاذلي،

[17] - إبن الزيات التادلي: "التشوف إلى رجال التصوف"، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، 1981، ص 36.

كما أن مؤسسي وأتباع الطرق الصوفية التي اشتهرت في المغرب مثل الجزولية، والزروقية، والدرقاوية وغيرها، كانوا لا يستغنون عن هذا الكتاب، ويعتبرونه مرجعا فريدا في السلوك الصوفي. ولا زال هذا الكتاب يحظى بعناية فائقة لدى أتباع الزوايا والطرق الصوفية في المغرب المعاصر.

وتجدر الإشارة إلى أن الصراع بين الفقهاء والمتصوفة في الأندلس، كان قد نشأ بعد موت عبد الله بن مسرة القرطبي الصوفي المتفلسف (ت 319هـ)، الذي ظلت أفكاره الصوفية الممزوجة بالفلسفة حية في قلوب تلامذته فيما بعد، والذين عملوا على تأسيس مدرسة التصوف الفلسفي في الأندلس، تلك المدرسة التي كان من ممثليها متصوفة بارزون من أمثال: إبن قسي، وإبن برجان، وإبن العريف، وإبن عربي الحاتمي.

لقد ضاق فقهاء الأندلس ذرعا بانتشار الفكر الصوفي الذي بلغ ذروته مع قدوم كتاب الإحياء، وما كان له من صدى طيب في نفوس المسلمين في الأندلس والمغرب. وإزاء هذه المنافسة الصوفية في المجال الديني والمعرفي، سعى بعض الفقهاء للإيقاع بخصومهم الصوفية، والعمل على تطويق فكرهم ومحاربته، فاستجاب الأمير المرابطي علي بن يوسف لهذه الرغبة.

ولم تكتف السلطة المرابطية بإصدار ومنع مؤلفات الصوفية ذات المشرب أو المنحى الفلسفي، أو تلك التي تتضمن أفكارا وتصورات منحرفة عن السنة، وإنما طالت سياستها بعض أرباب الفكر الصوفي. وهكذا أبعد المتصوف الشهير أبو يعزى عن حومة البليدة بفاس، كما سجن المتصوف أبو الحسن علي بن حرزهم، وأبو عبد الله بن عمر الأصم، وأبو عبد الله الدقاق وآخرون..

اتسم العهد المرابطي بميزات عديدة؛ من أشهرها تلك النهضة العلمية التي مثلها بالدرجة الأولى فقهاء المالكية في المغرب والأندلس. ورغم حرص الدولة والفقهاء على

وحدة المذهب الديني، إلا أن تياراتها الفكرية قد تعددت، وبالمقابل كانت هناك رقابة صارمة تهدف إلى صيانة وحدة المغرب الدينية والسياسية والمذهبية.

وقد تجلى أبرز حدث فكري في عهد المرابطين، في ذلك الصراع المرير الذي حصل بين الفقهاء والمتصوفة، بسبب إحراق كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام أبي حامد الغزالي. وقد كانت هناك طائفة من الفقهاء تعرف بالغزالية منهم ابن العربي المعافري، والفضل بن النحوي، وأبو الحسن علي بن حرزهم، قاومت إحراق كتاب "الإحياء" ورأت في ذلك تطاولا عليها.

ويذكر لنا المؤرخون من بينهم عبد الواحد المراكشي، وعبد الرحمان بن خلدون، استصدار فتوى تنص على إحراق كتاب "الإحياء" وتوعد لمن وجد عنده شيء من كتب الغزالي بالسجن. وهذا التصرف خلق أزمة روحية في صفوف الطلبة والعلماء، الذين لم يوافقوا على الفتوى.

أضف إلى ذلك ما كان يلاقيه المتصوفة من اضطهاد من طرف فقهاء الدولة المرابطية، مما أدى إلى قتل بعضهم؛ كما حصل لأبي العباس أحمد المعروف بابن العريف، بعد إشخاصه أو المجيء به من ألميرية بالأندلس. كما تم إشخاص متصوفة آخرين يذكرهم ابن التادلي صاحب "التشوف إلى رجال التصوف"، كأبي الفضل أحمد، وأبي عبد الله محمد عمر الأصم، ومحمد بن الحسين الميورقي الغرناطي، وابن برجان، الذي تم إشخاصه من إشبيلية. ويذكر صاحب "المعجب في أخبار المغرب" وكذا صاحب "التشوف"، أن علي بن يوسف كان يبدي تحفظا إزاء هذا الاضطهاد والمضايقة لهؤلاء الأقطاب من المتصوفة، الذين بالرغم من ذلك نشطوا في المغرب، وكانوا يلقون دروسا في رباطات منتشرة في مختلف البقاع منها؛ رباط ماسة، ورباط تينمليل. ومن الزوايا؛ زاوية صالح بن حرزهم تلميذ أبي حامد الغزالي.

لقد عظم أمر الفقهاء وانصرفت وجوه الناس إليهم، فكثرت بذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم. ولهذا نجد فقهاء الدولة المرابطية يقفون بتعنت أمام أي محاولة تهدف إلى التغيير أو الإصلاح، ولم يترددوا لحظة واحدة في إصدار فتوى تنص على حرق كتاب "الإحياء" الذي ينتقد أعمالهم، مدعين أنه كتاب خارج عن الدين، الشيء الذي خلق لهم معارضة من طرف الفقهاء الذين نعتوهم بعلماء الدنيا، وفي مقدمتهم عبد الله بن حمدين قاضي قرطبة. وقد كانت معارضة الفتوى صادرة عن فقهاء من مختلف المواقع بالغرب الإسلامي، والذين كانوا خارج فلك الدولة المرابطية، كما أن هناك من تراجع عن قرار الفتوى.

يقول ابن طملوس: "ولما امتدت الأيام وصل إلى هذه الجزيرة كتب أبي حامد الغزالي متفننة، ففزعت أسماعهم بأشياء لم يألفوها ولا عرفوها، وكلام خرج به عن معتادهم من مسائل الصوفية، وغيرهم من سائر الطوائف الذين لم يعتد أهل الأندلس مناظرتهم ولا محاورتهم. فبعدت عن قبوله أذهانهم، ونفرت نفوسهم. وقالوا إن كان في الدنيا كفر وزندقة فهذا الذي في كتب الغزالي هو الكفر والزندقة. وأجمعوا على ذلك واجتمعوا للأمير إذ ذاك وحملوه على أن يأمر بحرق هذه الكتب المنسوبة للضلال بزعمهم، وعزموا عليه في ذلك حتى أجابهم إلى ما سألوه منه"[18]. ويضيف ابن طملوس قائلا: "فأحرقت كتب الغزالي وهم لا يعرفون ما فيها. وخاطب الأمير إذ ذاك جميع أهل مملكته يأمرهم بحرقها، ويعلمهم أنه هو الذي أدى إليه نظر العلماء. وقرئت مخاطبته على المنابر وشنع الأمر بذلك تشنيعا عظيما وامتحن من كان عنده منها كتاب. وخاف كل إنسان على نفسه أن يرمى بأنه قرأ منها كتابا أو اقتناه. وأشهر من امتحن في هذه الثورة أبو بكر بن العربي المعافري رحمه الله."[19]

---

[18] - إبن طملوس: "المدخل لصناعة المنطق"، طبعة آسين بلاسيوس، مدريد، 1916، ص11.

[19] - المرجع نفسه، ص 12.

يبدو مما سبق، أن العلاقة بين السلطة المرابطية والمتصوفة لم تكن علاقة ود وصفاء، وإنما كانت علاقة تنافر ومواجهة. ومع ذلك فإن هذه العلاقة قد جنحت إلى نوع من التقارب في العقود الأخيرة من حياة الدولة المرابطية، خاصة عندما بدأت تلوح في الأفق أعلام الخصوم من الموحدين. بيد أن هذه الخطة لم تكلل بالنجاح، حيث إن المتصوفة على عهد المرابطين، فيما يذكر صاحب "التشوف"، كانوا يتحاشون الأمراء المرابطين وحاشيتهم، ويزهدون في مناصب الدولة وكل ما يتعلق بمؤسساتها.

ومن ناحية أخرى، أتيحت الفرص الكثيرة للمهدي بن تومرت من أجل الدعاية لدولته والتبشير بإمامته ونقض الأسس التي كانت تقوم عليها دولة المرابطين، ويعتبر حادث الإحراق بدوره فرصة سانحة لصالح الدعوة الموحدية؛ يقول ابن طملوس: "ثم لم تكن تمتد الأيام إلا قليلا وجاء الله بالمهدي رضي الله عنه، فإنه بين للناس ما كانوا قد تحيروا فيه، وندب الناس إلى قراءة كتب الغزالي رحمه الله، وعرف من مذهبه أنه يوافقه، فأخذ الناس في قراءتها وأعجبوا بها، وبما رأوا فيها من جودة النظام والترتيب الذي لم يروا مثله في تأليف. ولم يبق قط في هذه الجهات من لم يغلب عليه حب كتب الغزالي، إلا من غلب عليه الجمود من غلاة المقلدين، فصارت قراءتها شرعا ودينا بعد أن كانت كفرا وزندقة"[20].

لا شك أن ابن تومرت بذل الجهد الكثير من أجل تغيير قناعات الناس واعتقادهم في كتاب "إحياء علوم الدين" من اتخاذه رمزا للضلال والكفر والزندقة، إلى الإعجاب به وحب كتابات الغزالي عامة؛ حيث صارت قراءتها شرعا ودينا على حد تعبير ابن طملوس، وفي أسوأ الأحوال استطاع أن يخرجهم من الحيرة والاضطراب بسبب كتاب "الإحياء".

---

[20] - إبن طملوس: "المدخل لصناعة المنطق"، ص 12.

عرف المهدي كيف يوظف ذلك الاستياء العميق في نفوس الناس، والذي خلفه فعل السلطة السياسية المرابطية بإحراقها لكتاب الغزالي، وشنها حربا شعواء عليه، بل وصل الأمر بها إلى حد التهديد بسفك الدماء، واستئصال الأموال لمن وجد عنده الكتاب ثم لم يبادر ويسرع إلى إحراقه.

وهكذا في الوقت الذي عمل فيه الفقهاء المرابطون على تأليب السلطان على الكتاب ودعوته الصريحة إلى إحراقه، يأتي ابن تومرت لإعادة الاعتبار للإحياء وتحبيبه للناس وتوجيههم إلى قراءته والاعتناء به.

لقد أجمعت جل المصادر على لقاء ابن تومرت بالإمام الغزالي بل تذهب إلى تتلمذه وجلوسه إليه، لهذا يكون من واجب الطالب تجاه شيخه رعاية مكتوباته، وعنايته بمؤلفاته، والاهتمام بها قد يكون هذا دافعا من الدوافع إلى الاهتمام بكتاب الإحياء.

ومن المعروف أن وقت ظهور الإمام الغزالي كان وقت محنة وانحطاط يمر بها العالم الإسلامي، حيث بدأت تهتز أركان الخلافة الإسلامية. كما كثرت وشاعت الفرق الباطنية الداعية إلى الإلحاد والمروق من الدين، وجاءت الأخبار تترى عن التتار والمغول، وهناك بالغرب الإسلامي دعوة ودولة منفصلة عن دولة الخلافة بالمشرق ناهيك عن مواجهة المسلمين للصليبيين.

وسط كل هذه الفتن والتجزئة السياسية، ظهر الإمام الغزالي وسعى إلى حفظ ما يمكن حفظه؛ فواجه الإلحاد والزندقة التي أتت بها الباطنية بكل من الفقه والتصوف. وأفتى بجواز خلافة إمامين في عصر واحد حفاظا على شوكة الإسلام، فذاع صيته واشتهر، وتعلقت آمال الناس به، فكان يصدق عليه مثل الرجل الذي أقام الدنيا وشغل الناس. كما تعددت وجوهه واتجاهاته وتردده بين الأشعرية والصوفية والفلاسفة. يقول ابن طملوس: "وبما أعطاه الله من بديع الحيلة، فإنه

عاش جميع الأصناف وولج معهم الولوج الذي شاركهم به المشاركة التامة حتى صار إماما لكل صنف، ورئيسا لكل مذهب"[21].

لقد أراد المهدي بن تومرت أن يستفيد من رمزية الرجل وبهائه العلمي والمعرفي، وذلك بالاعتناء بكتابه "الإحياء"، الذي زهد فيه المرابطون وأحرقوه، فكان عليه ليكسب تلك المعركة أن يقوم بإحياء "الإحياء"، موظفا ذلك في خدمة مشروعه السياسي للإطاحة بالدولة المرابطية.

رغم أن المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين، كان متشبعا بالأفكار الصوفية التي تشربها بعد رحلته إلى المشرق، واتصاله بأبي حامد الغزالي وبغيره من المتصوفة والعلماء، بالإضافة إلى أفكاره المهدوية وما عرف به من الزهد والتقشف، والكرامات العديدة، فإن الخليفة عبد المؤمن بن علي عرف بموقفه الصارم تجاه الحركة الصوفية، حتى لا يباغث بانتفاضة شعبية يقودها زعيم صوفي متطلع إلى السلطة.

كما أنه آثر أن يبقى وفيا لعقيدة المهدي بن تومرت وحده ولا يلتفت لأي سلطة روحية سوى السلطة الروحية للمؤسس الأول. ولذا فإنه انتهج منذ البداية سياسة المراقبة والملاحقة للشيوخ المتصوفة المشهورين. ولم تسلم ساحة الموحدين السياسية رغم الحزم واليقظة من حدوث الفتن والقلاقل ذات أصول صوفية، من بينها ثورتان: الأولى هي ثورة ابن هود برباط ماسة[22]، وهو رباط اشتهر بجذبه للصوفية من كل مكان وتقام فيه تجمعات ومواسم. وقد أحرز ابن هود صحبة الصوفية والمريدين بعض الانتصارات على الجيش الموحدي. والثانية قادها سنة 539هـ أبو القاسم أحمد بن قسي في غرب الأندلس. وتعرف هذه الحركة التمردية في المصادر التاريخية ب

---

[21] - إبن طملوس: "المدخل لصناعة المنطق"، ص 12.

[22] - انظر: مصطفى بنسباع: "ثورة ابن هود على الموحدين"، مجلة كلية الآداب، تطوان، عدد 6، 1993.

"حركة المريدين". وإثر هاتين الثورتين عمد الخليفة عبد المؤمن إلى استدعاء كثير من رموز التصوف في عصره، وأرهبهم وأغلظ لهم القول، كما أمر بسجن بعضهم مثل ما فعل بأبي يعزى حيث حبسه في صومعة الجامع بمراكش[23].

واتبع الخليفة أبو يعقوب يوسف نهج أبيه عبد المومن، فمنع الصوفية وحركاتهم، إلا أن الخليفة الذي أتى من بعده وهو يعقوب المنصور غير النهج واستخدم سياسة المرونة والاستقطاب، كما عمد إلى ترسيم الممارسة الصوفية.

والحقيقة أن هذا الخليفة أدرك بذهنه الثاقب مدى الثقل الاجتماعي والسياسي الذي أحدثه تنامي النفوذ الصوفي في المجتمع، وكيف أن معظم الناس في المغرب الكبير والأندلس، قد أشربوا حب التصوف ومالوا إلى تربية وتعاليم الشيوخ المربين والصلحاء، وأن الرباطات التي تأسست قبل مجيء دولة المرابطين، ما زالت تنهض بدورها الإشعاعي الروحي والتربوي والإصلاحي، على يد الشيوخ الصوفية.

يقول عبد الواحد المراكشي متحدثا عن علاقة المنصور بأهل التصوف: "وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل العلم صيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد ويكتب إليهم يسألهم الدعاء..."[24].

ويذكر ابن عذاري في كتابه "البيان المعرب"، أن الخليفة المنصور دعا إلى إصلاح المجتمع بإعادة العدل، والنهي عن المنكرات وجميع أنواع الفساد؛ مثل الغناء وشرب الخمور، والحث على ممارسة الخير والإحسان والفضيلة، مما جعل الناس وكثيرا من المتصوفة يميلون إليه ويحبونه. كما يذكر صاحب "المعجب في أخبار المغرب" أيضا؛ أن هذا الخليفة كان يطلب من الصوفية والصالحين أن يصحبوه في جهاده. وهذا ما

[23] - ابن الزيات التادلي: "التشوف إلى رجال التصوف"، تحقيق الأستاذ أحمد التوفيق ، ص 215.

[24] - عبد الواحد المراكشي: "المعجب في أخبار المغرب"، دار الكتب العلمية بيروت 1998، ص 278.

حصل مثلا عندما أراد التوجه إلى الأندلس لمنازلة النصارى في معركة الأرك سنة 591هـ. ومما يدل على نجاحه في سياسة استقطاب الحركة الصوفية؛ استمالته للصوفي الشهير أبي العباس السبتي، حيث أدخله إلى مراكش وحبس عليه مدرسة للعلم والتدريس، وزاوية للفقراء والذكر والعبادة، ودارا للسكنى. ويبدو أن هذه السياسة السلمية والاستقطابية التي انتهجها الخليفة المذكور، والتي انتعشت خلالها الحركة الصوفية لم تدم سوى بضعة عقود، إذ سرعان ما تغيرت، وذلك في أعقاب الهزيمة التي منيت بها جيوش الموحدين، على يد النصارى في معركة العقاب بالأندلس سنة 626هـ. لقد هزت هذه الهزيمة المجتمع المغربي والأندلسي، وأحدثت شروخا في كيانه الاجتماعي والسياسي، مما دفع ببعض الطوائف الصوفية للميل إلى الخصم المريني الناشئ والانضمام تحت لوائه.

3- الحركة الصوفية في العصر المريني

لقد كان لموقعة العُقاب أثر عميق في نفوس المسلمين عامة والأندلسيين والمغاربة خاصة. نعم: "هذا الدهر فلا تعجب من طوارقه، ولا تنكر هجوم بوائقه. هو الدهر لا تتهنَّى فيه المواهب حتى تكدرها الشوائب، وتتخللها المصائب. ولا تصفو فيه المشارب"[25]. لقد كانت فاجعة "العُقاب" مصيبة أضعفت العزائم القوية، وانهدت لها أركان الدولة الموحدية. ويا ليت المصاب انحصر في تلك الواقعة الأليمة، إذ لم تلتئم بعد جراحاتهم، حتى فوجئ المسلمون بفجائع حركة الاسترداد؛ حيث شرعت الجيوش المسيحية تجتاح القرى والقلاع والمدن، كما بدأت بعض المدن الساحلية المغربية تتعرض لهجمات أساطيل الصليبيين، والتي طفقت تتساقط كأوراق الخريف.

لقد نالت هذه الأحداث من شخصية المسلمين في الغرب الإسلامي، وأثرت في نفوسهم تأثيرا بليغا، مما جعلهم يشعرون بالحزن والأسى واليأس، وما إلى ذلك من الأوصاف والأحوال النفسية التي تتصف بها النفوس المنكسرة والمنهزمة.

إن هذا الوضع الاجتماعي المتأزم، وهذا المناخ النفسي المتصف بالضعف والانهزامية، بالإضافة إلى عوامل سياسية وثقافية أخرى، كل ذلك أسهم في إيجاد أرضية ملائمة للتصوف الذي يعكس صور النفسية المنهزمة والمنكسرة، وفي الوقت نفسه ما سيقوم به هذا التصوف من خلال مؤسسات الزوايا من أعمال ومواقف دينية وعلمية وتربوية واجتماعية، في التحام وانسجام مع السلطة المرينية.

وهكذا تطورت الحركة الصوفية تطورا كبيرا، وازداد انتشارها في قرى ومدن المغرب الكبير والأندلس أكثر من ذي قبل، وغدت قوة التصوف ذات ثقل كبير في الواقع الاجتماعي والسياسي، مما جعل الدولة المرينية في نشأتها، تبادر إلى التقرب من

---

[25] - أبو منصور الثعالبي: "لباب الآداب"، دار الكتب العلمية، بيروت 1997، ص 205.

كبار الصوفية ذوي الشعبية الواسعة؛ تارة بزيارة السلاطين لهم، أو بالتبرك بأضرحتهم، وطورا بالإسهام في إنشاء بعض الزوايا. لقد حرص سلاطين بني مرين وأمراؤهم على بناء الزوايا والاهتمام بها، كما هو الحال بالنسبة للسلطان يعقوب بن عبد الحق (ت 706هـ)؛ "وبنى الزوايا في الفلوات، وأوقف لها الأوقاف الكثيرة لإطعام عابري السبيل وذوي الحاجات"[26].

"والزوايا التي ينشئها العواهل يخصص معظمها للإيواء والإطعام، وقد تنشأ أيضا للذكر وترتيل القرآن، خصوصا إذا بنيت حول الأضرحة. ومن ذلك زاوية النساك بأحد أبواب سلا... وأنشأ بفاس أكبر زاوية مرينية ضمن مجمع ديني يضم مسجدا جامعا، ومدرسة وحماما حُبُسيا، وعين عليها مقدما يحمل صفة شيخ الصوفية".[27]

لقد اهتم المرينيون، برعاية الصوفية، والزوايا، ما يناهز قرنا ونصف قرن، بحيث أصبحت الزوايا من خلال وظائفها المختلفة، مكونا أساسيا من مكونات المجتمع المغربي، فقد جمعت بين ما كان ينشده الناس من أمان وحاجيات العيش، وما تنشده السلطة من استقرار سياسي واجتماعي.

وإذا كان الرباط أداة لتصحيح العقيدة، وتقوية الإيمان، والدفاع عن الملة الدينية ضد كل أنواع الانحراف الديني، فإن الزاوية، باعتبارها شكلا متطورا للرباط، قد ركزت على ممارسة دينية محكمة، واستقطبت المتعلمين والمريدين من كل الآفاق موفرة لهم شروط التعليم والإقامة.

لقد عمل شيوخ الزوايا من خلال التربية الصوفية والتعليم الديني، على إعداد وتربية عدد هائل من المريدين والأتباع وجعلهم أعضاء نافعين في مجتمعهم.

---

[26] - ابن أبي زرع الفاسي: "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية"، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972، ص91.

[27] - إبراهيم حركات: "مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى ق15/9م"، ج 3، ص 46.

وازداد دور الزوايا أهمية، عندما بدا ضعف الدولة المرينية واضحا، وانطلقت الهجمات المسيحية الصليبية مستهدفة سواحل المغرب، مما كان لها وقع أليم في نفوس المغاربة، الذين وجدوا في أهل الزوايا متنفسا لهم لقيادة عملياتهم الجهادية ضد الغزاة المسيحين.

وكانت مدينة سبتة أكثر مدن المغرب الأقصى رباطات وزوايا، حيث يذكر محمد بن القاسم الأنصاري، أنها كانت تضم عند دخول البرتغال إليها سبعا وأربعين رباطا[28]. وانتشرت الزوايا في كافة أنحاء المغرب، كما امتدت إلى أعماق الصحراء وأطرافها، وهي التي تعاونت فيما بعد مع الزاوية الجزولية على إنشاء الدولة السعدية، وطرد البرتغال من عدة مراكز ساحلية.

لقد ازدهر التصوف إذن في ظل حرية الفكر التي أتاحها المرينيون للجميع؛ حيث نجد نماذج من الصوفية في العصر المريني يمارسون نشاطاتهم بكل حرية، بل في بعض الأحيان يقدمون النصائح والوعظ للسلاطين، كما هو الشأن مثلا فيما يتعلق بالرسالة الموجهة من طرف الصوفي ابن عباد تلميذ ابن عاشر، إلى السلطان عبد العزيز الأول يدعوه فيها إلى كف المظالم، والأخذ على يد الولاة الظلمة. "وكذلك الأمر بالنسبة لتلميذ ابن عاشر أيضا؛ محمد الحلفاوي الإشبيلي المتوفى سنة 758هج، الذي استوطن فاس، وأخذ التصوف عن أبي يعقوب الزيات، نجده هو الآخر يقوم بحملة ضد المناكر والخرافات وقد أعانه على ذلك السلطان أبو عنان المريني"[29].

وبالموازات مع المتصوفة الذين كان لهم دور في تأسيس مدارس وإنشاء زوايا عديدة، فقد ظهر في هذه الفترة المرينية، صوفية أفراد كان لهم تأثير واضح في الحياة

---

[28] - محمد بن قاسم الأنصاري الرصاع: "اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سَنِيِّ الآثار"، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، نشر المكتبة الوقفية؛ الرباط، 1389هـ/1969م، ص 33.

[29] - على أومليل: "الخطاب التاريخي دراسة لمنهجية ابن خلدون"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1984، ص 182.

الاجتماعية. بل إن منهم من كان معروفا بمواقفه المبدئية من ملاقاة السلطان تحت مظلة عدم موالاة أهل الدنيا، منهم؛ ابن العباس أحمد بن المطارحي دفين سلا، والمتوفى سنة 726هـ يقول عنه ابن القاضي: "وكان حسن الفقه، مليح المنزع، مسمتا، وقورا، يورد حكايات الصالحين، مليح المجلس، تحس الرحمة عند لقائه، من المتعبدين الزهاد"[30]، ومنهم أبو يعقوب البادسي المتوفى سنة 734هـ، الذي يشير إليه ابن خلدون في مقدمته، بصدد حديثه عن المهدي بن تومرت، ويقول عنه: "كبير الأولياء بالمغرب، كان في أول هذه المائة الثامنة"[31]. ولعل أبرز هؤلاء المتصوفة: الإمام الصوفي أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي المتوفى سنة 764هـ، الذي أحدث بالمغرب مدرسة ذات طابع خاص. وقد تخرج على يديه تلاميذ صلحاء أخيار، وكان أعلم زمانه بالحلال والحرام. "وقد ظل حريصا على الأخذ بنظريات وتعاليم أبي حامد الغزالي، دون أن يعمل على تكوين مذهب خاص به، وقد لقيه ابن الخطيب، فذكر أنه كان يلبس ثوبا باليا وهو مطرق الرأس صامتا، يعيش في عزلة وعزوف عن الناس"[32]. "وقد ذاع صيته حتى بلغ خبره السلطان أبو عنان المريني، فحاول عبثا أن يتصل به سنة 757هـ، لكنه لم يفلح. وكان ابن عاشر من جهته يوجه مراسلات إلى السلطان ينصحه فيها بعطف ولباقة"[33].

لقد حرص سلاطين بني مرين على الظهور بمظهر الاستقامة والتقوى والفضيلة، ومن أجل ذلك كرموا الفقهاء والزهاد والصوفية، كما قام بعض السلاطين والأمراء المرينيين، بزيارة الشيوخ والعلماء من الصوفية قصد الاستفادة العلمية أو التبرك.

---

[30] - محمد المنوني: "التيارات الفكرية بالمغرب المريني"، مجلة الثقافة المغربية، عدد 5، 1971، ص:122.

[31] - ابن خلدون: "المقدمة"، ص 305.

[32] - إبراهيم حركات: "الحياة الدينية في العهد المريني"، مجلة البحث العلمي، السنة السادسة، عدد 29-30، ص 225.

[33] - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 225.

4- التصوف السياسي في عهد السعديين

لقد كان الحضور الصوفي زمن السعديين قويا وبارزا، وذلك من خلال النشاط الذي كانت تقوم به الزوايا والطرق الصوفية المتعددة. وتجلى هذا النشاط في ثلاثة محاور أساسية:

أ- محور التعليم والتربية الروحية الإيمانية.

ب- محور الإحسان والتكافل الاجتماعي.

ج- محور الجهاد والدفاع عن الثغور.

إن دور الزوايا كما يؤكده تاريخ الدولة السعدية، كان حاسما، إذ لولا قوة المؤسسات الصوفية الطرقية المؤطرة والمهيمنة على شريحة مجتمعية عريضة وكبيرة، لما استطاعت الدولة السعدية إرساء قواعدها وبسط سيادتها.

ومن ناحية أخرى، أجمع المؤرخون المغاربة على أن ميل الزوايا إلى ممارسة المواقف السياسية من السلطة الحاكمة، بدأ يقوى عندما ولجت الدولة السعدية مرحلة الانحطاط والتقهقر، خاصة مع ظهور النزاعات بين أبناء المنصور على السلطة، وأيضا بسبب تفاقم الاضطرابات وتقاعس المسؤولين عن القيام بدورهم الجهادي.

ومن جهة أخرى، فإن إكثار السعديين من الضرائب غير الشرعية، أدى إلى غضب الشعب وحصول ثورات على المخزن السعدي. بل وصل الأمر بالسلاطين السعديين إلى الاحتماء بالأجنبي. وهذا ما قام به الشيخ المأمون حيث استنجد بالإسبان لاسترجاع عرشه، مقابل تنازله عن العرائش لهم في 20 نوفمبر 1610. وقد توصل المأمون بعد ذلك ب: 200 ألف دوقة و6000 بندقية. وفي هذا الصدد يقول صاحب كتاب "مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن": "أشنع ما وقع من ذلك أن

السلطان تكلم مع النصارى دمرهم الله، في تمكينهم من مدينة العر ائش لأغراض فاسدة، وهون على الناس بأعذار واهية، وبعث من يعرض ذلك على العلماء ويأخذ موافقتهم ليرفع اللومة عن نفسه، فمنهم لم يجد مندوحة ومنهم من عصمه الله بالورع..."[34]

فكانت بذلك مسألة تسليم العرائش للإسبان حافزا آخر لتحول شيوخ الزوايا إلى العمل السياسي. وبذلك تعين على الزوايا أن تتولى مباشرة أعمال الجهاد ضد البرتغاليين والإسبان. لقد غدا الجهاد بالنسبة لشيوخ الزوايا واجبا دينيا يستوجب التخلي عن طاعة السلطان، بعد أن أصبح عاجزا عن مواجهة الاحتلال الأجنبي. لقد استغلت الزوايا هذه الظرفية الحرجة التي مرت بها السلطة السعدية، لتنخرط في السياسة ولتصبح قوة سياسية خطيرة في مغرب القرن السابع عشر، معتمدة في ذلك على مؤهلات ذاتية متمثلة في الصلاح والهيبة الدينية. وهكذا تحولت الزوايا من مؤسسة دينية وعلمية تربوية واجتماعية إلى نواة سياسية خطيرة في العقود الأخيرة من العصر السعدي، وأصبحت تتوفر على كل مظاهر السلطة الزمنية؛ من تنظيمات سياسية وعسكرية، أرساها شيوخ الزوايا حتى أن بعضهم لقب بالسلطان، وبعضهم بأمير المؤمنين. وأخذت لهم البيعة، وخطب لهم في المساجد، وضربت السكة بإسمهم. وهكذا أصبحت الدولة السعدية مجرد سلطة جهوية تتصارع هي الأخرى على النفوذ، بعدما كانت مركزا للسلطة والمشروعية.

إن أول هذه الزوايا التي مارست دورا سياسيا في حياتها؛ هي زاوية الشيخ الزعري الذي ينتمي إليها أبو محلى. وقد اشتهر هذا الأخير بورعه، لكنه أوهم الناس بأنه المهدي المنتظر، وأنه يستعد للجهاد، "متخذا من مسألة تسليم العرائش للإسبانيين،

---

[34] - محمد العربي الفاسي: "مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن"، المطبعة الحجرية، فاس، 1906، ص 154.

ذريعة لإعلان الثورة ضد السعديين. ويظهر أن اتجاه أبي محلى كان ملكيا يهدف إلى قلب النظام السعدي وإنشاء دولة ملكية بقيادته. وقد تمكن أبو محلى من السيطرة على الجنوب المغربي، مارا بتافيلالت ودرعة فمراكش، حيث عاش سلطانا في قصر البديع زهاء ثلاث سنوات"[35].

وأمام هذا الخطر لم يجد المولى زيدان بدا من الاستغاثة بزاوية الفقيه ابن أبي زكريا الحاحي في الأطلس الغربي، الذي كان له نفوذ روحي على المنطقة السوسية. يقول صاحب "النزهة": "لما رأى زيدان ما رأى، وتحقق فشل ريحه وضعفه عن مقاومة أبي محلى، كتب للفقيه أبي زكرياء بن عبد الله الحاحي، مستغيثا به ومستصرخا"[36] وقال له: "إن بيعتي في أعناقكم وبين أظهركم، فيجب عليكم الذب عني ومقاتلة من ناوأني"[37]. ولقد لبى هذا الفقيه دعوة السلطان، وخرج سنة 1022هـ إلى مراكش حيث وضع حدا لحركة أبي محلى في معركة كيليز سنة 1022هـ. غير أن أبا زكريا الحاحي سرعان ما تطلع إلى الرئاسة، حيث استقل بتارودانت واستولى على أموال الحكومة وأموال الأوقاف في تارودانت، فاستبد بالأمر وقضى بذلك على المجد الديني العلمي الذي أسسه أجداده، بتورطه في الصراعات السياسية"[38].

وهناك زاوية أخرى؛ وهي الزاوية العياشية التي كان لها ولنشاطها وقع سياسي بالغ الخطورة؛ حيث أنها هددت السلطة السعدية بقيادة زعيمها محمد العياشي، الذي

[35] - محمد حجي: "الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين"، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة فضالة، الرباط، 1978، ج 2، ص207.

[36] - محمد الصغير الإفراني:"نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي"، منشورات بردي مؤسسة علمية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ط 2، 1991، ص 408.

[37] - أحمد بن خالد الناصري: "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط 1، 1955، ج 6، ص 32.

[38] - محمد المختار السوسي: "إيليغ قديما وحديثا"، تعليق محمد بن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية، الرباط، 1966، ص 16.

بدأ أعماله الجهادية سنة 1020هـ، مقاوما كلا من الإسبان والبرتغال. ونظرا لعجز السعديين بمراكش عن القيام بالمهمة الجهادية، فقد قام محمد العياشي بإرسال رسائل إلى المدن المجاورة لحضها على الجهاد ومقاتلة الأعداء. غير أن عمل العياشي هذا اصطدم بكل من الدلائيين والسعديين.

وفي سنة 1637م حصل نزاع بين محمد العياشي والموركسيين الوافدين على المغرب من الأندلس، حيث اتهمهم بالخيانة لارتباطهم بعلاقات مريبة مع الإسبان والإنجليز، الأمر الذي دفعه إلى محاربتهم بعد صدور فتوى في حقهم بذلك. وفي هذا الصدد يقول صاحب "الصفوة": "(...) شقوا عليه العصا وبلغه أنهم تعاقدوا مع النصارى وتمالؤوا على حربه وكانوا يبيعون الزرع للنصارى فيحملوه ليلا.. فأفتى علماء فاس بجواز مقاتلتهم"[39]. إلا أن بعض الموركسيين الذين تمكنوا من النجاة لاذوا بأولياء الزاوية الدلائية، مستنجدين بهم فكان هذا سببا في تضاعف الخلاف بين الزاوية العياشية والزاوية الدلائية، فتعددت بذلك الاصطدامات الدموية بينهم، وانتهى الأمر باغتيال محمد العياشي عند عين القصب وانتهى أمر العياشيين.

وينتمي الدلائيون إلى قبيلة مجاط الصنهاجية حسب ما ذكره ابن خلدون وغيره. وتقع الزاوية شرق خنيفرة في مواطن قبيلة آيت إسحاق من بربر الأطلس المتوسط. وكان جد الديلائيين أبو بكر بن محمد المولود سنة 1536م، رجلا صوفيا عالما فقيها، لمع اسمه في عهد المنصور، فأصبحت زاويته التي أسسها ملجأ لرجال الدين وطلبة العلم، وبدأت الوفود تتوارد عليه حتى اشتهر أمره.

إن عمل الزاوية الدلائية كان عملا دينيا واجتماعيا وتربويا، حيث كان زوار الزاوية يتواردون عليها بالمئات، ويقيمون فيها مدة قد تطول أو تقصر، يطعمون فيها ويتلقون

---

[39] - محمد الصغير الإفراني: "صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر"، المطبعة الحجرية، فاس، د.ت. ص 89.

العلم والتربية. وهكذا نجد أن محمد بن أبي بكر الدلائي يحتكم إليه، ويُلتجَأ إليه لفض النزاعات بين الناس أو القبائل. وكان يبذل جهده في إصلاح ذات البين، والعمل على إنصاف المظلومين، وذلك باستعمال الحكمة والموعظة الحسنة.

لقد حظيت الزاوية الدلائية بسبب انشغالها بالأمور الدينية، بالعطف والرعاية من لدن السلطة السعدية، التي متعتها بالامتيازات المختلفة، وعملت على مسالمتها.

لكن مع تضعضع وانحلال الدولة السعدية، حصل للزاوية الدلائية كغيرها من الزوايا توجه نحو الممارسة السياسية. وكان ذلك مع محمد الحاج بن محمد بن أبي بكر الدلائي الذي "نادى بالجهاد، وأمر كل من انقاد إلى طاعته وإمارته، من غير جبر على أحد، بالقيام بالجهاد"[40].

وهكذا أمام الفراغ السياسي وتردي أوضاع الدولة السعدية، بادر الدلائيون إلى العمل السياسي، وعملوا على إيجاد قوة محلية تعمل على حفظ النظام وتأمين السبل وحماية القوافل. فقام أهل المغرب بدعوى سيدي محمد الحاج، وأذعنوا لطاعته وأمره، وجاءت البيعات من القرى والمدن المغربية؛ حيث بايعه أهل فاس وكتبوا له البيعة بجامع القرويين وقدموا عليه بها للزاوية الدلائية"[41].

ويذكر التاريخ المغربي أن الدلائيين بعد ما هزموا رجال الزاوية العياشية، زحفوا على القصر الكبير وقتلوا قائدها الخضر غيلان، الذي كان تابعا للزاوية العياشية، ثم انتقلوا إلى تطوان وقضوا على أسرة آل النقسيس، التي حكمت تطوان ردحا من الزمن، في استقلال عن السلطة السعدية المركزية.

---

[40] - محمد بن الطيب القادري: "نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني"، تحقيق محمد حجي وأحمد التوفيق، نشر مكتبة الطالب، الرباط، 1977، ج 2، ص 31.

[41] - عبد الجواد السقاط: "الدور السياسي للزاوية في المغرب"، مجلة دعوة الحق، المغرب، العدد 4، ص 94.

ثم إن الدلائيين من جهة أخرى، دخلوا في صراعات وحروب ومعارك مع الزاوية العلوية الناشئة في تافيلالت وسجلماسة، وكانت الحرب سجالا بينهما سنوات طويلة، إلى أن تمكنت الأسرة العلوية الفتية من القضاء على الدلائيين في عهد السلطان المولى الرشيد العلوي، وبذلك انتهى أمر الدلائيين على المستوى السياسي.

يستفاد مما سبق أن الزاوية الدلائية تمثل بكل وضوح التطور الذي حصل في أهداف الزوايا بالمغرب أثناء ضعف الدولة السعدية.

5- التصوف الطرقي والزوايا في العصر العلوي

إذا كانت مؤسسة الزوايا بالمغرب قد حظيت بالعناية والرعاية على عهد المرينيين والسعديين، بسبب دورها الاجتماعي والثقافي والجهادي، مما أكسبها تفردا وقوة وتأثيرا في طبقات المجتمع المغربي، فإنها ستعرف بعد ذلك، تقهقرا وتراجعا تدريجيا على جميع المستويات. وهكذا انتقلت هذه المؤسسة من القوة والاستقلالية، والندية تجاه السلطة، إلى الخضوع والاستسلام لها، الأمر الذي أثر سلبا في نشاطها وأدوارها الاجتماعية والثقافية، ثم ساءت أحوالها في القرنين الثامن والتاسع عشر الميلاديين، حيث انتشرت فيها البدع والخرافات، واستلذ أصحابها البطالة والتواكل، وتكالبوا على حطام الدنيا وحب المشيخة، إلى غير ذلك من الآفات والمصائب.

ومن ناحية أخرى، فإن العصر العلوي شهد ظهور زوايا وطرق كثيرة مثل الزاوية أو الطريقة الناصرية، والطريقة الشرقاوية، والطريقة الوزانية، والطريقة الكتانية، والطريقة الدرقاوية، وغيرها من الطرق والزوايا الصوفية. وتمثل كل طريقة زوايا عديدة منتشرة في كثير من قرى ومدن المغرب. وأقبل المغاربة على التصوف الطرقي إقبالا كبيرا، بحيث عم البلاد والعباد. وبعبارة أخرى، فإن الانتساب إلى الزوايا والطرق الصوفية، أصبح في المغرب ظاهرة اجتماعية ودينية عامة. وإن دلت هذه الظاهرة على شيء، فإنما تدل على التقهقر والضعف السياسي، والاجتماعي، والتراجع الثقافي الذي أصاب المغرب منذ بداية الدولة السعدية. لقد ظل هذا التقهقر مستمرا إلى أن بلغ ذروته مع مجيء الاستعمار. وما كان للزوايا والطرقية أن تنتشر وتستفحل في عصر الإمبراطوريتين المرابطية والموحدية، عصر القوة السياسية والاجتماعية، والازدهار الثقافي والعلمي، وعصر السيادة والهيبة. ثم إن التقهقر السياسي والاجتماعي المشار إليه، نتج عنه طمع الأوربيين في الاستيلاء على بعض موانئ المغرب ومدنه الساحلية. ولما أدرك الشعب المغربي ضعفه وضعف الحكام في

مواجهة التحديات الأوربية، لاذ بالزوايا والتجأ إلى الطرقية ولسان حاله: "يالطيف، يالطيف". وبينما هو كذلك إذ فاجأه المستعمر الغاشم ووطئ أرضه وداس كرامته.

والحقيقة أن هزيمة الموحدين في موقعة العقاب بالأندلس، خلفت بصمات عميقة، وجراحات أليمة في نفوس المغاربة آنذاك. ومنذ ذلك الوقت بدأ الإحساس بشيء من الضعف يدب في كيان الموحدين الذين شهدوا بداية تقلص الرقعة الجغرافية لإمبراطوريتهم الشاسعة. وحاول المرينيون استرجاع تلك العظمة والقوة، فلم يستطيعوا. لقد أصاب الفتور روح المبادرة والإرادة الخلاقة، وفقد الحكام والمسؤولون والفقهاء منطق استقراء السنن والقوانين الاجتماعية، واستخلاص العبر، والإدراك الصحيح لأسباب الهزيمة، والتراجع السياسي، والتقهقر الاجتماعي، إذ سرعان ما ركنوا إلى الفهم السقيم للقضاء والقدر، مما ساعد على انتشار منطق التواكل والرضا بالواقع، وظهور التصوف الطرقي.

إن الزاوية، في نظري، ستكون بمثابة بلسم لذلك الانهيار النفسي العام الذي أصاب المغاربة عقب هزيمة العقاب النكراء. إن المغربي الذي لم يعد قادرا على قهر النصارى، والذي لم يستطع إيقاف عجلة التدهور الاجتماعي والثقافي، شعر بأنه ذاته مهددة، فالتجأ إلى الزاوية.

لقد كان أثر الصدمة النفسية أقوى من ميزان العقل وقوته، حيث تنكب المغربي طريق النقد الذاتي الصحيح، وارتمى في أحضان التصوف الطرقي. وليس غريبا أن يقع "الزواج الرسمي" بين الفقه والتصوف في العهد المريني، والذي أعلنت عنه أو نطقت بشهادته منظومة ابن عاشر:

في عقد الأشعري وفقه مالك *** وفي طريقة الجنيد السالك

بعد هذا التمهيد، أنتقل للحديث عن ملامح التصوف الطرقي في عصر الدولة العلوية، من خلال زاويتين وهما: الزاوية الناصرية، والزاوية الوزانية.

1.5- الزاوية الناصرية

تأسست الزاوية الناصرية في تمكروت بوادي درعة، على يد الشيخ العالم محمد بن ناصر الدرعي، وذلك في منتصف القرن الحادي عشر الهجري، وحوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي. وقد ذكرت الكتب التي أرخت لفقهاء وشيوخ هذه المرحلة، أن محمد بن ناصر برز في العلم والتصوف وجمع بينهما. فقد جاء في كتاب "طلعة المشتري": "لولا ثلاثة لانقطع العلم من المغرب في القرن الحادي عشر، لكثرة الفتن التي ظهرت فيه، وهم: سيدي محمد بن ناصر في درعة، وسيدي محمد بن أبي بكر في الدلاء، وسيدي عبد القادر الفاسي بفاس"[42].

كان هذا الشيخ المؤسس، حسب ما تذكره كثير من المصادر، مشاركا في فنون من العلم، كالفقه، واللغة، والكلام، والتفسير، والتصوف. وقد نذر حياته للتدريس والتربية الصوفية، والسعي في مصالح الناس، وقضاء حوائجهم. كما أشرف الشيخ محمد بن ناصر على تعليم أبنائه وحثهم على طلب العلم. واستمر التعليم والتدريس بزاوية تمكروت أكثر من مئة سنة، كما برز فيها وأَمَّها علماء وفقهاء كثيرون. ولعل أشهرهم أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي، صاحب "المحاضرات" و"الرسائل"، وغيرهما من المصنفات.

وظلت الزاوية الناصرية عقودا طويلة يقصدها الطلبة والمريدون، حيث تقوم بتعليمهم، وتربيتهم، وإطعامهم، وإطعام كل الوافدين عليها. كما قدمت خدمات اجتماعية للناس؛ كالإغاثة، والوساطة، والتحكيم بين الجماعات، والقبائل المتناحرة، وكذا بين الأفراد المتخاصمين.

---

42 - أحمد بن خالد الناصري: "طلعة المشتري في النسب الجعفري"، المؤسسة الناصرية للثقافة والعلم، الرباط، 1986، ج 2، ص 133.

ثم إن نفوذ الناصريين تجاوز منطقة درعة مبكرا، حيث بلغ منطقة سوس وجبال الأطلس، بل انتقلت الطريقة الناصرية إلى شمال المغرب، ودخلت تطوان على يد الشيخ علي بركة التطواني. كما انخرط بعض أهل شفشاون في سلكها، وتجاوزت بلاد المغرب حيث انتسب إليها تلاميذ ومريدون من مختلف بلدان الشمال الإفريقي كالجزائر، وتونس، وطرابلس، ومصر، بل وصل صداها إلى السودان واليمن والهند.

وفيما يخص العلاقة مع السلطة، فإن الشيخ محمد بن ناصر كان يحترم السلطان العلوي ويوقره، كما كان يتحاشى ملاقاته، بل يذكر صاحب "الدرر المرصعة"[43]، أن الشيخ المذكور لم يكن يدعو للسلطان المولى الرشيد، وللمولى إسماعيل، في خطبة الجمعة، وكذلك فعل الشيخ محمد الكبير بن ناصر ثم الشيخ أحمد الخليفة. وهذا لا يعني أن العلاقات لم تتوتر بين الطرفين، وأن السلطان لم يصدر منه وعيدا أو تهديدا.

بيد أن هذا الموقف من قبل شيوخ زاوية تمكروت لم يدم طويلا، إذ أن الزاوية "شهدت أزمة بعد وفاة الشيخ أحمد خليفة سنة 1129هـ/1717م، ذلك أن الشيخ المتوفى أوصى بالمشيخة لابن أخيه موسى بن محمد الكبير، في حين ادعى تلميذه الحسين الشرحبيلي أنه هو الموصى له. ولم ينحسم الأمر إلا باللجوء إلى والي المخزن على درعة، المولى الشريف بن إسماعيل الذي عقد مجلسا للتحكيم بينهما، دعا إليه قاضي درعة واستقدم الشرحبيلي وأرغمه على التنازل"[44].

وكانت هذه النازلة بداية عهد جديد بين شيوخ الصوفية وسلاطين الدولة العلوية؛ حيث بدأ الشيوخ يدعون لهم في خطب الجمعة ويحضرون مراسيم تجديد البيعة.

---

[43] - محمد المكي الناصري: "الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة"، تحقيق محمد الحبيب الوحي، الرباط، 1988، ص 165.

[44] - أحمد عمّالك: "جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية"، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دار أبي رقراق، الرباط، 1427هـ/2006م، ج 3، ص 489.

ولما احتدم الصراع حول المشيخة بين أقارب الشيخ علي بن يوسف، تدخل السلطان محمد بن عبد الله، وأصدر ظهيرا ينص على مشيخته وتوليته أمر الزاوية. وهكذا صارت الظهائر السلطانية تتوالى منذئذ، على شيوخ الزاوية الناصرية، وهو أمر نتج عن تدخل المخزن بطريقة مباشرة في شؤون الزاوية.

وفي عهد المولى عبد الرحمان، يزداد التقارب بين الجانبين كما يتبين من رسالة السلطان حين يقول: "وبعد، فقد وصل ما وجهتم من بركة زاويتكم السعيدة التي هي زاويتنا في الحقيقة". يتضح من هذه العبارة أن الزاوية الناصرية صارت زاوية السلطان. فقد تمت الإشارة إلى أن السلطان المذكور درس مدة بتمكروت، وأن أسلافه قد تلقنوا الورد عن شيوخ الناصريين؛ مثل المولى إسماعيل، ومحمد بن عبد الله، والمولى سليمان"[45].

واستمرت علاقة الاحترام والود قائمة بين شيوخ الزوايا والسلاطين العلويين خلال حكم المولى الحسن، والمولى عبد العزيز، والمولى يوسف. إلا أن الصراع حول المشيخة لم يهدأ نهائيا، حيث كان يتجدد كلما توفرت الظروف أو سنحت الفرصة لذلك، فيهب السلطان ويشد أرز الشيخ القائم ويجدد له ظهير التعيين. إن هذا الصراع يعكس بطبيعة الحال طمع المتنازعين في الاستحواذ على أملاك الزاوية وأحباسها، وهو ما أثبتته المراجع التي أرخت لحياة الزاوية الناصرية. وإن المرء ليعجب كيف أن كل الزوايا يلحقها الوهن، ويصيبها الانحراف عن المبادئ الدينية والتربوية الأولى، التي بنيت عليها وانطلقت منها. فلا مجال للمقارنة بين الشيخ العالم المؤسس محمد بن ناصر، وبين شيخ من شيوخ مرحلة الانحطاط والتهافت على حطام الدنيا. وبما أن المقام لا يتسع للحديث عن أوراد الطريقة الناصرية وتوجهها الصوفي والتربوي وما طرأ عليها من بدع وضلالات شأنها في ذلك شأن كل الزوايا والطرق الصوفية، فإني

[45] - أحمد عمّالك: "جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية"، ج 3، ص 509.

سأتناول بإيجاز أبرز شخصية من شخصيات عصرها الذهبي؛ وهي شخصية أبي علي الحسن اليوسي.

ولد أبو علي الحسن اليوسي حوالي سنة 1040هـ، بمنطقة ملوية العليا من بلاد فازاز. ونشأ محبا للعلم والدين والتصوف. وقبل أن يلتحق بالزاوية الناصرية في سن الأربعين، أمضى هذا العالم زهاء عشرين سنة في أحضان الزاوية الدلائية؛ حيث تتلمذ على كثير من علمائها. ثم تصدر للتدريس فيها، وأخذ عنه عدد وافر من طلبة العلم، ولم يغادرها إلا بعد أن قضى عليها وخربها السلطان مولاي الرشيد.

ولقد امتاز هذا العالم بقوة العارضة، وشدة التحصيل، وجدة الأسلوب. وإنك لتجد في كتاب "المحاضرات" وغيره من المؤلفات، طريقة جديدة في الكتابة تذكرك بطريقة أكابر الكتاب والعلماء القدامى؛ حيث قوة المعاني مع جزالة الألفاظ وسلاسة الأسلوب.

"ولقد وفد شيخنا اليوسي على الشيخ محمد بناصر في سنة 1060هـ/1650م، فدرس عليه "التسهيل"، وحضر مجالسه في "المختصر"، و"التفسير"، و"المدخل" و"الإحياء"، و"البخاري"، و"طبقات الشعراني"... وهكذا وجد اليوسي ضالته في الشيخ محمد بناصر، فنهل من معينه، وأضحى صاحب تفويض عام في تلقين الورد الناصري ونشر الطريقة الناصرية"[46].

وتصوف الحسن اليوسي كان أقرب إلى الزهد والاستقامة والبساطة، وكان يكره التصوف الفلسفي والإشراقي والحلولي، كما كان تصوفه موصولا بالقلب والروح ومطبوعا بالصدق والعمق، بعيدا عن إشارات القوم ورسومهم وتقاليدهم. ولقد ألف رسائل صغيرة مركزة وهادفة في التربية الصوفية، يجيب فيها عن أسئلة بعض المريدين والسالكين، موضحا لهم طريق التصوف السليم، ومنهج تربية النفس

---

[46] - أحمد عمّالك: "جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية"، ج 2، ص 38.

وتزكيتها، عن طريق المجاهدة، والمراقبة، والرياضة الروحية. كما حارب بلسانه وقلمه كثيرا من الفرق الصوفية المبتدعة التي كانت تدعي الخوارق والكرامات الباطلة، والتي استفحل أمرها في زمانه، وعلى رأس هذه الفرق؛ طائفة العكاكزة التي استحلت المحارم، واقتحمت المناكر حتى أفتى العلماء بكفرها وردتها.

ومما لاريب فيه أن حال الزاوية الناصرية في العقود المتأخرة أسوأ من أن يوصف، شأنه في ذلك شأن كل الزوايا والطرق الصوفية عندما تلج مرحلة الانحطاط والأفول.

2.5- الزاوية الوزانية

تعتبر الزاوية الوزانية المؤسسة الصوفية الممثلة للطريقة الوزانية. وهي طريقة صوفية أسسها أبو محمد عبد الله الشريف، خلال منتصف القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي. وقد وافق ظهورها في وزان، ظهور الطريقة الناصرية في درعة والطريقة الفاسية في فاس.

ولد هذا الشيخ المؤسس في مدشر تازروت الكائن في قبيلة بني عروس ببلاد غمارة، وذلك سنة 1005هـ/1597م. وعندما عزم على تحصيل العلوم قصد مدينة فاس، حيث تتلمذ لفقهائها وعلمائها، فنال بغيته من تلك العلوم. وبما أن الطابع الصوفي كان سائدا في هذه المدينة، فإن طالبنا الشريف انجذب إلى عالم التصوف ومال إلى علوم القوم.

ولما رجع إلى أهله وقبيلته، بدأ رحلته الصوفية؛ حيث انتهى به المطاف إلى زاوية الشيخ أبي الحسن علي بن أحمد الكرفطي الصرصري، بمدشر المغاسل من جبل صرصر ببلاد الهبط، شمال غرب وزان. ومكث بتلك الزاوية ردحا من الزمن. ثم انتقل بعد ذلك إلى جبل العلم، حيث اعتكف على العبادة والذكر، حتى أتاه الفتح ومعه الأمر بالتصدر للتلقين من النبي صلى الله عليه وسلم، أو هكذا أخبر مولاي عبد

الله الشريف عن نفسه[47]. ثم خرج إلى الناس وصار عليهم فقيها وإماما، واتجه إلى وزان حيث بنى زاويته.

وكان هدف الشيخ المؤسس كغيره من الشيوخ، تأسيس طريقة تربوية تدل الناس على خالقهم، وتحقق لهم السعادة والطمأنينة والأمن، وذلك من خلال منهج تعبدي قائم على المجاهدة والتقوى، والتحلي بالزهد والمداومة على قراءة ورد الطريقة الوزانية، الذي كان يضم حزب الشيخ المؤسس وحزب الفلاح للجزولي، ووظيفة الشيخ زروق وحزب البحر للشاذلي، مع الإكثار من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم. كما رخص عبد الله الشريف لأتباعه السماع والرقص والتواجد.

وفيما يخص العلاقة بين الزاوية الوزانية والسلطة العلوية، فإنها كانت علاقة سلم و ود وتعاون، ولم يكن لشيوخ الزاوية تطلع إلى الملك أو الحكم، الشيء الذي جعل السلاطين العلويين لا يفكرون في القضاء عليها كما فعلوا بالزاويتين الدلائية والشرقية. وقد حرص شيوخ الزاوية على توظيف النفوذ الروحي لتعزيز سلطة الدولة في القبائل، بدعوة الناس إلى طاعة السلطان، وإلى الإسهام في تثبيت قواعد الدولة وتقويتها، ودفع العدوان الأجنبي عنها، وهو ما قام به الشيخ سيدي محمد الشريف لما شارك، صحبة مجموعة من أتباعه، في محاصرة مدينة سبتة، عندما حاول السلطان مولاي إسماعيل فتحها سنة 1106هـ/1695م.[48]

إن سلاطين الدولة العلوية وجدوا في الزاوية الوزانية سندا مهما لحكمهم وسياستهم، كما أن شيوخ الزاوية أحرزوا على امتيازات مادية ومعنوية كثيرة،

---

[47] - عبد الحفيظ الفاسي: "الترجمان المعرب عن أشهر فروع الشاذلية بالمغرب"، مكتبة الخزانة العامة، رقم 4400، د.ت، ص71ب 72أ.

[48] - حمدون الطاهري الجوطي: "تحفة الإخوان ببعض مناقب شرفاء وزان"، دراسة وتحقيق محمد العمراني، أطروحة جامعية لنيل الدكتوراه في التاريخ، طبعة مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2004، ص 360.

ساعدتهم على نشر طريقتهم، وبسط نفوذهم الروحي، وتنمية مداخيلهم وممتلكاتهم. لكن هذه العلاقة الودية والسلمية بين الطرفين، كانت تتخللها فترات موسومة بالتوتر، بيد أنها كانت استثنائية. ولعل أقوى فترات التوتر بين الجانبين، تلك التي تجسدت فيها نازلة دخول الشريف الحاج عبد السلام الوزاني تحت الحماية الفرنسية، والتي كانت وصمة عار في جبين الزاوية الوزانية، وذلك سنة 1884م.

وقبل هذه النازلة بما يقرب من عشرين سنة، كان الشريف الوزاني قد نسج علاقات صداقة مع السفير البريطاني في طنجة؛ جون دارموند هاي، والتي كان من ثمرتها زواج الشريف من فتاة إنجليزية إسمها إيميلي كاين سنة 1873م،[49] ثم زيارته لبريطانيا سنة 1877م.[50]

وجاء في جريدة "المغرب الأقصى" في عددها الصادر بطنجة في تاريخ 27 يناير1884 ما يلي:"(...) إن الحماية التي منحت للوزاني قد خلقت دولة فرنسية قوية داخل الدولة المغربية، وإن فرنسا خطت بذلك خطوة حاسمة على درب فرض حمايتها على الإمبراطورية الشريفة(...)".

وفي 21 يناير 1884 التقى دارموند هاي بالنائب السلطاني بطنجة محمد بركاش، ليطلعه على مضمون الحديث الذي كان قد أجراه مع الشريف الوزاني، وإذا به يعترف له سرا بأن أورديكا الوزير المفوض لفرنسا في طنجة، قد وجه له رسالة أخبره فيها بوصول تعليمات من باريس تأمره بإخبار السلطان مولاي الحسن بأن الشريف الوزاني قد أصبح تحت الحماية الفرنسية مجازاة له على الخدمات التي قدمها لفرنسا في قضايا الحدود بين الجزائر والمغرب، وبأن الفصل السادس عشر من

---

[49] - خالد بن الصغير: "الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية؛ نموذجي الزاوية الوزانية والمصلوحية"، عدد 80-81، مطبعة دار المناهل، وزارة الثقافة، الرباط، فبراير 2007، ص 210-211.

[50] - المرجع نفسه، ص 210-211.

اتفاقية مدريد لسنة 1880 يمنح لفرنسا الحق الكامل في بسط حمايتها على الشريف الوزاني أو على غيره من المغاربة الذين قد يؤدون خدمات مهمة لفائدة فرنسا.[51]

إن إقدام الشريف الوزاني على هذا السلوك المشين، يدل على أن الزاوية الوزانية الممثلة في شخص شيخها وكبيرها الحاج عبد السلام، قد بلغت درجة كبيرة من الانحطاط والتقهقر والانحراف عن مبادئ الطريقة الوزانية. وإن المرء ليستغرب كيف تتمكن الأهواء من نفوس بعض المسلمين وتجعلهم يزيغون عن بعض المقومات والأسس الدينية والأخلاقية. إن هذا الشريف الوزاني الذي دخل بمحض إرادته تحت حماية فرنسا، يكون قد خان بلاده وقومه، ورضي بحكم الكافر وبولايته عليه، وانسلخ من بيعة سلطانه المسلم، ومال وركن إلى أعداء الله، وفارق بذلك جماعة المسلمين، فأين الولاء والبراء وأين طاعة أولي الأمر؟ لكنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور. وما أكثر شيوخ الطرق الصوفية المنحرفين قديما وحديثا الذين باعوا دينهم بدنياهم وعبدوا أهواءهم مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَفَرأيتَ من اتَّخَذَ إلهَهُ هواهُ﴾52. ولا يتسع المقام أيضا لذكر البدع والضلالات وأنواع الفساد التي انتشرت في هذه الزاوية وربوعها وفروعها.

3.5- موقف السلطان المولى سليمان من الزوايا والطرقية

لقد دأب السلاطين العلويون، منذ اعتلائهم عرش السلطة، على الاهتمام بالزوايا، وإصلاح أوضاعها ومعتقداتها. وفي هذا الصدد كانت مقاومة السلطان المولى الرشيد للزاوية الدلائية بالأطلس المتوسط، عندما انحرفت عن أهدافها الإنسانية، والدينية، والتربوية، وانغمست في السياسة. كما كانت محاربة السلطان المولى إسماعيل لأرباب

---

[51] - خالد بن الصغير: "الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية: نموذجي الزاوية الوزانية والمصلوحية"، ص 214-215.

[52] - سورة الجاثية، الآية 23.

الزوايا والشيوخ الطرقيين في السياق نفسه. وسيرا على طريق سلفه، أعلن السلطان المولى سليمان حربا شعواء على ضلالات وبدع الصوفية الطرقيين.

يقول صاحب "الاستقصا": "وظل بالمرصاد لأرباب الزوايا والطرق الصوفية المغرضة، فكلما لاحظ تعاظم أمر إحداها، وبطرها واستغناءها، ترصد نشاطها وتربص بها الدوائر، وبمجرد خروجها عن الجادة وزيغها، إلا وبادر لهدمها وإبعاد أشياخها وعلمائها، دون امتحانهم أو التنكيل بهم"[53].

شهد عهد السلطان المولى سليمان نهضة علمية شاملة للعلوم والآداب والثقافة والفكر، كما عمل على نشر العلم في المدن والبوادي، واهتم بالطلبة اهتماما كبيرا، وأصلح مدارسهم العتيقة، وعالج البرامج والمناهج والكتب الدراسية، وأحيا الاحتفال بسلطان الطلبة، واهتم بتعليم المرأة، كما أولى عناية كبيرة للتعاون والتبادل الثقافي مع العالم العربي والإسلامي.

إن السلطان المولى سليمان "لم تشغله تبعات الملك والسياسة، من العناية بالعلم، والإخلاص له، والأخذ بنصيبه منه،(...) ويحضر مجاله، ويشجع المشتغلين به، ويدفعهم إلى التأليف، ويرسم لهم مناهجه، ويسهم هو نفسه بنصيب وافر في ذلك، فيؤلف الكتب، ويحبر الرسائل والمقالات، ويكتب بنفسه الخطب النموذجية الوعظية. يقاوم بها البدع والضلالات، ويدعو إلى السنة، ويناصر السلفية، كما ناصرها من قبل والده سيدي محمد بن عبد الله.

بل إننا لنعلم، أنه إنما ألف كتابه: "عناية أولي المجد، بذكر آل الفاسي بن الجد" تحية وإكراما لذكرى أستاذه العالم السيد محمد بن عبد السلام الفاسي. وقد عهدنا العلماء يؤرخون للملوك والعائلات الملكية، ولكننا لم نعهد الملوك يؤرخون لبعض

---

[53] - أحمد بن خالد الناصري: "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"، ج 8، ص 105.

رعاياهم من الأفراد أو العائلات، فلعل هذا الكتاب أن يكون فريدا من نوعه في تاريخ الكتب والمؤلفات!

فمن ذلك كتاب له في الفقه والشريعة، وضعه شرحا لكتاب الخرشي الذي يشرح فيه مختصر الشيخ خليل.ويقع الكتاب في أربعمائة صفحة، وهو مخطوط بالخزانة الملكية تحت رقم 1323.

كما حرر كتابا صغيرا عنوانه "إمتاع الأسماع بتحرير ما التبس من حكم السماع"."[54]

نص خطبة السلطان مولاي سليمان في نقد ومحاربة البدع والضلالات الصوفية الطرقية.

"الحمد لله الذي تعبدنا بالسمع والطاعة، وأمرنا بالمحافظة على السنة والجماعة، وحفظ ملة نبيه الكريم، وصفيه الرؤوف الرحيم، من الإضاعة إلى قيام الساعة، وجعل التأسي به أنفع الوسائل النافعة.

أحمده حمدًا ينتج اعتماد العبد على ربه وانقطاعه، وأشكره شكرًا يقصر عنه لسان البراعة، وأستمد معونته بلسان المذلة والضراعة، وأصلي على محمد رسوله المخصوص بمقام الشفاعة، على العموم والإشاعة، والرضا عن آله وصحبه الذين اقتدوا بهديه بحسب الاستطاعة.

أما بعد: أيها الناس، شرح الله لقبول النصيحة صدوركم، وأصلح بعنايته أموركم، واستعمل فيما يرضيه آمركم ومأموركم؛ فإن الله قد استرعانا جماعتكم، وأوجب لنا طاعتكم، وحذرنا إضاعتكم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي

---

[54] - المولى سليمان بن محمد بن عبد الله"دعوة الحق"، المحرر، عدد 96.

الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[55]، سيما فيما أمر الله به ورسوله، أو هو محرم بالكتاب والسنة النبوية، وإجماع الأمة المحمدية.

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ﴾[56].

ولهذا نرثي لغفلتكم! أو عدم إحساسكم! ونغار من استيلاء الشيطان بالبدع على أنواعكم وأجناسكم.

فألقوا لأمر الله آذانكم، وأيقظوا من نوم الغفلة أجفانكم، وطهروا من دنس البدع إيمانكم، وأخلصوا لله إسراركم وإعلانكم، واعلموا أن الله بفضله أوضح لكم طرق السنة لتسلكوها، وصرح بذم اللهو والشهوات لتملكوها، وكلفكم لينظر عملكم، فاسمعوا قوله في ذلك وأطيعوه، واعرفوا فضله عليكم وَعُوه، واتركوا عنكم بدع المواسم التي أنتم بها متلبسون، والبدع التي يزينها أهل الأهواء ويلبسون، وافترَقوا أوزاعًا، وانتزعوا الأديان والأموال انتزاعًا، فيما هو حرام كتابًا وسنةً وإجماعًا، وتسموا فُقَرَا، وأحدثوا في دين الله ما استوجبوا به سقرًا.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[57].

وكل ذلك بدعة شنيعة، وفعلة فظيعة، وسبة وضيعة، وسنة مخالفة لأحكام الشريعة، وتلبيس وضلال، وتدليس شيطاني وخبال زينه الشيطان لأوليائه، فوقتوا له أوقاتًا، وأنفقوا في سبيل الطاغوت في ذلك دراهم وأقواتًا، وتصدى له أهل البدع من "عيساوة"، و"جيلالة"، وغيرهم من ذوي البدع والضلالة، والحماقة والجهالة،

---

[55] - سورة النساء، الآية 59.

[56] - سورة الحج، الآية 41.

[57] - سورة الكهف، الآيتين 103-104.

وصاروا يترقبون للهوهم الساعات، وتتزاحم على حبال الشيطان وعصيه منهم الجماعات، وكل ذلك حرام ممنوع، والإنفاق فيه إنفاق في غير مشروع.

فأنشدكم الله عباد الله: هل فعل رسول الله ﷺ لعمه سيد الشهداء موسمًا؟

وهل فعل سيد الأمة أبو بكر لسيد الإرسال ﷺ وعلى جميع الصحابة والآل موسمًا؟

وهل تصدى لذلك أحد من التابعين رضي الله عنهم أجمعين؟

ثُم أنشدكم الله: هل زُخرفت على عهد رسول الله ﷺ المساجد؟

أو زُوقت أضرحة الصحابة والتابعين الأماجد؟

كأني بكم تقولون في نحو هذه المواسم المذكورة وفي زخرفة أضرحة الصالحين، وغير ذلك من أنواع الابتداع: حسبنا الاقتداء والاتباع ﴿إِنَّا وجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُقْتَدُونَ﴾[58].

وهذه المقالة قالها الجاحدون! ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾[59]، وقد رد الله مقالتهم، ووبخهم وما أقالهم؛ فالعاقل من اقتدى بآبائه المهتدين، وأهل الصلاح والدين، «خَيْرُ القُرُونِ قَرْنِي..» الحديث.

وبالضرورة أنه لن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما كان عليه أولها؛ فقد قُبض رسول الله ﷺ وعَقد الدين قد سُجِّل، ووعْدُ الله بإكماله قد عُجِّل، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[60].

---

[58] - سورة الزخرف، الآية 22.

[59] - سورة المؤمنون، الآية 36.

[60] - سورة المائدة، الآية 3.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه على منبر رسول الله ﷺ بحضرة الصحابة رضي الله عنهم: «أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ سُنَّتْ لَكُمْ السُّنَنُ، وَفُرِضَتْ الْفَرَائِضُ، وَتُرِكْتُمْ عَلَى الجَادَّةِ؛ فَلاَ تَمِيلُوا بِالنَّاسِ يَمِينًا وَشِمَالًا».

فليس في دين الله ولا فيما شرع نبي الله: أن يتقرب بغناء ولا شطح، والذكر الذي أمر الله به وحث عليه ومدح الذاكرين به، هو على الوجه الذي كان يفعله ﷺ، ولم يكن على طريق الجمع ورفع الأصوات على لسان واحد؛ فهذه طريقة الخلف، فمن قال بغير طريقتهم فلا يُستمع، ومن سلك غير سبيلهم فلا يُتبع: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[61]، ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّه عَلَى بَصِيرَة أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّه وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[62].

فما لكم يا عباد الله ولهذه البدع؟!

أَأَمْنًا من مكر الله؟!

أم تلبيسًا على عباد الله!؟

أم منابذةً لمن النواصي بيده؟!

أم غرورًا لمن الرجوع بعدُ إليه؟!

فتوبوا واعتبروا، وغيِّروا المناكر واستغفروا؛ فقد أخذ الله بذنب المترفين مَن دونهم، وعاقب الجمهور لما أغضوا عن المنكر عيونهم، وساءت بالغفلة عن الله عقبى الجميع، ما بين العاصي والمداهن المطيع.

أَفَيُزين لكم الشيطان وكتاب الله بأيديكم؟!

[61] - سورة النساء، الآية 115.

[62] - سورة يوسف، الآية 108.

أم كيف يضلكم وسنة نبيكم تناديكم؟!

فتوبوا إلى رب الأرباب، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب، ثم لا تنصرون، ومن أراد منكم التقرب بصدقة، أو وُفق لمعروف أو إطعام أو نفقة، فعلى مَن ذَكر الله في كتابه، ووعدكم فيهم بجزيل ثوابه، كَذوِي الضرورة الغير الخافية، والمرضى الذين لستم بأَولى منهم بالعافية؛ ففي مثل هذا تُسَد الذرائع، وفيه تُمتَثل أوامر الشرائع:﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللّهِ﴾[63].

ولا يُتقرب على مالك النواصي، بالبدع والمعاصي، بل بما يَتقرب به الأولياء والصالحون، والأتقياء المفلحون: أكل الحلال وقيام الليالي، ومجاهد النفس في حفظ الأحوال، بالأقوال والأفعال، «الْبَطْنُ وَمَا حَوَى، وَالرَّأْسُ وَمَا وَعَى». وآيات تتلى، وسلوك الطريقة المثلى، وحج وجهاد، ورعاية السنة في المواسم والأعياد، ونصيحة تهتدى، وأمانة تؤدى، وخلق على خُلُقِ القرآن يحدى، وصلاة وصيام، واجتناب مواقع الأثام، وبيع النفس والمال من الله.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾[64]لآية.

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾[65].

الصراط المستقيم: كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وليس الصراط المستقيم كثرة الرايات، والاجتماع للبيات، وحضور النساء والأحداث، وتغيير الأحكام الشرعية بالبدع والإحداث، والتصفيق والرقص، وغير ذلك من أوصاف الرذائل والنقص.

---

[63] - سورة التوبة، الآية 60.

[64] - سورة التوبة، الآية 111.

[65] - سورة الأنعام، الآية 153.

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾[66].

عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يجاء بالرجل يوم القيامة وبين يديه راية يحملها، وأناس يتبعونها، فيسأل عنهم ويسألون عنه».

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ* وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا﴾[67].

فيجب على من ولاه الله من أمر المسلمين شيئًا من السلطان والخلائق: أن يمنعوا هؤلاء الطوائف، من الحضور في المساجد وغيرها، ولا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضر معهم أو يعينهم على باطلهم؛ فإياكم ثم إياكم والبدع؛ فإنها تترك مراسم الدين خالية خاوية، والسكوت عن المناكر يحيل رياض الشرائع ذابلة ذاوية.

فمن المنقول عن الملل، والمشهور في الأواخر والأول: أن المناكر والبدع إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم، وأظلم ما بينهم وبين ربهم، وانقطعت عنهم الرحمات، ووقعت فيهم المثُلات، وشحت السماء وحلت النقماء، وغيض الماء، واستولت الأعداء، وانتشر الداء، وجفت الضروع، ونقعت بركة الزروع؛ لأن سوء الأدب مع الله يفتح أبواب الشدائد، ويسد طرق الفوائد.

والأدب مع الله ثلاثة:

– حفظ الحرمة بالاستسلام والاتباع.

– ورعاية السنة من غير إخلال ولا ابتداع.

– ومراعاتها في الضيق والاتساع.

[66] - سورة فاطر، الآية 8.

[67] - سورة البقرة، الآيتين 166-167.

لا ما يفعله هؤلاء الفقراء، فكل ذلك كذب على الله وافتراء، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[68].

عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رضي الله عنه قال: «وَعَظَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مَوْعِظَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا العُيونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدّعٍ، فَمَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا- أَوْ قَالَ: أَوْصِنَا-؛ فَقَالَ: أُصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، لِمَنْ وَلَّى اللهُ عَلَيْكُمْ، وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيّاً؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ»

وها نحن عباد الله أرشدناكم وأنذرناكم وحذرناكم، فمن ذهب بعد لهذه المواسم، أو أحدث بدعة في شريعة نبيه أبي القاسم، فقد سعى في هلاك نفسه، وجر الوبال عليه وعلى أبناء جنسه، وتله الشيطان للجبين، وخسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[69].

---

[68] - سورة آل عمران، الآية 31.

[69] - سورة النور، الآية 63.

6- خلاصة

بعد موقعة العقاب في الأندلس حيث هزمت جيوش المسلمين المغاربة والأندلسيين هزيمة قاسية ومؤلمة، بدأ العد العكسي فيما يخص هيبة وقوة دولة الموحدين الكبيرة، فطفقت القلاع والحصون والقرى تتهاوى وتسقط في يد النصارى؛ أي دقت ساعة الشروع في استرجاع الأندلس. وخلال العقود الأخيرة من عصر الدولة الموحدية، بدأ تنامي وانتشار التيار الصوفي نتيجة لهذا المصاب الجلل ولعوامل أخرى منها ضعف القوة السياسية وتراجعها.

كان ظهور الزوايا ضروريا لتضميد جراحات الهزيمة، والتخفيف من وطأة آلامها، والحرص على وحدة البلاد ووشائج الترابط بين الناس. لقد جاءت هذه الزوايا، يؤمها ويتولى أمورها وشؤونها شيوخ وعلماء ربانيون، ينشرون العلم، ويربون النفوس، ويرسخون عقيدة الإسلام في قلوب المسلمين، ويشحنون صدورهم بالأمن والاطمئنان. إن هذه الزوايا عملت على امتصاص اليأس الذي أحاط بالمسلمين، والربط بينهم بالوحدة الدينية، وتشجيعهم على مواجهة المسيحيين الذين يتربصون بهم الدوائر.

إن التاريخ المغربي يؤكد أن الزوايا قد تفاعلت بإيجابية مع وسطها الاجتماعي، مهتمة بقضايا القبائل السياسية والاقتصادية، وتسهيل التعايش السلمي بينها؛ حيث عملت على تأمين القوافل، وإصلاح ذات البين، وتقديم المساعدات للمحتاجين؛ لا سيما عند وقوع الكوارث والجوائح، كالسيول والجفاف أو الحروب.

كما قامت الزاوية بمهمة الربط والتوسط في مختلف المجالات بين المدن والقرى، وتفعيل التلاحم بين الدولة والمجتمع، حيث كان للقبائل مثلا، حضور رسمي في مختلف مجالات نشاط البلاد، فشيخ الزاوية هو الصوت الإعلامي للدولة في ناحيته، وهو الوسيط بين الرعية والمخزن.

يقول الدكتور عبد المجيد الصغير:

"من هنا اكتسبت التجربة الصوفية بالمغرب أهميتها كجزء من التركيبة الاجتماعية، ثم "كمؤسسة" في شكل زاوية أو طريقة يُلجأ إليها تفاديا لكل اختلاف قَبَلي، وحسما لكل صراع فئوي يخص تدبير شأن من شؤون الجماعة، خاصة في البادية المغربية... ولعل في هذه الأرضية الاجتماعية للتصوف المغربي ما يفسر تلك العلاقة الجدلية بين هزيمة الموحدين في معركة العقاب، وازدياد نشاط الرباطات والزوايا التي سيصبح من مهامها أيضا حراسة الثغور، ودفع الخطر الخارجي الذي بدا وكأن الدولة الموحدية في دور ضعفها، لم تعد قادرة على مواجهته. فطغى من ثم على ذلك التصوف المغربي البعد العملي، واتجه أقطابه إلى تعميق قيمة الجهاد بين أتباعه، وإعلاء فضيلة الرباط على الثغور والسواحل... ولسنا بحاجة إلى التذكير بعد عصر الموحدين هذا، بالدور الأكبر الذي سيضطلع به صوفية المغرب عند قيام الدولة السعدية، ولا بالمساهمة الفعالة التي قاموا بها في توحيد المغاربة لمواجهة الزحف الإيبيري في معركة وادي المخازن"[70].

ثم إن التصوف في المغرب صار جنبا إلى جنب مع المذهب المالكي، بعيدا عن الغلو الفكري والتطرف في السلوك، مما جعل علال الفاسي يصحح مواقفه السلفية القديمة، ويؤكد معترفا أنه "مما امتاز به التصوف المغربي، أن معظم رجاله ودعاته من أهل العلم بأصول الدين وفروعه، ولذلك فهم يعرفون كيف يكيفون آراءهم. وقلما تجدهم مصطدمين مع العلماء كما وقع في المشرق العربي. وما وقع من اضطهاد بعض المتصوفة، إنما كان لأسباب سياسية محضة. والتصوف المغربي إلى جانب

[70] - عبد المجيد الصغير: "من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب"، ضمن الكتاب الجماعي: "الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب"، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، تنسيق: نفيسة الذهبي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997، ص 274.

الفقه المالكي له الأثر الفعال في توجيه كل الأفكار والسياسات التي جرت ببلادنا. فالفقه والتصوف عنصران أساسيان في تكييف المجتمع المغربي وتسييره"[71].

نعم هذا صحيح ما دام الوضع الاجتماعي والثقافي والسياسي في المغرب على تلك الشاكلة. أما إذا رجع المجتمع المغربي إلى عزته ومجده كمجد المرابطين والموحدين في بداية أمرهم مثلا؛ أي أن تحدث يقظة إسلامية قوية، ويعيد التاريخ نفسه على هدي الكتاب والسنة، فلن تكون حينئذ الحاجة إلى تصوف طرقي، ولا إلى زوايا، باستثناء ربط الجهاد، لأن ظهور التصوف مشرقا ومغربا، وتطوره من العبادة والزهد والسلوك إلى التفلسف، ثم إلى زوايا ذات أدوار اجتماعية وتربوية وجهادية وسياسية، والتي انتهت أخيرا إلى زوايا طرقية منحرفة فكريا واجتماعيا وعقديا. هذا الظهور الصوفي جاء كرد فعل تجاه مظاهر الانحراف الاجتماعي والظلم السياسي، ومظاهر البذخ والثراء لدى الطبقة الحاكمة ومن في حاشيتها، بالإضافة إلى انحياش وركون كثير من العلماء والفقهاء إلى الحكام.

إن الأدوار الإيجابية التي قام بها صوفية الزوايا، هو الإسهام في معالجة الأوضاع المتردية للعالم الإسلامي، عندما دخل مرحلة الانحطاط وشرع في التقهقر الحضاري قبل بضعة قرون. وهكذا نجد أن التصوف المغربي سواء على مستوى الفرد أو الزاوية، بدءا من العصر المريني إلى زمن الدولة العلوية، قد كانت له إسهامات جليلة في ميدان العلم والتربية، والعمل الاجتماعي والإحساني، وفي مجال الجهاد والدفاع عن الثغور.

والخلاصة أن وظيفة التصوف الفردي أو المؤسساتي (الزوايا) تصلح وتتجلى ضرورتها في أزمنة الانحطاط والتخلف، والتراجع الفكري والحضاري، والميل تدريجيا،

---

[71] - علال الفاسي: "التصوف الإسلامي بالمغرب"، مجلة الثقافة المغربية، الرباط، العدد الأول، 1970، ص 46.

عن تطبيق الكتاب والسنة، بينما لا تصلح للإقلاع الحضاري الإسلامي وإعادة بناء الأمة الإسلامية؛ أي أن التصوف كفكر وممارسة فردية ومؤسساتية، لا يملك مقومات بناء مجتمع مسلم على غرار مجتمع الصحابة أو التابعين، أو المجتمع العباسي في مراحله الأولى، أو المجتمع المغربي أيام عز المرابطين والموحدين، إلخ، إنما تنحصر وظيفته في تفعيل وإصلاح ما يمكن إصلاحه من جوانب تربوية واجتماعية، والحفاظ على الحد الأدنى من تماسك المجتمع الذي يكون قد ولج مرحلة الانحطاط والتقهقر.

الفصل الثاني

إشكاليتان صوفيتان

1- إشكالية العلم اللدني

1.1- في مفهوم العلم

2.1- محيي الدين بن عربي والعلم اللدني

3.1- محمد بن قيم الجوزية والعلم اللدني

2- إشكالية شيخ التربية وشيخ العلم والتعليم

1.2- مفهوم القدوة عند الصوفية

2.2- نقد مفهوم القدوة عند الصوفية

3.2- بين شيخ التربية وشيخ العلم والتعليم

1- إشكالية العلم اللدني

1.1- في مفهوم العلم

جاء في "لسان العرب": "العلم نقيض الجهل"، وفي "المعجم الوسيط": هو "إدراك الشيء بحقيقته". كما عرف بأنه: "نور يقذفه الله في قلب من يحب". والعلم أساس الدين والدنيا، وسر صلاحهما لا سيما إذا اقترن بالخشية. وكلما استضاءت الحياة بالعلم النافع، استزادت من النعيم، وكلما ابتعدت وانحرفت عنه، اقتربت من الجحيم. فالعلم والسعادة صنوان، كما أن الجهل والشقاوة أخوان. وما تنعم المتنعمون ولا تلذذ المتلذذون بأكثر من تنعمهم وتلذذهم بنعمة العلم. لأن كل لذة سوى لذته فانية. فلذة الأكل تنتهي عند الشبع، ولذة جمع المال منغصة بنوائب الدهر وفجائعه، بينما لذة العلم لا تفنى، وقلما يحول بين العالم وعلمه مانع، بل تجده يجد في التحصيل وهو يدافع المرض، أو يعاني الفقر، أو ملقى داخل أقبية السجون. ويكفيه فخرا أن ذكره لا ينقطع ولو بعد موته. وفي هذا المعنى يقول الشيخ تاج الدين السبكي: "واللذة حصرها الإمام الرازي والشيخ الإمام (يعني والده تقي الدين السبكي) في المعارف"[72]. والعلم هو الكنز الذي لا يفنى والذخيرة التي توقد البصيرة. وقال بعضهم: "أي شيء أدرك من فاته العلم؟ وأي شيء فاته من أدرك العلم؟".

ثم إن العلوم الصحيحة تتجاذب وتتلاقح، مما يؤدي إلى تطورها ورقيها خاصة إذا كانت نوايا العلماء خالصة نقية، تحوم حول محور الإنسانية وتهدف إلى تحقيق المثل العليا. أما إذا كان هناك علماء ومفكرون لا تربطهم بالإنسانية ولا بالمبادئ والمثل

[72] - ولي الدين العراقي: "الغيث الهامع شرح جمع الجوامع"، دار الكتب العلمية، بيروت ط 1، 2004، ص 814.

العليا أدنى رابطة، مثل صناع القنابل الجرثومية، والأسلحة النووية، أو البيولوجيون الذين يفسدون خلايا الإنسان والحيوان، تحت إسم البحث العلمي والتطور، فإن علومهم تكون وبالا عليهم وعلى الإنسانية أجمع، وهذا ما نلمسه اليوم في كثير من العلوم التي ظهرت أو تطورت في المجتمعات الرأسمالية المعاصرة، خاصة في أوربا وأمريكا.

كما أن شعور الغربيين بالكبر والغطرسة، ومعاناتهم عقدة التفوق والجنس الآري، جعل الهوة بين ثقافتهم وثقافات الشعوب الأخرى تزداد إتساعا وعمقا، مما صير الحوار الثقافي بين الشرق والغرب أمرا مستحيلا، خاصة بعد تصعيد وتيرة العولمة. وهذه القطيعة الثقافية والفكرية التي حصلت بين الغرب والشرق يتضرر بسببها الإنسان الغربي أكثر من الإنسان الشرقي، إذ لو كان الغرب متواضعا واعترف بما للشرق من حضارات وثقافات وعلوم، وسعى إلى الاستفادة منها والنهل من معينها، لما ابتلي بما ابتلي به من الحروب والأمراض النفسية، والانتحارات وألوان من المشاكل والأزمات الاجتماعية، والاقتصادية والنفسية، ولعل ما خفي وما يُتوقع أشد وأهول.

ومن ناحية أخرى، هناك اختلاف جوهري بين مفهوم العالم في الإسلام والعالم في الثقافة الغربية المعاصرة. فالعالم في التصور الإسلامي هو الذي تتوفر فيه بالإضافة إلى تخصصه، شروط ومميزات أساسية أهمها: العلم بمبادئ الدين، وخشية الله تعالى. قال سبحانه تعالى:﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. ومفهوم الآية أن من لا يخشى الله ليس عالما على وجه الكمال، ولو بلغ ما بلغ في مجال العلم والمعرفة.

"فلا يصح اعتبار الملحد المتخصص في الفيزياء عالما مهما بلغت شهرته بل هو مهني ماهر في مهنته، وليس إلا فيزيائيا قحا، وهو كالنجار الفنان الذي يعالج قطع الأخشاب ليشكل منها ما يثير إعجاب من لا يتقن حرفة النجارة، ومحترف الكيمياء أو الفيزياء يتقن صنعته لدرجة تبهر البسطاء أو غير المتخصصين(...)، وكذلك الذي

يحفظ النصوص الدينية ويوظفها في إخراج الفتاوى التي تخدم أغراض السلطان، والقانوني الذي يشارك في صياغة القوانين الظالمة(....) كل هؤلاء وأمثالهم، العلم الحقيقي منهم براء وهم في الحقيقة وباء"[73].

ويشهد لما قال هذا الكاتب قوله تعالى: ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾[74].

ثم إن هذا الانحراف والانتكاس في مفهوم العالم في الثقافة العربية المعاصرة، يرجع إلى انتشار واستفحال حركتي الاستغراب والتغريب في العالم الإسلامي. وبما أن الضعيف مولع بتقليد القوي على حد تعبير العلامة عبد الرحمن بن خلدون، فإن كثيرا من المصطلحات والمفاهيم التي تزخر بها ثقافتنا العربية والإسلامية، قد أصابها داء التحريف والتشويه. وهكذا أُفرغ مفهوم العالم عندنا من محتواه الروحي والإيماني والعقدي تأسيا بالغربيين. فلا عجب إذا سمعنا أن فلانا يمنح لقب العالم وهو يتشبه مثلا باليهود والنصارى ويميل إليهم، أو يخالف إجماع العلماء في مسائل وقضايا مشهورة أو معلومة من الدين بالضرورة، أو يؤول نصا قطعيا من نصوص الشرع تأويلا يناسب هواه، أو يجاهر ببعض الميولات العلمانية، أو ينتصر للضلالات والخرافات، إلى غير ذلك مما يتصف به كثير من "علمائنا" في هذا الوقت الذي أصبح فيه العالم الحق كالكبريت الأحمر.

ولقد كان للتيار العلماني أثر كبير في خلخلة مفهوم العلم وثوابته في العالم أجمع. إن القطيعة الروحية والمعرفية التي أحدثها مفكرو وفلاسفة النهضة الأوربية الحديثة بين الإنسان والسماء، بين عالم الشهادة وعالم الغيب، وبين الخلق وخالقه... إن هذه القطيعة الخطيرة التي انبثق منها مذهب العلمانية والإلحاد، وألوان من الفلسفات

[73] - هانئ عبد الرحمن مكروم: "العقل تنظيمه وإداراته"، القاهرة،1417هـ/1997م، ص343–344.

[74] - سورة الروم، الآية 7.

المادية واللادينية، قلصت مجال العلم وحصرته في مساحة ضيقة جدا هي مساحة عالم الشهادة المحسوس، وأنكرت وجود عالم الغيب الذي من عناصره الروح وحياة البرزخ والجنة والنار، وعالم الملائكة، وما يتعلق بيوم القيامة والحساب.

والعلم الوهبي يقابله العلم الكسبي، وهذا يذكرنا بإشكالية معرفية كانت موضوع جدل بين الفقهاء والمتصوفة خلال عصور طويلة. وكان هذا التقابل بين العلمين من وضع المتصوفة الذين وضعوا مفاهيم ومصطلحات أخرى متقابلة مثل: شريعة وحقيقة، وظاهر وباطن....، واحتقروا علوم القرآن والفقه والحديث، وسموا أصحابها علماء الأوراق، وخصوا أنفسهم بعلوم الأذواق.

ومن الكلمات المشهورة التي تروى عن بعضهم، قول قائل منهم: "نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت". وقول الآخر، وقد قيل له: ألا ترحل حتى تسمع من عبد الرزاق؟ فقال: ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الخلاق؟ وقول الآخر: "العلم حجاب بين القلب وبين الله عز وجل" ونحو ذلك من الأقوال المبثوثة في كتبهم.

إن كراهية كثير من المتصوفة للعلم الشرعي ومقتهم للطرق الحميدة والمشروعة المؤدية إلى تحصيله، مسألة مشهورة كنار على علم. ولقد سموا الشريعة علم الظاهر، وسموا الخواطر وهواجس النفوس علم الباطن. وأوضح مثال واقعي على رسوخ قدم كثير من المتصوفة في الجهل والضلالة: حال الطرق الصوفية الآن في العالم الإسلامي من مشرقه إلى مغربه، حيث تمارس في الزوايا ألوان من السلوكات والضلالات والشركيات، باسم العبادة والتقرب إلى الله. كما يستعبد الشيوخ المريدين البُله والسدج، ويلقون بهم في بحر الخيالات والخرافات والأوهام، إلى غير ذلك من المصائب والطامات التي لا يتسع المجال لذكرها.

2.1- محيي الدين بن عربي والعلم اللدني

لما أعرض كثير من المتصوفة عن العلم الشرعي، أو لم يتقيدوا بضوابطه وطرق تحصيله المعهودة، خالفوا وصية إمام الطريقة، أبي القاسم الجنيد رحمه الله، حيث يقول: "طريقنا مبنية على الكتاب والسنة...."، ووقعوا فيما أسموه: "العلم اللدني"، الذي حسب رأيهم يقذفه الله في قلوب من يشاء من عباده المتقين، الذين سلكوا درب التصوف، وأماتوا شهواتهم وأهواءهم بكثرة العبادة والرياضة النفسية، كما اجتهدوا في تخلية قلوبهم من الرذائل وتحليتها بالفضائل، كي تغدو محلا لورود الواردات، وتنزل العلوم والمعارف والنفحات. وقد لا أجانب الصواب إذا قلت بأن محيي الدين بن عربي كان أكثر المتصوفة اهتماما بهذا المجال، بل يعتبره أهل التصوف إماما في العلم اللدني. ومن جملة أقواله الدالة على ذلك قوله:

"وما قصدت في كل ما ألفته مقصد المؤلفين ولا التأليف، وإنما كان يرد علي من الحق تعالى موارد تكاد تحرقني، فكنت أتشاغل عنها بتقييد ما يمكن منها، فخرجت مخرج التأليف لا من حيث القصد، ومنها ما ألفته عن أمر أمرني به الحق في نوم أو مكاشفة"[75].

وقوله في كتابه "فصوص الحكم": "فإن حكم موسى كثيرة، وأنا إن شاء الله أسرد منها في هذا الباب على قدر ما يقع به الأمر الإلهي في خاطري فكان هذا أول ما شوفهت به"[76].

---

[75] - محيي الدين بن عربي: "التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية"، دار الكتب العلمية، بيروت، 1981، ص 17.

[76] - محيي الدين بن عربي: "فصوص الحكم"، تحقيق أبو العلا عفيفي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1980، ص 197.

ومن أشعاره في هذا المضمار، قوله:

"قلمـــــي ولوحي في الوجــود يمده قلـم الإلــــه ولوحه المحفـوظ

" ويـــدي يميـــن الله فــي ملكوتـه ما شئت أجري والرسوم حظوظ"[77]

ويقول في كتابه "فصوص الحكم" أيضا:

"وليس هذا العلم إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء. وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم. ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الولي الخاتم، حتى إن الرسل لا يرونه، متى رأوه، إلا من مشكاة خاتم الأنبياء. فإن الرسالة والنبوة، أعني نبوة التشريع ورسالته، تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبدا. فالمرسلون من كونهم أولياء لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعا في الحكم لما جاء به خاتم الرسل في التشريع، فذلك لا يقدح في مقامه، ولا يناقض ما ذهبنا إليه. فإنه من وجه يكون أنزل، كما أنه من وجه يكون أعلى. وقد ظهر شرعنا ما يؤيد ما ذهبنا إليه في فضل عمر في أسارى بدر بالحكم فيهم !وفي تأبير النخل ! فما يلزم الكامل أن يكون له التقدم في كل شيء وفي كل مرتبة. وإنما نظر الرجال إلى التقدم في رتبة العلم بالله. هناك مطلبهم. وأما حوادث الأكوان فلا تعلق لخواطرهم بها، فتحقق ما ذكرناه"[78].

ويقول في كتابه "فصوص الحكم" أيضا:

"أما بعد: فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مبشرة أريتها في العشر الآخر من محرم سنة سبع وعشرين وستمائة بمحروسة دمشق، وبيده صلى الله عليه وسلم كتاب، فقال لي: هذا "كتاب فصوص الحكم" خذه وأخرج به إلى الناس ينتفعون به!!! فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا كما أمرنا،

---

[77] - محيي الدين بن عربي: المرجع السابق، ص 47.

[78] - المرجع نفسه، ص 62-64.

فحققت الأمنية (أي أمنيته صلى الله عليه وسلم)! وأخصلت النية (لتنفيذ أمره) وجردت القصد والهمة (أي لم أربطهما بأي هدف دنيوي أو أخروي) إلى إبراز هذا الكتاب كما حده لي، رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير زيادة ولا نقصان"[79] !!!!.

ومما هو مسطر في كتاب "الفصوص" هذا من العلوم اللدنية الصوفية، قوله:

"ولما أحب الرجل المرأة، طلب الوصلة، أي غاية الوصلة التي تكون في المحبة، فلم يكن في صورة النشأة العنصرية أعظم وصلة من النكاح، ولهذا تعم الشهوة أجزاءه كلها، ولذلك أمر بالاغتسال منه، فعمت الطهارة، كما عم الفناء فيها، عند حصول الشهوة، فإن الحق غيور على عبده أن يعتقد أنه يلتذ بغيره، فطهره بالغسل؛ ليرجع بالنظر إليه فيمن فنى فيه، إذ لا يكون إلا ذلك، فإذا شاهد الرجل الحق في المرأة، كان شهودا في منفعل، وإذا شاهده في نفسه، من حيث ظهور المرأة عنه، شاهده في فاعل، وإذا شاهده في نفسه من غير استحضار صورة ما تكون عنه، كان شهوده في منفعل عن الحق بلا واسطة، فشهوده للحق في المرأة أتم وأكمل؛ لأنه يشاهد الحق من حيث هو فاعل منفعل، ومن نفسه من حيث هو منفعل خاصة؛ فلهذا أحب صلى الله عليه وسلم النساء؛ لكمال شهود الحق فيهن، إذ لا يشاهد الحق مجردا عن المواد أبدا، فشهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله، وأعظم الوصلة النكاح"[80] !!؟.

ولقد خوطب ابن عربي في نهاية معراجه بما يلي:

"أنت كيميائي، وأنت سيميائي، أنت إكسير القلوب، وحياض رياض الغيوب، بك تنقلب الأعيان أيها الإنسان، أنت الذي أردت، وأنت الذي اعتقدت: ربك فيك إليك ومعبودك بين عينيك، ومعارفك مردودة عليك ما عرفت سواك، ولا ناجيت إلا إياك"[81] !!.

---

[79] - محيي الدين بن عربي: "فصوص الحكم"، ص 47.

[80] - عبد الرحمن الوكيل: "هذه هي الصوفية"، بيروت، 1984، ص 39–40.

[81] - محيي الدين بن عربي: "الإسرا إلى مقام الأسرى، أو كتاب المعراج"، بيروت، 1988، ص 168.

ومن أشعاره اللدنية التي يعبر فيها عن عقيدة وحدة الوجود، قوله:

"فلولاه ولولانا لما كان الذي كانا
فإنا أعبد حقا وإن الله مـولانـا
وإنا عينه فاعلم إذا قلت إنسانا
فأعطيناه ما يبدو به فينا وأعطانا
فصار الأمر مقسو ما بإياه وإيانا"[82]

وقوله:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبـي إذا لم يكن دينـه إلى دينـي دانـي
لقد صار قلبي قابلا كل صـورة فمرعى لغزلان ودير لرهبـان
وبيـت لأوثـان وكعبة طائف وألواح تـوراة ومصحف قـرآن
أديـن بدين الحـب أنا توجهت ركائبه فالحب ديني وإيماني"[83]

هذا غيض من فيض مما يتضمنه كلام إبن عربي من انحرافات وضلالات ومسوخات، يسميها علوما لدنية وفتوحات ربانية. ونظراؤه من الصوفية في هذا كثيرون؛ كالسهروردي، وابن سبعين، والجيلي، والتلمساني، وإبن الفارض، وغيرهم.

3.1- محمد بن قيم الجوزية والعلم اللدني

وللعلامة الفقيه محمد بن قيم الجوزية كلام في العلم اللدني يستحسن الاستشهاد به:

---

[82] - محيي الدين بن عربي: "الإسرا إلى مقام الأسرى، أو كتاب المعراج"، المرجع السابق،ص 143.

[83] - محيي الدين بن عربي: "ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق"، تحقيق عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة ص 39.

"والعلم اللدني ثمرة العبودية والمتابعة، والصدق مع الله، والإخلاص له، وبذل الجهد في تلقي العلم من مشكاة رسوله. وكمال الانقياد له. فيفتح له من فهم الكتاب والسنة بأمر يخصه به، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد سئل: "هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء دون الناس؟ فقال: "والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه"، فهذا هو العلم اللدني الحقيقي.

وأما علم من أعرض عن الكتاب والسنة، ولم يتقيد بهما: فهو من لدن النفس والهوى، والشيطان، فهو لدني. لكن من لدن من؟ إنما يعرف كون العلم لدنيا رحمانيا: بموافقته لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل. فالعلم اللدني نوعان: لدني رحماني، ولدني شيطاني بطناوي. والمحك هو الوحي. ولا وحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأما قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد، وكفر مخرج عن الإسلام، موجب لإراقة الدم.

والفرق: أن موسى لم يكن مبعوثا إلى الخضر. ولم يكن الخضر مأمورا بمتابعته. ولو كان مأمورا بها لوجب عليه أن يهاجر إلى موسى ويكون معه.. ولهذا قال له: "أنت موسى نبي بني اسرائيل؟ قال: نعم"، ومحمد صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى جميع الثقلين. فرسالته عامة للجن والإنس، في كل زمان ومكان. ولو كان موسى وعيسى عليهما السلام حيين لكانا من أتباعه. وإذا نزل عيسى بن مريم عليهما السلام؛ فإنما يحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

فمن ادعى أنه مع محمد صلى الله عليه وسلم كالخضر مع موسى، أو جوز ذلك لأحد من الأمة: فليجدد إسلامه، وليشهد شهادة الحق، فإنه بذلك مفارق لدين

الإسلام بالكلية. فضلا عن أن يكون من خاصة أولياء الله. وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوابه"[84].

نستخلص من هذه الإشكالية المعرفية التي جادل فيها الفقهاء خصومهم الصوفية، أن العبد المسلم يمكنه الظفر ببعض الثمرات العلمية والمعرفية عن طريق العلم اللدني. بيد أن هذه المعرفة المحصلة عن هذا الطريق ينبغي تمحيصها والتأكد من صحتها بعرضها على الكتاب والسنة، إذ لا وحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. والمعرفة اللدنية الصحيحة لا تنبت إلا في رياض القلوب التقية السليمة من البدع والانحرافات العقدية، ومن الأهواء والشهوات النفسية. تلك القلوب التي تنورت بالبصيرة.

والبصيرة نور يقذفه الله في قلب عبده المؤمن، فيرى من خلاله كثيرا من الحقائق، ويفهم أمورا يستعصي فهمها على غيره. فهذا الفهم خاص مرتبط أساسا بالعلم الوهبي أو اللدني، ومندرج في إطاره. وفي هذا الصدد يقول صاحب "المدارج" أيضا: "فإن بهذه البصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف التي لا تنال بكسب ولا دراسة، إن هو إلا فهم يؤتيه الله عبدا في كتابه ودينه، على قدر بصيرة قلبه".

إن مما لاشك فيه أن العبد المؤمن التقي السالك سبيل العلم والمعرفة، والمتدبر بخشوع وإجلال في كتاب الله، قد يعرف بعض الأحوال الروحية التي قد يرقى فيها بقلبه إلى مستوى الفهم عن الله سبحانه وتعالى وما ذلك على الله بعزيز. والفهم عن الله لا يكون من خلال الوحي، إذ ذلك خاص بالأنبياء والرسل، وإنما يكون عن طريق الإلهام مثلا.

---

[84] - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، دار الجيل، بيروت، د.ت، ج 2، ص 536–537.

وقال في "المدراج" أيضا:

فالفهم نعمة من الله لعبده، ونور يقذفه الله في قلبه، يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه.

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عد ألف بواحد. فانظر إلى فهم ابن عباس، وقد سأله عمر، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة "إذا جاء نصر الله والفتح" وما خص به ابن عباس من فهمه منها أنها نعي الله سبحانه نبيه إلى نفسه، وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر له على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة، وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنا. وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله، لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره. ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه. وأما في حق صاحب الفهم: فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها"[85].

ويعتبر الإلهام أيضا من المصادر المعرفية الإيمانية التي تزيد العبد المؤمن إيمانا ويقينا، وتغذي قلبه بمعاني كثيرة، تلك المعارف التي تنحذر وتتسرب إلى هذا القلب من عالم الجود والكرم. جاء في "لسان العرب": "وألهمه الله خيرا: لقنه إياه. واستلهمه إياه: سأله أن يلهمه إياه. والإلهام ما يلقى في الروع"[86]. ويرى الفقيه العلامة ابن حزم الأندلسي أن الإلهام: "علم يقع في الأنفس بلا دليل، ولا استدلال، ولا إقناع، ولا تقليد"[87].

---

85 - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج 1، ص 66.

86 - إبن منظور: "لسان العرب"، مادة "لهم".

87 - إبن حزم: "الإحكام في أصول الأحكام"، دار الكتب العلمية بيروت، 2010، ج 1، ص 38.

والإلهام أيضا: خطاب يلقى في قلب المؤمن من قبل الملك كما في الحديث المشهور: "إن للملك لمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاذ بالخير وتصديق بالوعد. ولمة الشيطان إيعاذ بالشر وتكذيب بالوعد"[88]. ومن هذا الخطاب، واعظ الله عز وجل في قلوب عباده المؤمنين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ولا يصح الإلهام عن الله حتى يكون خاضعا لقواعد الشريعة الإسلامية ونصوصها، وذلك بأن يعرض عليها ويوزن بميزانها، فإن كان مأمورا به أو مباحا قبل، وإلا رد.

هذا وإن أعظم مصادر العلم الوهبي أو اللدني الرحماني؛ هو تدبر كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم العمل الصالح المتمثل في العبادة الخالصة وفق شرع الله سبحانه.

والخلاصة أن العلم الكسبي هو المعول عليه، إذ العلم بالتعلم والحلم بالتحلم كما في الحديث الصحيح. وعلى طالب العلم أن يصبر على طلبه ويتحمل عناء تحصيله، ويستعين بالله في ذلك، وأن يقتدي في هذا الأمر بسيرة العلماء الربانيين ومنهجهم وسلوكهم. وإذا أخلص المسلم وصدق في طلبه للعلم الكسبي فإن العلم الوهبي سيطلبه ولا بد، وسيباغت قلبه، بل يهجم عليه على حسب استعداده ومنزلته الإيمانية والمعرفية. ومن لم يمارس العلم الشرعي بصدق وإخلاص ولم ويتقيد بضوابطه، لا يحصل على العلم الوهبي. ثم إن ذلك لن يتم إلا إذا توفر شرط أساسي وهو الخشية.

---

[88] - رواه ابن حبان وصححه.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إنَّما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾[89]، وقال تعالى أيضاً: ﴿ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تُعَلِّمون الكتاب وبما كنتم تَدرسون﴾[90]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية"[91].

إن خشية الله سبحانه وتعالى من صفات العلماء المخلصين الصادقين الزاهدين، وكلما ازداد المؤمن علما بالله وصفاته وأسمائه، ازداد خشية له ورهبة، والقلوب التي لا تعرف الخوف من الله قلوب خربة، في حين أن الخوف إذا سكن القلب نفى عنه الشهوات القاتلة وأحرقها كما تحرق النار الهشيم، وملأها نورا وضياء.

وقال في "المدارج" أيضا: "فصاحب الخوف يلتجئ إلى الهرب والإمساك، وصاحب الخشية يلتجئ إلى الاعتصام بالعلم، ومثلهما مثل من لا علم له بالطب، ومثل الطبيب الحاذق، فالأول يلتجئ إلى الحمية والهرب. والطبيب يلتجئ إلى معرفته بالأدوية والأدواء، قال أبو حفص: الخوف سوط الله، يقوم به الشاردين عن بابه، وقال: الخوف سراج في القلب به يبصر ما فيه من الخير والشر، وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل، فإنك إذا خفته هربت إليه"[92].

والخشية عند العلماء حالة روحية ومعنوية متأصلة في باطن القلب، ومتجلية في الجوارح والحركات والسلوك والمعاملات، كما أن هذه الحالة تستمد قوتها وطاقتها من الصفات الدينية، والأخلاقية الزكية والحميدة؛ كالإخلاص، والصدق، ودوام مراقبة الله تعالى في السر والعلن، والمحافظة على خوفه في جميع الحركات والسكنات والأقوال والأفعال، ولزوم التواضع والسكينة، والوقار والتخلق وبالزهد والورع،

---

89 - سورة فاطر، الآية 28.

90 - سورة آل عمران، الآية 79.

91 - رواه البخاري.

92 - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج 1، ص 566.

والتقوى والصبر، والرضا والقناعة وسلامة الباطن، وحسن الخلق ومحبة الله، ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم. وهي أخلاق وصفات أصبحت عزيزة ومفقودة، وقل المتصفون بها من العلماء اليوم بله العوام، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الشيخ عبد الرحمن بن قدامة المقدسي (ت 682هـ): "فأما علم المعاملة وهو علم أحوال القلب، كالخوف والرضا، والصدق، والإخلاص وغير ذلك، فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء، كسفيان الثوري، وأبي حنيفة والشافعي وأحمد، وإنما انحطت رتبة المسمين بالفقهاء والعلماء، عن تلك المقامات، لتشاغلهم بصور العلم من غير أخذ على النفس، أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه...واعلم أنه قد بدلت ألفاظ وحرفت، ونقلت إلى معان لم يردها السلف الصالح. فمن ذلك الفقه، فإنهم تصرفوا فيه بالتخصيص، فخصوه بمعرفة الفروع وعللها، ولقد كان إسم الفقه في العصر الأول يطلق على علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدات الأعمال، وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب"[93].

يتبين من خلال كلام الإمام المقدسي أن الخشية التي هي أساس علم أحوال القلب، ضرورية للفقه والتفقه وطلب العلم وتعليمه، وأن الانحراف الذي طرأ على موضوع الفقه ومسماه حينما أصبح "خاصا بمعرفة الفروع وعللها"، بعد أن كان مجاله الأساسي والجوهري هو " علم طريق الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس....". هو انحراف خطير جدا نتج عنه جرح عميق أصاب جسد الأمة الإسلامية، وذلك أن بعض الفقهاء عندما بدأوا ينسلخون من الخشية، ويقبلون على الدنيا ويسعون إلى الأمراء، انطفأ نور الآخرة في قلوبهم، فأعرضوا عن جوهر الفقه، وهو فقه القلوب

---

[93] - عبد الرحمن بن قدامة المقدسي: "مختصر منهاج القاصدين"، دار الفكر، بيروت، 1422هـ/2002م، ص 15.

والنفوس، واقتصروا على فقه المعاملات وظاهر فقه العبادات، مما كان من أسباب ظهور علم التصوف، الذي أخذ على عاتقه القيام بما أهمله أولئك الفقهاء. وهكذا ظهر أبو القاسم الجنيد والحارث المحاسبي وغيرهما، وظهر ما سمي بعلم الأذواق في مقابل علم الأوراق، وتطور الكلام في الزهد والرقائق وألوان من علوم الأحوال والمقامات، مما هو مسطر في كتب المتصوفة. بيد أن الأمر لم يقف عند العلاج أو سد الثغرة، وإنما تولد عن هذا التيار الجديد ضروب من الشطحات والفلسفات؛ مثل الحلول ووحدة الوجود، ثم بعد ذلك ابتلي المسلمون بالطرق الصوفية، وتلك داهية الدواهي التي مازالت جاثمة على صدر الأمة الإسلامية إلى يوم الناس هذا.

لما أعرض أولئك الفقهاء عن جوهر الفقه وروحه، وركنوا إلى الدنيا، حل الحرص والطمع في قلوبهم محل الورع والخشية، فخفت نور الإيمان، وضعف الكشف عن حقائق الأشياء، وتلاشت الصفات العقلية والقلبية الموجبة لتسديد الأقوال والأعمال. والنور الصادر عن الخشية من أعظم الأنوار الباطنية التي تقذف بالحق على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق، سيما إذا اقترنت تلك الخشية بالاتباع، أي اتباع السنة المحمدية والهدي النبوي، ذلك أن أنوار الخشية مع الاتباع، تطفئ نيران الأهواء النفسية والشهوات، فتسطع الهداية والسعادة في القلب وتنتشر في الصدر وتعلو المحيا، "فيكاد المؤمن ينطق بالحكمة وإن لم يسمع فيها بالأثر" كما قال بعض السلف.

أما إذا كانت الخشية غير مقرونة بالاتباع كما هو حال متفلسفة الصوفية والمتصوفة الطرقيين، وغيرهم من المبتدعة قديما وحديثا، فإن علاقتها بالخشية الأولى علاقة اشتراك لفظي لا غير. وشتان ما بين مسمى الأولى ومسمى الثانية، فإن بينهما تقابلا واضحا لا يخفى على ذي لب.

"سأل فرقد السبخي الحسن البصري عن شيء، فأجابه قائلا: إن الفقهاء يخالفونك، فقال الحسن: ثكلتك أمك يا فريقد، وهل رأيت بعينيك فقيها، إنما الفقيه الزاهد في الدنيا، الراغب في الآخرة، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه، الذي لا يهمز من فوقه، ولا يسخر بمن دونه، ولا يبتغي على علم علمه الله تعالى أجرا".[94]

وقال الإمام مالك: "ليس العلم بكثرة الرواية، ولكنه نور يجعله الله في القلوب"، وقال أيضا: "الحكمة والعلم نور يهدي به الله من يشاء، وليس بكثرة المسائل، ولكن عليه علامة ظاهرة: "وهو التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود"[95]. وعن عون بن عبد الله قال: "قال عبد الله بن مسعود: "ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية".96

نخلص من خلال ما سبق، إلى أن العلم الصادق الصائب والخشية شيئان متلازمان. أما العلم الذي يرائى به صاحبه، أو يسعى به لتحقيق أمر دنيوي محض، أو يمزجه بضلالات وبدع، فهو علم وبال عليه في الدنيا الآخرة، ولا علاقة له بالخشية.

---

[94] - محمد بن قيم الجوزية: "مفتاح دار السعادة" ، دار ابن حزم، 2010، الرياض، ج 1، ص 92.

[95] - أبو إسحاق الشاطبي: "الموافقات في أصول الشريعة"، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، المجلد 1، ص 53.

[96] - إبن الجوزي: "صفة الصفوة"، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/1999م، ج 1، ص 218.

2- إشكالية شيخ التربية وشيخ العلم والتعليم

1.2- مفهوم القدوة عند الصوفية

لعل من نافلة القول، أن شيخ الطريقة يعتبر العمود الفقري لكل طريقة صوفية، فالشيخ كلما كان متمتعا بصفات وأحوال نفسية وروحانية متميزة، اكتسبت طريقته مزيدا من الصيت والذيوع، وكثر مريدوها. وإن من أصول أصحاب الطرق، ضرورة وجود شيخ مأذون له، أو لمن ينوب عنه في تلقين الأوراد. وينظر المريدون إلى شيخهم نظرة المريض إلى الطبيب؛ فكما أن لأمراض البدن طبيبا مختصا في علاجها، كذلك الأمر فيما يتعلق بأمراض النفس وعلل القلوب، إذ يتصدى لها الشيخ الصوفي ويعالجها بما أوتي من علوم ومعارف وأحوال، وخبرات تربوية يستطيع بواسطتها تشخيص نفسية المريض، والوصول إلى مكامن الداء والمرض في قلبه، ثم يصف له العلاج ويداويه بما يناسبه من الدواء.

ويجب على المريد كي يحقق ما يريد تحقيقه، أن يتأدب مع شيخه كل الأدب، ويطيعه فيما أمر ونهى، ويكن له الاحترام والتعظيم.

قال محيي الدين بن عربي في أول الباب الواحد والثمانين بعد المائة من كتاب "الفتوحات المكية":

"ما حرمة الشيخ إلا حرمة الله	فــــقــم بهـــا أدبا لله بالله
هــــم الأدلاء والقربى تؤيدهم	على الدلالة تأييدا على الله
كالأنبياء تراهـــم في محــــاربهم	لا يسألون من الله سـوى الله
فـــإن بدا منهم حال تــــولههم	عن الشريعة فاتركهم مع الله"!!

وقال أبو حامد الغزالي: "فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة، ليهديه إلي سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لامحالة، فمن سلك سبيل البوادي المهلكة بغير خفير، فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر. فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة، شيخه فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد...، وليعلم أن نفعه في خطئه لو أخطأ، أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب، فإذا وجد مثل هذا المعتصم وجب على معتصمه أن يحميه، ويعصمه بحصن حصين يدفع عنه قواطع الطريق وهي أربعة أمور الخلوة، والصمت، والجوع، والسهر"[97].

ويقول محمد الرفاعي الصيادي في كتابه "قلادة الجواهر": "ومن آداب المريد اللازمة أولا: حفظ قلب شيخه، ومراعاته في الغيبة والحضور... والتواضع له ولذريته وأقاربه، وثبوت القدم على خدمته، وأوامره كلها وجزئها، وربط القلب به، واستحضار شخصه في قلبه في جميع المهمات، واستمداد همته، والفناء فيه، وأن يكون ملازما له لا يفتر عنه طرفة عين، ولا ينكر عليه ما ظهر منه من صفة عيب، فلربما يظهر من الشيخ ما لا يعلمه المريد"[98].

ثم إن المريد لا يتعلق قلبه بشيخ سوى شيخه، ويفرده بالتعظيم والتبجيل ويتخذه وحده قبلة وقدوة. قال عبد الوهاب الشعراني: "ومن شأنه أن لا يكون له إلا شيخ واحد، فلا يجعل له قط شيخين؛ لأن مبنى طريق القوم على التوحيد الخالص، وقد ذكر الشيخ محيي الدين بن عربي في الباب الأحد والثمانين ومائة من "الفتوحات

---

[97] - أبو حامد الغزالي " إحياء علوم الدين"، دارالحديث، القاهرة، 1419هـ/1998م، ج 3، ص 112-113.

[98] - المرجع نفسه، ج 3، ص 113-112.

المكية" ما نصه: "اعلم أنه لا يجوز لمريد أن يتخذ إلا شيخا واحدا لأن ذلك أعون له في الطريق، وما رأينا مريدا قد أفلح على يد شيخين، فكما أنه لم يكن وجود العالم بين إلهين، ولا المكلف بين رسولين، ولا امرأة بين زوجين، فكذلك المريد لا يكون بين شيخين"[99].

وقال عبد المجيد بن محمد الخاني النقشبندي في كتابه "السعادة الأبدية": "اعلم أيها الأخ المؤمن أن الرابطة عبارة عند ربط القلب بالشيخ الكامل،... وحفظ صورته بالخيال ولو عند غيبته أو بعد وفاته، ولها صور؛ أهونها أن يتصور المريد صورة شيخه الكامل بين عينيه، ثم يتوجه إلى روحانيته في تلك الصورة، ولا يزال متوجها إليها بكليته حتى يحصل له الغيبة أو أثر الجذب... وهكذا يداوم على الرابطة حتى يفنى عن ذاته وصفاته في صورة الشيخ... فتربيه روحانية الشيخ بعد ذلك إلى أن توصله إلى الله تعالى، ولو كان أحدهما في المشرق والآخر في المغرب، فبالرابطة يستفيض الأحياء من الأموات المتصرفين"[100].

لا شك أن القارئ الكريم قد فهم من خلال هذه النصوص جانبا مهما من جوانب العلاقة التي تربط المريد بشيخه الطرقي، والتي تبدأ بأصناف التأدب والاحترام وتنتهي بالغيبة والفناء في صورة شيخه التي لا تفارق خياله طرفة عين، ومن هنا لا يعجب المرء إذا سمع بمريد يستغيث بشيخه ويستنجده وهو غائب عنه أو قد ارتحل إلى الآخرة.

---

[99] - عبد الوهاب الشعراني: "الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية"، المكتبة العلمية، بيروت، 1412هـ/1992م، ج 1، ص 40.

[100] - عبد المجيد بن محمد الخاني النقشبندي: "السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية"، الناشر مكتبة الحقيقة، إسطانبول، 1401هـ/1981م، ص 22-23.

2.2- نقد مفهوم القدوة عند الصوفية

قال العلامة أحمد بن تيمية:

"وخير الشيوخ الصالحين، وأولياء الله المتقين، أتبعهم له وأقربهم وأعرفهم بدينه وأطوعهم لأمره: كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر التابعين بإحسان، وأما الحسب فلله وحده ولهذا قالوا: "حسبنا الله ونعم الوكيل"، ولم يقولوا ورسوله... فليس لأحد أن يدعو شيخا ميتا أو غائبا: لا من الأنبياء ولا غيرهم، فلا يقول لأحدهم: يا سيدي فلان أنا في حسبك أو في جوارك، ولا يقول بك أستغيث وبك أستجير"[101].

ثم إن أسلوب التلقي الذي ينتهجه المريد مع شيخه الطرقي، لا يخلو من عيوب معرفية وتربوية وأخطاء تعبدية وشرعية، ذلك أن هذه العلاقة تجعل المريد محصورا في دائرة مغلقة، بحيث يكون الشيخ بمثابة النواة المركزية، والمريدون عبارة عن إلكترونات تحوم حولها. وهكذا فإن المعارف والأفكار التي يكتسبها المريد، يستمدها من روح شيخه وشخصيته؛ إما يقظة أو مناما، فيتشكل عنده نمط فكري واحد ينتظم من خلاله وبواسطته تصوره الوجودي والكوني، وكذا حياته الاجتماعية والدينية، فتغدو، تبعا لذلك، عين الشيخ المصدر الوحيد للإلهامات والإمدادات، والإشراقات المعرفية.

وبما أن المريد ينظر إلى شيخه الطرقي بعين الرضا والمحبة والتقديس، فإن عقله عاجز عن إدراك ما يمكن أن يصدر عنه من أخطاء وهفوات، وكيف يصدر ذلك عن الشيخ الكامل والقطب الرباني صاحب الأحوال والمقامات ؟.!! فالدين هو ما يفهمه شيخه والعبادة ما يمارسها ويدعو إليها.

---

[101] - أحمد بن تيمية: "مجموع الفتاوى"، ج 11، ص 498-499.

ومما له علاقة بأسلوب التلقي المشار إليه، ما يتلقاه المريد عن شيخه من الأوراد التي بواسطتها يتقوى قلبه، وتصبو نفسه نحو الترقي في الأحوال والمقامات، بيد أن هذا الترقي كثيرا ما يؤدي بصاحبه إلى الوقوع في الجذب أو الفناء، مما قد يدفع به إلى العزلة التامة عن المجتمع، وهذا ما لا يحصل للمسلم الذي يذكر الله كما أمر، وكما بين نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه، في سنته المطهرة. قال الفقيه ابن تيمية: "وكذلك العباد إذا تعبدوا بما شرع الله من الأقوال والأعمال ظاهرا وباطنا، وذاقوا طعم الكلم الطيب والعمل الصالح الذي بعث الله به رسوله، لوجدوا في ذلك من الأحوال الزكية والمقامات العلية والنتائج العظيمة، ما يغنيهم عما قد حدث من نوعه كالتغبير ونحوه من السماعات المبتدعة الصارفة عن سماع القرآن، وأنواع من الأذكار والأوراد لفقها بعض الناس"[102].

وقال الإمام الأصولي أبو إسحاق الشاطبي:

"إن اتباع الهوى طريق إلى المذموم، وإن جاء في ضمن المحمود؛ لأنه إذا تبين أنه مضاد بوضعه لوضع الشريعة، فحيثما زاحم مقتضاها في العمل كان مخوفا. أما أولا فإنه سبب تعطيل الأوامر وارتكاب النواهي، لأنه مضاد لها. وأما ثانيا فإنه إذا اتبع واعتيد ربما أحدث للنفس ضراوة وأنسا به، حتى يسري معها في أعمالها، ولا سيما وهو مخلوق معها ملصق بها في الأمشاج. فقد يكون مسبوقا بالامتثال الشرعي فيصير سابقا له، وإذا صار سابقا له صار العمل الامتثالي تبعا له وفي حكمه، فبسرعة ما يصير صاحبه إلى المخالفة، ودليل التجربة حاكم هنا.

وأما ثالثا، فإن العامل بمقتضى الامتثال من نتائج عمله الالتذاذ بما هو فيه، والنعيم بما يجتنيه من ثمرات الفهوم، وانفتاح مغاليق العلوم. وربما أكرم ببعض

[102] - أحمد بن تيمية: "اقتضاء الصراط المستقيم"، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1419هـ ،ص 282.

الكرامات، أو وُضِع له القبول في الأرض فانحاش الناس إليه، وحلقوا عليه، وانتفعوا به، وأموه لأغراضهم المتعلقة بدنياهم وأخراهم"[103].

لاحظ معي أيها القارئ اللبيب، كيف نبه المحقق الأصولي أبو إسحاق على هذه المسألة الدقيقة، وبين فيها أن اتباع الهوى يجر المسلم إلى المذموم وإن جاء في ضمن المحمود. فالشيخ الطرقي الذي وضع أورادا وصيغا للذكر على طريقة غير طريقة الشرع الحكيم، وعلى منهج لا عهد للصحابة والتابعين به، يكون قد ابتدع في أمر تعبدي وقفي لا مجال فيه للاجتهاد أو إبداء الرأي، وإن بدا له أن هذه الأوراد والأذكار تدور في فلك أو إطار ما هو محمود ومحبب إلى الله سبحانه. وهذا باب من الأبواب التي سلكها كثير من السالكين والعباد فزلت فيها أقدامهم. ناهيك عما تطور أو تولد عن هذه الأوراد والأذكار المبتدعة من ألوان الإنشاد والسماع، ثم التواجد والحضرة والرقص، وما يحدث داخل معظم الزوايا الطرقية من ضلالات ومسوخات، وهلم جرا مما يتنافى مع ديننا الحنيف، ولا يقبله عقل ولا نقل.

3.2- بين شيخ التربية وشيخ العلم والتعليم

بعد هذا الكلام الموجز حول مفهوم القدوة عند الشيخ الطرقي، وعن أسلوب التلقي المعتمد بين المريد وشيخه، وعن طبيعة الأوراد والأذكار التي يضعها شيوخ الطرق الصوفية، وما قال في شأنها بعض العلماء والفقهاء، أنتقل إلى مناقشة مفهوم الشيخ الطرقي باعتباره شيخ تربية، وهل يتوجب على المسلم المتعلم أن يتخذ شيخا من شيوخ التربية يسلك به طريقة معينة في العبادة وتزكية النفس، أم يقتصر على شيوخ العلم والتعليم ويتفقه على أيديهم ؟.

[103]- أبو إسحاق الشاطبي: "الموافقات في أصول الشريعة"، المجلد 1، ج 2، ص 133-134.

ليس مثلي من يجيب عن هذا السؤال، ولكني "أعطي القوس باريها" كما قال الشاعر:

يا باري القوس بريا ليس يحسنه لا تظلم القوس أعط القوس باريها

أقول وبالله التوفيق: ذكر عبد الفتاح أبو غدة في هامش من هوامش تحقيقه لكتاب "رسالة المسترشدين" لأبي عبد الله الحارث المحاسبي، ما نصه:

"وقد كتب الإمام الفقيه الأصولي المحدث النظار، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي، صاحب كتاب "الموافقات" و"الاعتصام" وغيرهما من الكتب النفيسة الباهرة، المتوفى سنة 790هـ، من غرناطة قاعدة الأندلس، إلى شيخ الصوفية في عصره أبي عبد الله محمد بن عباد النفزي، خطيب جامع القرويين في مدينة فاس، المتوفى سنة 792هـ رحمهما الله تعالى.

كتب إليه يسأله عن مسألة وقعت في غرناطة، واختلفت فيها أنظار العلماء، وكثر فيها القيل والقال، وهي: هل على السالك إلى الله تعالى أن يتخذ لزاما، شيخ طريقة وتربية يسلك على يديه؟ أم يسوغ له أن يكون سلوكه إلى الله تعالى من طريق التعلم والتلقي من أهل العلم دون أن يكون له شيخ طريقة؟.

فكتب إليه الشيخ ابن عباد رحمه الله تعالى كتابة العالم المنصف المخلص، فقال له ما خلاصته: كما في كتابه "الرسائل الصغرى"، ص 106 وما بعدها وص 125 وما بعدها: "الشيخ المرجوع إليه في السلوك ينقسم إلى قسمين: شيخ تعليم وتربية، وشيخ تعليم بلا تربية.

فشيخ التربية ليس ضروريا لكل سالك، وإنما يحتاج إليه من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس. وأما من كان وافر العقل منقاد النفس، فليس بلازم في حقه، وتقيده به من باب الأولى. وأما شيخ التعليم فهو لازم لكل سالك.

أما كون شيخ التربية لازما لمن ذكرناه من السالكين فظاهر، لأن حجب أنفسهم كثيفة جدا، ولا يستقل برفعها وإماطتها إلا الشيخ المربي، وهم بمنزلة من به علل مزمنة، وأدواء معضلة من مرض الأبدان، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة.

وأما عدم لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس، فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يغنيانه عنه، فيستقيم له من العمل بما يلقيه إليه شيخ التعليم ما لا يستقيم لغيره. وهو واصل بإذن الله تعالى، ولا يخاف عليه ضرر يقع له في طريق السلوك إذا قصده من وجهه، وأتاه من بابه.

واعتماد شيخ التربية هو طريق الأئمة المتأخرين من الصوفية، واعتماد شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم. ويظهر هذا من كتب كثير من مصنفيهم، كالحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي، وغيرهما، من قبل أنهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره أئمة المتأخرين، مع أنهم ذكروا أصول علوم القوم وفروعها، وسوابقها ولواحقها، لا سيما الشيخ أبو طالب، فعدم ذكرهم له دليل على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك.

وهذه هي الطريقة السابلة، أي المسلوكة، التي انتهجتها أكثر السالكين، أشبه بحال السلف الأقدمين، إذ لم ينقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية، وتقيدوا بهم والتزموا معهم ما يلتزمه التلامذة مع الشيوخ المربين، وإنما كان حالهم اقتباس العلوم، واستصلاح الأحوال بطريق الصحبة والمؤاخاة بعضهم لبعض. ويحصل لهم بسبب التلاقي والتزاور مزيد عظيم يجدون أثره في بواطنهم وظواهرهم، ولذلك جالوا في البلاد، وقصدوا إلى لقاء الأولياء والعلماء والعباد"[104].

---

[104] - عبد الفتاح أبو غدة: تحقيق "رسالة المسترشدين"، دار السلام، ط 5، 1409هـ/1988م، ص 39-40.

يستفاد من جواب محمد بن عباد النفزي شيخ الصوفية في عصره، أن شيخ التعليم هو المعول عليه في تحصيل العلوم والمعارف، وهو قبلة كل سالك يسلك سبيل العلم والاستقامة، ويريد التزود للدار الآخرة. والأحاديث النبوية في طلب العلم وكتبه وتحصيله وارتياد مجاله، كثيرة جدا. كما أن علماء الأمة وفقهاءها كتبوا في هذا الموضوع رسائل ومصنفات عديدة، والنبي صلى الله عليه وسلم أشار في أحاديثه إلى قدر العالم وأهميته وعلو مرتبته، وكونه أفضل من العابد، لأنه يفقه الناس ويعلمهم أمور دينهم ودنياهم. وإذا استقرأنا هذه الأحاديث المتعلقة بالعلم والعلماء لا نجد فيها ذكرا لشيخ التربية أو الطريقة، لأن العلماء الأتقياء الربانيين المشار إليهم في الأحاديث النبوية، هم أولى الناس بتربية السالكين المتعلمين، فهم يقذفون في قلوب المتعلمين علوم الكتاب والسنة وغيرها من العلوم، مصحوبة بالخشية والتواضع، واستحضار عظمة الله سبحانه، إلى غير ذلك من المعاني الروحية والإيمانية التي تنور قلوب أولئك المتعلمين، فيتعلمون العلوم والمعارف كما يتعلمون مبادئ التربية، والاستقامة، والأخلاق الحسنة، ومحبة الله ورسوله. لهذا جاء في نص الجواب: "وهذه هي الطريقة السابلة أي المسلوكة التي انتهجها أكثر السالكين، وهي أشبه بحال السلف الأقدمين، إذ لم ينقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية وتقيدوا بهم، وإنما كان حالهم اقتباس العلوم استصلاح الأحوال بطريقة الصحبة والمؤاخاة بعضهم لبعض". وفي قوله رحمه الله: "اعتماد شيخ التربية هو طريق الأئمة المتأخرين من الصوفية، واعتماد شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم يذكرنا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم"[105]. فالأولى اعتماد شيخ التعليم لأنه الأصل، أما شيخ التربية فلم يكن له ذكر في القرون الأولى وإنما ظهر في القرون المتأخرة بسبب استشراء داء البلادة وتكاثر أصحاب الحجب والعلل النفسية، وأمراض

---

[105] - رواه البخاري.

القلوب والغفلة. ولا يفوتني أن أنوه بالنزاهة العلمية، والموضوعية التامة لهذا العالم الجليل محمد بن عباد النفزي رحمه الله، حيث لم تمنعه مشيخته الصوفية من ترجيح كفة شيخ التعليم، والانتصار للعلم والفقه، ومنح الأولوية والأسبقية لهما، في حين جعل دائرة شيخ التربية أو شيخ الطريقة ضعيفة جدا، لا تضم إلا "من فيه بلادة ذهن واستقصاء نفس".

فتأمل معي أيها القارئ الفطن، واستعمل ذهنك الثاقب، وانظر كيف كان علماء القرون الماضية من أصحاب الذوق الصوفي النقي يفهمون التصوف، ويقيدونه بالشريعة، ويضبطون قواعده بضوابط الكتاب والسنة، حتى تذوب ماهية التصوف في ماهية الإسلام، وتتلاشى علامات التمييز، ويبقى الحق هو ما جاء به القرآن وكلام الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. لكن خلف من بعدهم خلف انحرفوا عن هذا النهج القويم، وجعلوا شيخ التربية أو شيخ الطريقة أولى من شيخ التعليم، بل اعتبروا تحصيل العلوم سببا في حرمان النفس من التزكية والاستقامة والترقي في مدارج الإيمان !! أو مانعا يحول دون الوصول إلى عالم الأذواق والحقائق الروحية والمعارف الكشفية والإلهامية!!، ناهيك عن الاعتقادات الفاسدة الضالة، المتعلقة بذوات هؤلاء الشيوخ، وكراماتهم وتصرفاتهم في النفوس والعوالم !!

ويقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله في معرض الحديث عن شيخ التربية أو الطريقة: "ومن أمكنه الهدى من غير انتساب إلى شيخ معين فلا حاجة به إلى ذلك. ولا يستحب له ذلك، بل يكره له. وأما إن كان لا يمكنه أن يعبد الله بما أمره إلا بذلك، مثل أن يكون في مكان يضعف فيه الهدى والعلم والإيمان والدين، يعلمونه ويؤدبونه، لا يبذلون له ذلك إلا بانتساب إلى شيخهم، أو يكون انتسابه إلى شيخ يزيد

في دينه وعلمه، فإنه يفعل الأصلح لدينه. وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه، وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده"[106].

بعد أن أشار شيخ الإسلام أحمد بن تيمية إلى أن السالك ملتمس الهدى لا يلزمه "الانتساب إلى شيخ"، ويقصد بالشيخ شيخ التربية أو الطريقة، بل "لا حاجة به إلى ذلك..." نبه في آخر كلامه على مسألة التفريط، إذ قال: "وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه"، "وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده".

وهذا ما يلاحظ في عصرنا، إذ تجد معظم المريدين الذين يلتفون حول شيخ من شيوخ الطريقة، قد فرطوا في تحصيل العلوم والتفقه في الدين، واستثقلوا ذلك لما فيه من العناء والمشقة، واستوعروا طريق العلم، وقالوا نحن ضعفاء ولن يصلح أحوالنا إلا شيخ طريقة صوفية، ونسوا أن أول ما أمر به الله تعالى القراءة وطلب العلم، حيث يقول جل وعلا في سورة العلق: "اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم." أي أنه أوجب علينا القراءة، وتحصيل العلم، وتدبر القرآن، وفي ذلك حث على إعمال العقل، وتحريك آليات الذهن وتفعيلها، وتفجير الطاقات الروحية الكامنة في القلب بواسطة التفكير والتأمل والاستدلال، مع الاسترشاد بالوحي كتابا وسنة، والجلوس مع أولي العلم من العلماء والفقهاء الربانيين.

أما الارتماء في أحضان شيخ طرقي، والاعتماد عليه وحده في عبادة الله، وإصلاح النفس وتزكيتها وإبطال العمل بمقتضيات "اقرأ باسم ربك"، وما يتبع ذلك من تدبر وتأمل وتحصيل وإرادة، واستغلال لآليات ومناهج المعرفة، وربط ذلك كله بفقه الواقع ووظيفة الاستخلاف، فإنه تفريط ما بعده تفريط، وتقصير في القيام بواجب

---

[106] - أحمد بن تيمية: "مجموع الفتاوى"، ج 10، ص 514.

تحصيل العلم والمعرفة، ويكون السالك بذلك قد طلب الهدى على غير وجهه، إذ كما قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية "لو طلب الهدى على وجهه لوجده."

وأختم هذا المبحث بما ختم به الإمام محمد بن علي الشوكاني في كتابه "أدب الطلب ومنتهى الأرب"، وهو كتاب أنصح طلاب العلم بقراءته لما يحويه من موضوعات نفيسة متعلقة بمنهجية تحصيل العلوم الإسلامية، ودور العلماء في النصح والتوجيه ومحاربة الجهل والتقليد والتعصب.

يقول الإمام الشوكاني رحمه الله، وهو يتحدث عن "ابتلاء الإسلام بالمذاهب وتقديس الأموات": "ويلتحق بالأمرين المذكورين أمر ثالث، وإن لم تكن مفسدته كمفسدتهما، ولا شموله كشمولهما، وهو ما صارت عليه هذه الطائفة المدعوة بالمتصوفة، فقد كان أول هذا الأمر، يطلق هذا الاسم على من بلغ في الزهد والعبادة إلى أعلى مبلغ، ومشى على هدي الشريعة المطهرة، وأعرض عن الدنيا وصد عن زينتها، ولم يغتر ببهجتها، ثم حدث أقوام جعلوا هذا الأمر طريقا إلى الدنيا، ومدرجا إلى التلاعب بأحكام الشرع، ومسلكا إلى أبواب اللهو والخلاعة، ثم جعلوا لهم شيخا يعلمهم كيفية السلوك، فمنهم من يكون مقصده صالحا وطريقته حسنة، فيلقن أتباعه كلمات تباعدهم من الدنيا وتقربهم من الآخرة، وينقلهم من رتبة إلى رتبة، على أعراف يتعارفوها، ولكنه لا يخلو غالب ذلك من مخالفة للشرع وخروج عن كثير من آدابه. والخير كل الخير في الكتاب والسنة، فما خرج عن ذلك فلا خير فيه، وإن جاءنا أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة، وأتقاهم لله تعالى وأخشاهم له في الظاهر، فإنه لا زهد لمن لم يمش على الهدي النبوي، ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم. فإن الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها والنصب وإيقاعها على أبلغ الوجوه. بل إنما تكون طاعات خالصة محضة، مباركة نافعة، لموافقة الشرع، والمشي على الطريقة المحمدية.

ولا أنكر أن في هذه الطائفة من قد بلغ في تهذيب نفسه وغسلها من الطواغيت الباطنة، والأصنام المستورة عن الناس، كالحسد، والكبر، والعجب، والرياء، ومحبة الثناء والشرف، والمال والجاه مبلغا عظيما، وارتقى مرتقا جسيما، ولكني أكره له أن يتداوى بغير الكتاب والسنة، وأن يتطبب بغير الطب الذي اختاره الله لعباده، فإن في القوارع القرآنية والزواجر المصطفوية، ما يغسل كل قذر، ويدحض كل درن، ويدمغ كل شبهة، ويدفع كل عارض من عوارض السوء. فأنا أحب لكل عليل في الدين أن يتداوى بهذا الدواء، فيعكف على تلاوة كتاب الله متدبرا له متفهما لمعانيه، باحثا عن مشكلاته، سائلا عن معضلاته، ويديم النظر في كتب السنة المعتبرة عند أهل الإسلام كالأمهات الست وما يلحق بها. ويستكثر من مطالعة السيرة النبوية، ويتدبر ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليله ونهاره، ويتفكر في أخلاقه وشمائله، وهديه وسمته، وما كان عليه أصحابه وكيف كان هديهم في عباداتهم ومعاملاتهم. فإنه إذا تداوى بهذا الدواء ولاحظته العناية الربانية، وجذبته الهداية الإلهية، فاز بكل خير مع ما له من الأجر الكثير، والثواب الكبير، في مباشرة هذه الأسباب. وإذا حال بينه وبين الانتفاع بهذه الأمور حائل، ومنعه من الظفر بما يترتب عليها مانع، فقد نال بتلك الأسباب التي باشرها أجرا عظيما، لأنه طلب الخير من معدنه، ورام نيل الرشد من موطنه، فكان له في تلك الأشغال من الأجر ما لطلبة علم الشرع، لأنه قد جهد نفسه في الأسباب، ولم يفتح له الباب. وبعد هذا كله، فلست أجهل أن في رجال هذه الطائفة المسماة بالصوفية، من جمع الله له بين الملازمة لهذه الشريعة المطهرة، والمشي على الطريقة المحمدية والصراط الإسلامي، مع كونه قد صار من تصفية باطنه من كدورات الكبر والعجب والحسد والرياء ونحوها، بمحل يتقاصر عنه غيره، ويعجز عنه سواه، ولكني في هذا المصنف بسبب الإرشاد إلى العمل بالكتاب والسنة، والتنفير عما عداهما كائنا ما كان فلست أحب لمن أراد القرب إلى الله والفوز بما لديه والظفر بما عنده، أن يتسبب إلى ذلك بسبب خارج عنهما من رياضة أو مجاهدة أو

خلوة أو مراقبة، أو يأخذ عن شيخ من شيوخ الطريقة الصوفية شيئا من الاصطلاحات الموصلة إلى الله عندهم، بل يطلب علم الكتاب والسنة، ويأخذهما عن العلماء المتقنين لهما المؤثرين لهما على غيرهما، المتجنبين لعلم الرأي وما يوصل إليه، النافرين عن التقليد وما يحمل عليه، فإنه إذا فعل ذلك سلك مسلك النبوة، وظفر بهدي الصحابة، وسلم من البدع كائنة ما كانت، فعند ذلك يحمد مسراه، ويشكر مسعاه، ويفوز بخير أولاه وأخراه"[107].

لقد أحسن الإمام محمد بن علي الشوكاني الكلام عندما تعرض لمسألة الموازنة بين سلوك المتصوفة وسلوك غيرهم ممن يتقيد بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وسنة الصحابة والتابعين، وأثنى على أهل الطائفة الأولى قائلا: "ولا أنكر أن في هذه الطائفة من قد بلغ في تهذيب نفسه وغسلها من الطواغيت الباطنية... مبلغا عظيما"، أو قوله "فلست أجهل أن في هذه الطائفة المسماة بالصوفية من قد جمع الله له بين الملازمة لهذه الشريعة المطهرة(...)" لكنه عقب قائلا: "فلست أحب لمن أراد القرب إلى الله والفوز بما لديه والظفر بما عنده أن(...) من رياضة أو خلوة(...) أو يأخذ عن شيخ من شيوخ الطرق الصوفية شيئا من الاصطلاحات الموصلة إلى الله عندهم(...) بل بطلب علم الكتاب والسنة".

كأني بهذا العالم القدوة يعض بنواجذه على سنة نبيه، وهو يرغب الناس في طلب الهدي من الكتاب والسنة والإعراض عما سواهما من الطرق التي قد تفضي بسالكيها إلى ما لا يحمد عقباه، لقد كان هذا العالم رحمه الله للعلم مجمعا، وللدين مفزعا، وعلما في علمه وزمانه.

---

[107] - محمد بن علي الشوكاني: "أدب الطلب ومنتهى الأرب"، دار ابن حزم، الرياض، 1998م، ص 261.

وبعد، أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يكون القارئ اللبيب ذو الرأي الثاقب، قد انقدح في قلبه، واستقر في عقله، أن القدوة المثلى لا تلتمس في شيوخ الطرق الصوفية، وإنما تطلب من معدنها الجوهري وعينها الفياضة: محمد صلوات الله وسلامه عليه، وصحابته، ومن على أثرهم من العلماء الربانيين إلى يوم الدين.

لكن قد يقول قائل: إن العالم الرباني غدا كالكبريت الأحمر، أو دونه بيض الأنوق، فأنى لي بمن سيأخذ بيدي ويقيني المهالك؟ أقول له: لا يكون هذا الأمر مسوغا لك أن تتخذ شيخا طرقيا، يرشدك ويقيك المهالك، لأننا معشر المسلمين أمة "اقرأ"، إن فقدنا العلماء، فلن نفقد القرآن لأنه محفوظ، ولن نفقد السنة لأنها محفوظة أيضا حسا ومعنى. ويستحيل أن يخلو زمان من وجود عالم رباني؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق"؛ قال محمد بن إسماعيل البخاري: "وهم أهل العلم"[108] ثم إننا لا نقدس الشيوخ الطرقيين ولا شيوخ العلم، بل لو افترضنا خلو قرية أو مدينة من عالم رباني يسترشد به الناس، فإنه لن يكون ذلك مانعا من معرفة الحق والوصول إلى الله سبحانه وتعالى، لأن كتاب الله موجود والسنة مسطرة بين أيدينا. وهذا ما أشار إليه عالمنا النحرير الشوكاني بقوله: "فأنا أحب لكل عليل في الدين أن يتداوى بهذا الدواء فيعكف على تلاوة كتاب الله متدبرا متفهما (...) إلى (...) فاز بكل خير".

ثم إن وجود الشيخ الطرقي أو العالم الرباني ليس شرطا في نجاتنا، أي أن الفوز بالجنة ليس متوقفا بالضرورة عليهما، وما أكثر المسلمين الذين شهد لهم الناس بالصلاح والاستقامة، مع أنهم لم يلازموا شيوخ الطرق ولا شيوخ العلم.

---

[108] - إبن حجر العسقلاني: "فتح الباري شرح صحيح البخاري"، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، 1420هـ/2000م، ج 15، ص 9087.

إن المنهج الصحيح لضبط السلوك وتفجير الطاقات العقلية والروحية، وتسيير السبل لتحقيق الاستخلاف، هو منهج الكتاب والسنة. لكن قوما، غفر الله لهم، آثروا شخصية الشيخ الطرقي، على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

وأخيرا شتان بين من يستلهم روح النبي صلى الله عليه وسلم وشخصيته ويكثر من ذكره والصلاة عليه، ويقتفي أثره ويهتدي بهديه هدي الفطرة، وبين من يستلهم روح شيخه الطرقي وشخصيته، ويثني عليه ويمدحه ويصحبه في خياله نوما ويقظة. وشتان بين شخصية رسالية تبني رجال الدنيا والآخرة، وتؤسس أمة الاستخلاف، وشخصية طرقية مجالها الطريقة والزاوية والأوراد والطقوس، وغايتها استغفال واستعباد المريدين والأتباع.

الفصل الثالث

قراءة في كتابات ونصوص صوفية

1- التخويف النفسي عند الحارث المحاسبي

2- التصوف عند الشيخ أحمد بن عجيبة من خلال كتابه: "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"

3- التصوف الفلسفي في شعر الشيخ محمد الحراق

1- التخويف النفسي عند الحارث المحاسبي

نشأ الحارث بن أسد المحاسبي بالبصرة، ثم انتقل منها إلى بغداد حيث ذاع صيته وأقبل الناس عليه يستمعون إلى أحاديثه ومواعظه البليغة، إلى أن توفي رحمه الله سنة 243هـ . وكان معاصرا لكبار العلماء والفقهاء، كالإمام أحمد بن حنبل وأبي القاسم الجنيد وغيرهما. "روى الخطيب البغدادي بسند صحيح أن الإمام أحمد سمع كلام المحاسبي فقال لبعض أصحابه: ما سمعت في الحقائق مثل كلام هذا الرجل ولا أرى لكم صحبته!"[109].

يستفاد من كلام أحمد بن حنبل، أن صاحبنا كان على طريقة القوم شغوفا بالكلام في الحقائق وما يتعلق بعلوم الباطن. ولعل كتاب "الوصايا" للمحاسبي خير دليل على ذلك، فقد تحدث في مقدمته عن الحيرة التي انتابته أثناء بحثه عن الحقيقة: "فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهج الواضح، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء(...) فقيض لي الرؤوف بعباده قوما وجدت فيهم دلائل التقوى وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا(...) فأصبحت راغبا في مذهبهم مقتبسا من فوائدهم، قابلا لآدابهم(...) ففتح الله لي علما"[110].

ويقول ابن خلكان مترجما للمحاسبي: "أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري الأصل الزاهد المشهور، أحد رجال الحقيقة، وهو ممن اجتمع له علم الظاهر والباطن، وله كتب في الزهد والأصول، وكتاب "الرعاية" له، وكان قد ورث من أبيه سبعين ألف درهم، فلم يأخذ منها شيئا، قيل لأن أباه كان يقول بالقدر، فرأى

---

109 - إبن حجر العسقلاني: "تهذيب التهذيب"، دار الفكر، ج 2، ص 116.

110 - الحارث المحاسبي : "الوصايا " دار الكتب العلمية بيروت، 1986، ص: 29.

من الورع أن لا يأخذ ميراثه(...) سئل عن العقل ما هو فقال. نور الغريزة مع التجارب يزيد ويقوى بالعلم والحلم"[111].

إن الحارث بن أسد المحاسبي رحمه الله، قد حلل النفس الإنسانية، ودرسها بدقة ووضوح، ووصفها في أعماله وكتبه ودروسه ونصائحه، وبين حال استوائها وحال انحرافها، وما يلزمها لتدوم على سوائها، وما هو علاجها إذا انحرفت لتبقى على فطرتها الربانية.

إنه رأس مدرسة، وإمام منهج، وقد خلَّد أعماله في مصنفات كثيرة حظيت بالقبول، وتداولها الأعلام الفحول، ونهل من معينها الواعون من أصحاب العقول، ككتابه "الرعاية لحقوق الله عز وجل"، و"رسالة المسترشدين"، و"آداب النفوس"، و"الوصايا"، و"المكاسب والمسائل في أعمال القلوب والجوارح"، و"معاتبة النفس"، وغيرها من المآثر الجليلة النافعة. وبهذه الآراء السديدة والمصنفات المفيدة، والتربية الرشيدة، بقي الحارث المحاسبي حاضراً في ضمير الأجيال.

إن أحكام الإسلام تتجه إلى تحقيق إسلام القلب لله، وتحرير النفس من أهوائها وتطويع مراداتها، لتكون طاعة وامتثالا واستسلاما تاما لله، وربط حركة الإنسان في كل اتجاهاتها على الأرض، بإفراد الله بالعبودية الحقة.

فعلى المكلف، يرى المحاسبي رحمه الله، أن يراقب نواياه، ويتفحص اختلاجات نفسه عند الإقدام على كل عمل يقصد به وجه الله تعالى، حذرا من أن ينحرف قصده إلى حظ من حظوظ النفس، فيرد عليه عمله، ويكون من الخاسرين. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله تبارك

---

[111] - إبن خلكان: "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان"، دار الفكر، ج2، ص 57-58.

وتعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه"[112]. ومراد الحديث أو معناه يفيد أن عمل المرائي باطل ولا ثواب فيه.

وحظوظ النفس "لا يعرفها إلا المعتنون بمعرفة الله ومراده، وحقه على عبده، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتها. ورب مطالب عالية لقوم من العباد، هي حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها، ويفرون إليه منها، ويرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم"[113].

ويبدو أن خير ما يستعان به على الوعي بحظوظ النفس وتخليص الإرادات والأعمال منها، هو اتهام النفس في كل حال حتى تثبت براءتها من انحراف القصد عن ابتغاء الله وطلب رضاه. ولقد أشار الإمام الشاطبي إلى أن عباد هذه الأمة، أخذوا أنفسهم بتخليص الأعمال عن شوائب الحظوظ، حتى عدوا ميل النفوس إلى بعض الأعمال الصالحة من جملة مكائدها، وأسسوها قاعدة بنوا عليها في تعارض الأعمال وتقديم بعضها على بعض، أن يقدموا ما لا حظ للنفس فيه أو ما ثقل عليها، حتى لا يكون لهم عمل إلا على مخالفة ميل النفس، وهم الحجة فيما انتحلوا لأن إجماعهم إجماع[114].

فتدخل حظوظ النفس في العمل يفرغه من مضمونه الأخلاقي الرفيع ويحيله إلى مظهر كاذب، يورث في النفس النفاق ويجعل أخلاقها زائغة مفتقرة إلى الصدق النفسي.

يقول الحارث المحاسبي في كتابه "الرعاية لحقوق الله"، "باب ما ينال به خوف وعيد الله عز وجل:

---

[112] - رواه مسلم.

[113] - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج 1، ص473–474.

[114] - "الموافقات"، تعليق محمد الخضر حسين، دار الفكر، د. ت، ج 1، ص134.

"قلت فبم ينال الخوف والرجاء؟

قال: تعظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد.

قلت: فبم ينال عظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد؟

قال: بالتخويف لشدة العذاب والترجي لعظيم الثواب.

قلت: وبم ينال التخويف؟ قال بالذكر والفكر في العاقبة، لأن الله عز وجل قد علم أن هذا العبد إذا غيب عنه ما قد خوفه ورجاه، لن يخاف ولن يرج إلا بالذكر والفكر، لأن الغيب لا يرى بالعين، وإنما يرى بالقلب في حقائق اليقين، فإذا احتجب العبد بالغفلة عن الآخرة(...) لم يخف ولم يرج إلا رجاء الإقرار وخوفه. وأما خوف ينغص عليه تعجيل لذته(...) إنما يجتلب بالذكر والفكر والتنبيه والتذكر لشدة غضب الله وأليم عذابه وليوم المعاد"[115].

التجأ المحاسبي في هذا الكتاب إلى طريقة الحوار حيث افترض مخاطبا وهو يجيب عن تساؤلاته، ولا ريب أن استعمال هذه الطريقة في معالجة بعض الموضوعات له دور إيجابي في تقريب المعاني إلى الأذهان وبلوغ الهدف المنشود. وبعد أن حاور المحاسبي مخاطبه في موضوع التقوى ومحاسبة النفس، ثم في التوبة وشروطها وما يبعث عليها، انتقل به إلى مجال الخوف والرجاء. فالنص الذي بين أيدينا وصف دقيق وتحليل مركز للطريقة التي بواسطتها يستشعر العبد الخوف والرجاء وتظل نفسه خاضعة لتجاذب قوتيهما.

إن المسلم في زمان كزماننا، يصعب عليه أن يتحقق بحالتي الخوف والرجاء، ويقتفي في ذلك أثر السلف الصالح. لكن الصعوبات مهما عظمت تتلاشى أمام الإرادة الصلبة والعزم الصادق. فممارسة التخويف عملية إرادية محضة، وهي من أنجع

---

[115] - الحارث بن أسد المحاسبي: "الرعاية لحقوق الله"، دار المعارف، د.ت، ص 61.

الوسائل في استحضار حالتي الخوف والرجاء، وتكون بواسطة الذكر والفكر. ولقد علم الله سبحانه وتعالى أن المسلم في سعيه الدنيوي وجريه وراء الرزق، يكون عرضة للغفلة ولقساوة القلب، لذا نبهه إلى الذكر وقراءة القرآن، وحثه على التأمل والتدبر، ليستيقظ ويزيل عن قلبه آثار تلك الغفلة، ويحيل القساوة ليونة وخشوعا.

وما أكثر الآيات والأحاديث الدالة على الذكر، والتلاوة، والتفكر في آيات الله وملكوته، فمن القرآن قوله تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار﴾[116]. وقوله عز وجل: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم لعلهم يتفكرون﴾[117]، إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الأحاديث قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها، مائة رحمة فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة، وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار"[118]. وفي حديث قدسي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقول الله تبارك وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة"[119].

وفي معرض الحديث عن أثر الذكر في تنوير القلب وصقل مرآته، يقول محمد بن قيم الجوزية رحمه الله: "وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين:

[116] - سورة آل عمران، الآيتان 190-191.

[117] - سورة النحل، الآية 44.

[118] - رواه البخاري.

[119] - متفق عليه.

بالاستغفار والذكر. فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكبا على قلبه، وصدأه بحسب غفلته؛ وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل(...) فإذا تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الران، فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقا ولا ينكر باطلا. وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى، فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره"[120].

إن المسلم الذي لا يخصص في حياته أوقاتا منتظمة لتلاوة القرآن وذكر الله والتفكر في آياته، مستحضرا بذلك رحمة خالقه لهو إنسان مغبون ومستهدف من الشيطان، لأن القلب الذي لا يخفق ولا يخشع، قلب لا نور فيه ومهدد بالموت. وكثيرا ما يستنكر المسلم قساوة قلبه دون أن يبحث عن العوامل والأسباب التي تكمن وراء ذلك، بل كثيرا ما يتجاهلها، أو يلجأ إلى عملية التسويف ويمني أو يعد نفسه بالإقبال على الذكر والاجتهاد في العبادة، حالما ينتهي من مشاغله الدنيوية! وقد نسي أن الموت قد يباغته وهو منهمك في أعماله ومشاريعه، أو قد يصاب بمرض عضال يحول بينه وبين تحقيق تلك الأمنية. قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا، أو غنى مطغيا، أو مرضا مفسدا، أو هرما مفندا، أو موتا مجهزا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر"[121].

ولابد، إن صدقت النية وخلص العمل، أن يثمر التخويف الخوف ويفضي إليه، فكم من عاص، وكم من مذنب غليظ القلب انزجرت نفسه وتابت إلى الله بعد أن عاهد خالقه على التوبة النصوح، وتدبر آيات الوعد والوعيد، وطاف بعقله في أرجائها، وذكر نفسه بمشاهد الحشر وأهوال القيامة، واستقر في مخيلته بعض

---

[120] - محمد بن قيم الجوزية: "الوابل الصيب من الكلم الطيب"، دار الكتب العلمية، ص 48.

[121] - رواه الترمذي.

ألوان عذاب جهنم، وصنوف من ملذات الجنة ونعيمها. وبعد توبته أنعم الله عليه بقلب واعظ وأذاقه حلاوة التقوى.

ويرى المحاسبي أن المسلم يملك التخويف، أي باستطاعته أن يلجأ إليه ويمارسه تكلفا، غير أنه لا يملك الخوف، وإنما يقذفه الحق سبحانه وتعالى في قلبه إن كان صادقا في تخويفه لنفسه. "إن الله عز وجل إنما خوفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا، ورجانا لنرجيها، والتخويف تكلف من العبد بمنة الله عز وجل وبفضله عليه، والخوف هائج منه لا يملكه(...) وقد يخطر الله عز وجل الخوف بقلب العبد المؤمن من غير تكلف، إذا أراد أن يتفضل عليه بذلك، وإن لم يخطره بباله لم يكن العبد عنده معذورا بترك تكلفه للتخويف، كما أمره أن يخوف نفسه، لأنه أمره بالفكرة في المعاد، وذلك هو التخويف والترجي، وتهدده وأوعده ليتفكر في ذلك فيخافه ويرجوه"[122].

ثم إن أهم ما يعين على تخويف النفس، ويعجل بقطف ثمار الخوف؛ ولوج باب معرفة الله وصفاته، لأن من عرف الله سبحانه وتأمل بعض أسمائه الحسنى؛ كالجبار والمتكبر والقهار والمنتقم والمذل، خافه بالضرورة، قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[123]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني أعلمكم بالله وأشدكم له خشية"[124].

وخوف العلماء أثبت في النفس وأشد أثرا في الجوارح، كما أنه يولد في القلب الذل والخشوع والاستكانة. ومن علامات رسوخه؛ الشعور به مع جريان الأنفاس، لكون صاحبه يعلم أن الله مقلب القلوب. وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمان عز وجل يقلبه كيف يشاء.

---

[122] - الحارث بن أسد المحاسبي: "الرعاية لحقوق الله"، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص 62.

[123] - سورة فاطر، الآية 28.

[124] - رواه البخاري.

ومن الطرق الناجعة كذلك في استشعار الخوف، الإكثار من ذكر الموت وزيارة قبور المسلمين. "قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات ومؤتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه. فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه رانُ قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب فإن مشاهدة المحتضرين وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول، لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير. وفي مشاهدة من احتضر وزيارة قبر من مات من المسلمين، معاينة ومشاهدة فلذلك كان أبلغ من الأول..."[125].ومما يحسن الإشارة إليه أن الإفراط في التخويف قد يأتي بنتيجة غير مرضية، ومن ثم ينبغي للمسلم أن يراعي التوازن بين حالتي الخوف والرجاء؛ لأن الإفراط في الخوف يؤدي إلى اليأس والقنوط، كما أن الإفراط في الرجاء يوقع في التهاون والكسل. وكان فيما قاله أبو بكر الصديق، وهو يودع الدنيا، لعمر بن الخطاب؛ "(...) ألم تر يا عمر أنها نزلت آية الرخاء مع آية الشدة، وآية الشدة مع آية الرخاء، ليكون المؤمن راغبا راهبا، لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقي فيها بيديه"[126]. ثم إن الخوف والرجاء متقابلان، أي أن الإنسان إذا تصور أحدهما تصور الآخر؛ فلا يتجرد أحدهما عن مقابله، فالذي يخاف شيئا يرجو في الوقت نفسه النجاة منه، والذي يرجو شيئا يخاف أيضا فواته، فالرجاء إذن، متصل بخوف خفي، كما أن الخوف متصل برجاء خفي.

---

[125] - القرطبي: "الجامع لأحكام القرآن"، دار الكتب العلمية، ج 10، ص 116.

[126] - محمد الخضري: "إتمام الوفا في سيرة الخلفاء"، دار الإيمان، بيروت، ص 64.

2- التصوف عند الشيخ أحمد بن عجيبة من خلال كتابه: "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"[127]

يعتبر الفقيه أحمد بن عجيبة الحسني، علما من أعلا م التصوف في شمال المغرب. ويكفي أن يطلع الباحث على تفسيره الموسوم ب"البحر المديد" وعلى كتابه: "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، ليتبين له مدى تبحر وتعمق هذا العلامة رحمه الله، في مختلف العلوم الشرعية، والفنون التي كانت سائدة في زمانه. ولقد فاق معاصريه في ميدان التصوف وعلوم القوم، خاصة الشيخ الفقيه المتصوف محمد الحراق.

ولقد أثار انتباهي منذ سنوات، عودة الفكر الصوفي إلى حلبة الثقافة في العالم الإسلامي، أو بتعبير أدق؛ هناك ما يمكن تسميته بـ "الصحوة الصوفية". ولعل الباحث في هذا الميدان قد يستغرب من كثرة الندوات والمؤتمرات التي عقدت، خلال العقدين الأخيرين، في بلدان إسلامية عدة، وأيضا في أوربا وأمريكا. كما أن الكتابات والتآليف في هذا الموضوع قد ازدادت وتضاعفت، وتم إحياء كثير من الطرق الصوفية، بل حصل تطوير وتجديد في الموسيقى الصوفية، وطفقت الحفلات الصوفية تقام في بعض المدن والمراكز الحضرية في العالم، وتضم ألوانا من الأديان والعقائد تجمعها "الوحدة الصوفية" !!.

لن أدخل بطبيعة الحال، في الحديث عن أسباب وعوامل ظهور هذه "الصحوة الصوفية"، وعن أهدافها، وغاياتها، وعن علاقتها بالوضع السياسي والثقافي العالمي، وبالعولمة والثقافة المعاصرة. هذا موضوع آخر وشأن آخر، ولعل الباحثين المتخصصين في التصوف المعاصر هم أعلم الناس به.

[127] - عنوان مداخلتي في الندوة الوطنية: "الفكر الصوفي بشمال المغرب: أعلام وقضايا"، والتي عقدت بكلية أصول الدين تطوان (12 أبريل 2017).

إن الحِكَم التي شرحها الشيخ أحمد بن عجيبة في كتابه "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"؛ عبارة عن واردات صوفية حررها وسطرها العلامة الصوفي ابن عطاء الله السكندري، وهي نصوص صوفية مركزة وموجزة، تدور معانيها حول تربية النفس وإصلاحها، وتزكيتها، وطريق السلوك الصوفي، وذكر لمقامات وأحوال المريد السالك، وأدبه مع الله وكيفية تحققه بالعبودية، إلى غير ذلك من المعاني والحقائق المتداولة في علوم القوم ومعارفهم.

ولقد حظيت هذه الواردات باهتمام كثير من الصوفية قديما وحديثا، واعتنى بعضهم بتدبرها وتحليلها وشرحها، ولعل أجود شروحها ما جادت به قريحة متصوفنا أحمد بن عجيبة. فقد جاء شرحه لها آية في الحسن والجمال، حيث استخرج لآلئها وصاغ معانيها في أسلوب جمع بين الرقة، والعذوبة، والجزالة، والمتانة.

ولقد قرأت كتاب "إيقاظ الهمم في شرح الحكم" هذا، في مطلع الثمانينيات من القرن الماضي الميلادي، عندما كنت متصوفا وطالبا جامعيا في الديار الفرنسية، واستفدت منه وتأثرت بمعانيه الغنية، وإشراقاته الروحية والإيمانية.

وإذا كانت عين الرضا وقتئذ، لا تقع على بعض الانزلاقات والشطحات الواردة في نصوص ابن عطاء الله، وفي شرح أحمد بن عجيبة رحمهما الله، لكونها كانت محجوبة بحجاب التصوف. فإن عين النقد، بعد كشف الحجاب، قد استطاعت رصد بعض الأخطاء، وكل ابن آدم خطاء، وكل واحد يؤخذ من قوله ويرد، إلا صاحب هذا القبر، كما قال إمامنا مالك رحمه الله، وهو يشير الى قبر نبينا صلوات الله وسلامه عليه.

وأستهل قراءتي النقدية لمتن كتاب "إيقاظ الهمم في شرح الحكم" بما يلي: قال العلامة الصوفي أحمد بن عجيبة في مقدمة الكتاب:

"وأما واضع هذا العلم، فهو النبي صلى الله عليه وسلم علمه الله له بالوحي والإلهام. فنزل جبريل عليه السلام أولاً بالشريعة. فلما تقررت نزل ثانياً بالحقيقة.

فخص بها بعضاً دون بعض. وأول من تكلم فيه وأظهره؛ سيدنا على كرم الله وجهه، وأخذه عنه الحسن البصري(...) وأخذه عن الحسن حبيب العجمي، وأخذه عن حبيب أبو سليمان داوود الطائي(...) وأخذه عن داوود أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي رضي الله عنه، وأخذه عن معروف الكرخي أبو الحسن سري بن مغلس السقطي، توفي سنة إحدى وخمسين ومائة. وأخذه عن السري إمام هذه الطريقة ومظهر أعلام الحقيقة، أبو القاسم محمد بن الجنيد(...) ثم انتشر التصوف في أصحابه وهلم جرا، ولا ينقطع حتى ينقطع الدين.

ومن رواية أخرى، أخذه عن سيدنا علي رضي الله عنه أول الأقطاب سيدنا الحسن ولده، ثم عنه أبو محمد جابر، ثم القطب سعيد الغزواني، ثم القطب فتح السعود (...) ثم القطب الكبير مولاى عبد السلام بن مشيش، ثم القطب الشهير أبو الحسن الشاذلي، ثم خليفته أبو العباس المرسى، ثم العارف الكبير سيدي أحمد بن عطاء الله ثم(...) ثم العارف سيدي العربي بن عبد الله، ثم العارف الكبير سيدي على بن عبد الرحمن العمراني الحسني، ثم العارف الشهير شيخ المشايخ سيدي ومولاي العربي الدرقاوي الحسني، ثم العارف الكامل المحقق الواصل شيخنا سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسني، ثم عبد ربه وأقل عبيده أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني، ثم عنه خلق كثير والمنة لله العلي الكبير. وأما إسمه فهو علم التصوف واختلف في اشتقاقه على أقوال كثيرة"[128].

أي افتراء هذا؟ وأي كذب وبهتان؟ متى كان النبي صلى الله عليه وسلم متصوفا؟ وما هي الأحاديث التي تشير إلى هذا الباطل؟ ومن هم الصحابة الذين مارسوا التصوف؟ وما هي الطريقة الصوفية التي اشتهرت عندهم؟ أين الأدلة على هذه الدعوى؟ أين الحجج العقلية والنقلية؟

---

[128] - أحمد بن عجيبة: "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، ص6

إن قوله: "فنزل جبريل عليه السلام أولاً بالشريعة، فلما تقررت نزل ثانياً بالحقيقة، فخص بها بعضاً دون بعض"، يعني أن الدين ينقسم إلى شريعة وحقيقة، أي؛ كما يقولون، ظاهر وباطن. وبعبارة أخرى؛ فإن الشريعة تمثل الهيكل، والحقيقة تمثل الروح. إن جبريل نزل في البداية بالهيكل، فلما تقرر، نزل بالروح أو الحقيقة. فخص بها بعضا دون بعض !! أي أن الصحابة فريقان؛ فريق يعلم الشريعة ولا علم له بالحقيقة، وفريق يعلمهما كليهما !!

قال الشيخ الصوفي العلامة أحمد بن عطاء الله السكندري: "إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية"؛ يقصد بذلك أن من أقامه الله تعالى في نسيج العلائق، والتعامل مع الخلائق، لا يجوز له أن يتشوف إلى مقام التجريد ولا يطمع فيه".

يقول الشارح أحمد بن عجيبة:

"قلت التجريد عند الصوفية على ثلاثة أقسام: تجرد الظاهر فقط، أو الباطن فقط، أو هما معاً. فتجريد الظاهر هو ترك الأسباب الدنيوية، وخرق العوائد الجسمانية. والتجريد الباطني هو ترك العلائق النفسانية، والعوائق الوهمية. وتجريدهما معاً هو ترك العلائق الباطنية والعوائد الجسمانية. أو تقول تجريد الظاهر هو ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله. وتجريد الباطن هو ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله. وتجريدهما هو إفراد القلب والقالب لله. والتجريد الكامل في الظاهر هو ترك الأسباب، وتعرية البدن من معتاد الثياب. وفي الباطن هو تجريد القلب من كل وصف ذميم. وتحليته بكل وصف كريم وهو أي التجريد الكامل"[129].

[129] - أحمد بن عجيبة: "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، ص 13.

وقال رحمه الله: "ومن آداب المتسبب، إقامته فيما أقامه الحق تعالى فيه من فعل الأسباب، حتى يكون الحق تعالى هو الذي ينقله منها على لسان شيخه إن كان، أو بإشارة واضحة(...) فحينئذ ينتقل للتجريد. فإرادته التجريد مع إقامته تعالى له في الأسباب، من الشهوة الخفية. لأن النفس قد تقصد بذلك الراحة، ولم يكن لها من اليقين ما تحمل به مشاق الفاقة. فإذا نزلت بها الفاقة، تزلزلت واضطربت ورجعت إلى الأسباب، فيكون أقبح لها من الإقامة فيها. فهذا وجه كونها شهوة. وإنما كانت خفية؛ لأنها في الظاهر أظهرت الانقطاع والتبتل، وهو مقام شريف وحال منيف، لكنها في الباطن أخفت حظها من قصد الراحة أو الكرامة أو الولاية، أو غير ذلك من الحظوظ، ولم تقصد تحقيق العبودية وتربية اليقين. وفاتها أيضاً الأدب مع الحق حيث أرادت الخروج بنفسها، ولم تصبر حتى يؤذن لها. وعلامة إقامتها فيها دوامها له مع حصول النتائج، وعدم العوائق القاطعة له عن الدين، وحصول الكفاية بحيث إذا تركها حصل له التشوف إلى الخلق والاهتمام بالرزق. فإذا انخرمت هذه الشروط انتقل إلى التجريد"[130].

وقال في السياق نفسه: "وأما المتجرد إذا أراد الرجوع إلى الأسباب من غير إذن صريح، فهو انحطاط من الهمة العلية إلى الهمة الدنية، أو سقوط من الولاية الكبرى إلى الولاية الصغرى. قال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه: قال لي شيخي سيدي العربي: يا ولدي لو رأيت شيئاً أعلى من التجريد وأقرب وأنفع لأخبرتك به ولكن هو عند أهل هذه الطريقة بمنزلة الإكسير الذي قيراط منه يغلب ما بين الخافقين ذهبا كذلك التجريد في هذه الطريق(...) واعلم أن المتسبب والمتجرد عاملان لله، إذ كل واحد منهما حصل له صدق التوجه إلى الله تعالى حتى قال بعضهم: مثل المتجرد والمتسبب كعبدين للملك قال لأحدهما اعمل وكل، وقال للآخر إلزم أنت حضرتي وأنا

[130] - أحمد بن عجيبة: "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، ص 14.

أقوم لك بقسمتي. ولكن صدق التوجه في المتجرد أقوى لقلة عوائقه وقطع علائقه كما هو معلوم."[131].

يشير أحمد بن عجيبة، رحمه الله، إلى أن المريد عندما تتوق نفسه إلى التجريد وقد أقامه الله في الأسباب، يكون مدفوعا بالشهوة الخفية، وإذا سلك عكس ذلك أي؛ إذا رغب في ممارسة الأسباب وقد أقامه الله في التجريد، فإنه بذلك ينحط عن الهمة العلية.

إن شرح الصوفي أحمد بن عجيبة لوارد بن عطاء الله المتعلق بالتجريد والأسباب، يفيد أن المريد يحرم عليه مغادرة مقام التجريد والحلول في مقام الأسباب دون إذن معتبر أو رخصة من الشيخ. والعكس صحيح أي مغادرة مقام الأسباب والنزول في مقام التجريد.

والتجريد في اصطلاح الصوفية أيضا؛ اعتزالُ الخلق وتركُ العلائق والعوائق، والانفصال عن الذات. والتجريد؛ قطعُ العلائق الظاهرية، والتفريد؛ قطع العاقات الباطنية. ومعناه كذلك؛ أن العبد يتجّردَ عن الأَغراض فيما يفعله، لا يأتي بما يأتي به نظراً إلى الأغراض في الدنيا والآخرة، بل ما كوشف به من حق العظمة، يؤدّية حسب جهده عبوديةً و انقياداً.

يبدو من كلام الشارح أحمد بن عجيبة، أن هناك نوعا من الجبرية والوصاية السلوكية، تلزم المريد بالمكوث في عالم التجريد أو الأسباب، إلى أن يأذن له شيخه بالانتقال والتحول إلى أحدهما؛ أي إلى أحد العالمين !! لكن يا ترى كيف تستقيم عبادة هذا المريد ويستقيم سلوكه، وقد قيد نفسه وسلم مفاتيح حريته وإرادته لشيخه؟

---

[131] - أحمد بن عجيبة: "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، ص 15.

إن المريد بناء على هذا المنطق الصوفي، يبدو كأنه آلة مسيرة وخاضعة لأوامر صاحبها. لكن إذا كان المسلم يشعر من تلقاء نفسه بميل نحو التجريد، أو نحو تعاطي الأسباب، أليس من المفروض أن يكون هو المقرر والمريد؟. لماذا تلزمه الرخصة أو الإشارة من الشيخ؟. ثم ألا تقدح هذه الصورة من صور علاقة المريد بشيخه، في مبدإ التكليف على العقل، واستقلال الذات وحرية الإرادة؟. فأين مقصد حفظ العقل الذي هو مناط التكليف؟.

ولعل الفصل أو الحسم في هذه المسألة الدقيقة، يرجع إلى قلب المسلم وحاله الإيماني ووعيه الديني؛ أي أن المسلم تختلف أحواله النفسية فيما يخص الأخذ بالتجريد أو العمل بالأسباب، حسب حاله الإيماني وتفقهه في الدين. فقد يقوى في باطنه عامل التوكل على الله، مما قد يزهده في الأخذ بالأسباب، وقد يضعف هذا العامل في قلبه، فيتعلق بالأسباب وحدها. والأولى أن يجمع بينهما، وهو روح العقل والنقل وسبيل السلف الصالح.

ويقول ابن عطاء الله السكندري: "لا تطلب منه أن يُخرجك من حالة ليستعملك فيما سواها، فلو أرادك لاستعملك من غير إخراج".

قال الشارح أحمد بن عجيبة: "قلت من آداب العارف الاكتفاء بعلم الله والاستغناء به عما سواه. فإذا أقامه الله تعالى في حالة من الأحوال، فلا يستحقرها ويطلب الخروج منها إلى حالة أخرى. فلو أراد الحق تعالى أن يخرجه من تلك الحالة ويستعمله فيما سواها، لاستعمله من غير أن يطلب منه أن يخرجه، بل يمكث على ما أقامه فيه الحق تعالى، حتى يكون هو الذي يتولى إخراجه كما تولى إدخاله؛ "وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق". فالمدخل الصدق هو أن تدخل فيه بالله، والمخرج الصدق هو أن تخرج منه بالله، وهذا هو الفهم عن الله، وهو من علامة تحقق المعرفة بالله. فالعارف بالله إذا كان أعزب لا يتمنى الزواج (!!). وإذا كان

متزوجاً لا يتمنى الفراق. وإذا كان فقيراً لا يتمنى الغنى(!!). وإذا كان غنياً لا يتمنى الفقر. وإذا كان صحيحاً لا يتمنى المرض. وإذا كان مريضاً لا يتمنى الصحة (!!). وإذا كان عزيزاً لا يتمنى الذل. وإذا كان ذليلاً لا يتمنى العز (!!). وإذا كان مقبوضاً لا يتمنى البسط. وإذا كان مبسوطاً لا يتمنى القبض. وإذا كان قوياً لا يتمنى الضعف. وإذا كان ضعيفاً لا يتمنى القوة (!!). وإذا كان مقيماً لا يتمنى السفر. وإذا كان مسافرا لا يتمنى الإقامة (!!)، وهكذا باقي الأحوال ينظر ما يفعل الله به، ولا ينظر ما يفعل بنفسه لتحقق زواله، بل يكون كالميت بين يدي الغاسل"[132].

إن المقصود فعلا من علامات التعجب التي وضعتها بين الأقواس، هو التعجب والاستغراب من هذه الأفكار والمواقف الصوفية المتناقضة مع العقل ونصوص النقل. وهذا غيض من فيض مما حصل لكثير من الصوفية عندما يهيمون في شطحاتهم الفكرية، أو يستسلمون لكل الفتوحات، والكشوفات، والإلهامات المعرفية، دون عرضها على الوحي القرآني ووزنها بميزان الكتاب والسنة الصحيحة.

وأختم بهذا الوارد العطائي: "طلبك منه اتهام له. وطلبك له غيبة منك عنه. وطلبك لغيره لقلة حيائك منه. وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه".

"ثم ذكر الأدب الخامس وهو ترك الطلب من حيث هو. قال فيما يأتي: ربما دلهم الأدب على ترك الطلب فقال: طلبك منه اتهام له، وطلبك له غيبة منك عنه، وطلبك لغيره لقلة حيائك منه، وطلبك من غيره لوجود بعدك عنه. قلت طلبك منه يكون بالتضرع والابتهال، وطلبك له يكون بالبحث والاستدلال، وطلبك لغيره يكون بالتعرف والإقبال، وطلبك من غيره يكون بالتملق والسؤال. وحاصلها أربعة. أما طلبك منه فلوجود تهمتك له، لأنك إنما طلبته مخافة أن يهملك أو يغفل عنك. فإنما ينبه من

---

[132] - أحمد بن عجيبة: "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، ص 50.

يجوز منه الإغفاء، وإنما يذكر من يمكن منه الإهمال. ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾.

وقال صلى الله عليه وسلم "من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين".

فالسكون تحت مجاري الأقدار، أفضل عند العارفين من التضرع والابتهال. وكان شيخ شيوخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول: الفقير الصادق لم تبق له حالة يطلبها، وإن كان ولا بد من الطلب فليطلب المعرفة . قلت وإذا ورد منهم الدعاء فإنما هو عبودية وحكمة لا طلباً للقسمة، إذ ما قسم لك واصل إليك . ولو سألته أن يمنعكه ما أجابك. وفي المسألة خلاف بين الصوفية هل السكوت أولى أو الدعاء؟ والتحقيق أن ينظر ما يتجلى فيه وينشرح له الصدر فهو المراد منه . وأما طلبك له فهو دليل على غيبتك عنه بوجود نفسك، فلو حضر قلبك وغبت عن نفسك ووهمك لما وجدت غيره(...).

وأما طلبك لغيره أي لمعرفة غيره، فلقلة حيائك منه وعدم أنسك به. أما وجه قلة حيائك منه؛ فلأنه يناديك إلى الحضرة وأنت تفر منه إلى الغفلة(...). وأما وجه عدم أنسك به؛ فلأنك لو أنست به لاستوحشت من خلقه. فلا يتصور منك طلب معرفتهم وأنت تفر منهم. فإذا آنسك به أوحشك من خلقه وبالعكس. والاستئناس بالناس من علامة الإفلاس(...). وأما طلبك من غيره فلوجود بعدك عنه، إذ لو تحققت بقربه منك وهو كريم، ما احتجت إلى سؤال غيره وهو لئيم"[133] .

لا يخفى على ذي عقل وبصيرة، أن الطلب من الله من تمام العبودية والافتقار والأدب مع الله، وأن ترك الطلب والدعاء، دليل كبر العبد وجهله بربه. والدعاء شأنه عند الله كبير، وأجره عظيم، ومعناه إظهار الافتقار لله تعالى، والتبرؤ من الحَوْل

---

[133] - أحمد بن عجيبة: "إيقاظ الهمم في شرح الحكم"، ص 53-54.

والقوة، كما أن فيه معنى الثناء على الله الغني القادر، بكل المحامد، ونسبة الجود والكرم المطلق إليه سبحانه، فإنه هو الرزاق الكريم، وقد جاءت النصوص الشرعية مبينة أمر الله، عز وجل، لعباده بالدعاء، وعِظم شأنه وفضله، فهو من أعظم العبادات بل هو العبادة نفسها، فعن النعمان بن بشير، رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الدعاء هو العبادة"، ثم قرأ: "﴿ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾"[134]. قال ابن كثير: "وقوله: ﴿إن الذين يستكبرون عن عبادتي﴾ أي: عن دعائي وتوحيدي، سيدخلون جهنم داخرين؛ أي: صاغرين حقيرين".

والدعاء من أعظم أسباب دفع البلاء قبل نزوله، ورفعه بعد نزوله، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إِنَّ الدعاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نزلَ ومِمَّا لمْ يَنْزِلْ، فَعليكُمْ عِبادَ اللهِ بالدعاء"[135]. كما أنه سبب لانشراح الصدر وتفريج الهم وزوال الغم، وهو مفزع المظلومين وملجأ المستضعفين.

وقال العلامة ابن قيم الجوزية في كتابه "الداء والدواء": "والأدعية والتعوذات بمنزلة السلاح، والسلاح بضاربه، لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحاً تامًّا لا آفة به، والساعد ساعد قوي، والمانع مفقود، حصلت به النكاية في العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير"[136].

وأعجز الناس من عجز وترك الدعاء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أعجز الناس من عجز عن الدعاء"[137].

---

[134] - رواه الترمذي.

[135] - رواه الطبراني وحسنه الألباني.

[136] - محمد بن قيم الجوزية: "الجواب الكافي لمن سأل عن السؤال الشافي"، دار المعرفة، 1997، ص 26.

[137] - رواه الطبراني.

فينبغي للمسلم أن يواظب على الدعاء ويكثر منه، و لا يتساهل فيه، أو يتغافل ويتكاسل عنه، فالله عز وجل يغضب على عبده الذي لا يدعوه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه: "من لم يسألِ اللهَ يغضب عليه"[138].

إن انتقاداتي وانتقادات غيري من الباحثين والدارسين للحكم العطائية، لا ينتقص من قدرها وقيمتها الأخلاقية والسلوكية المتينة. وإنها حقا لنصوص أخلاقية بناءة ومتينة، يستفاد منها على مر العصور، فهي نضاحة بالحكمة والأفكار النفسية والتربوية العميقة، إلا أنها معرضة في بعض جوانبها وجزئياتها للنقد والتقويم، شأنها في ذلك شأن مجموع نصوص التراث أو الفكر الإسلامي.

إن التصوف في الحضارة الإسلامية بدأ سلوكيا وتدحرج عقديا وفلسفيا، وانتهى طرقيا. لقد أصابه الداء الذي أصاب واعترى كثيرا من العلوم والمعارف الإسلامية، من حيث أنها نشأت قوية سليمة ومتوهجة، ثم تولدت فيها عوامل داخلية وبنيوية، جعلتها تزيغ أو تميل عن الخط الأساسي والمبادئ والأهداف.

وهذا ما حصل مثلا لعلم الكلام الذي نشأ مدافعا عن العقيدة الإسلامية، ثم بعد ذلك تفلسف وخاض في موضوعات دخيلة.

إن التصوف السلوكي الأول يعتبر مدرسة في التربية والأخلاق وتزكية النفس. فمن أراد أن يستفيد من التصوف فليرجع إلى نسخته السلوكية الأخلاقية الأولى، التي يمثلها الحارث بن أسد المحاسبي ومن على شاكلته ومنهجه، ولينبذ ما سواها من النسخ المتأخرة لا سيما النسخ الطرقية.

---

[138] - رواه الترمذي وحسنه الألباني.

3- التصوف الفلسفي في شعر الشيخ محمد الحراق

يعتبر الشيخ محمد الحراق المتوفى سنة 1285هـ، علما بارزا من أعلام الفقه والتصوف بمدينة تطوان شمال المغرب. وكان ينتمي إلى المدرسة الصوفية الدرقاوية الشاذلية. كما يعد مؤسس الطريقة الصوفية الحراقية القائمة على مبادئ الذكر والمذاكرة والعلم والمحبة.

وقد اشتهر هذا الشيخ الصوفي بتائيته التي نسجها على منوال الصوفي عمر بن الفارض، كما حرر رسائل صوفية قصيرة بين فيها، وهو يخاطب المريدين، مبادئ طريقته الصوفية وأدواتها المنهجية في التربية والسلوك.

كادت شمس الطريقة الدرقاوية تغيب في شمال المغرب، لولا ظهور الفقيه المتصوف الشيخ محمد الحراق، الذي أخذ على عاتقه القيام بمهمة نفخ الروح فيها. ولم يُخْفِ الصوفي العربي الدرقاوي، مؤسس الطريقة، إعجابه بالشاب محمد الحراق عندما التقى به في إحدى قبائل غمارة، حيث أسند إليه هذه الوظيفة، بعد أن لم يتوفق في القيام بها، تلميذه ومعاصرهما الشيخ أحمد بن عجيبة.

لكن لماذا انجذب هذا الشاب اليافع إلى مذهب القوم وأعرض عن "علوم الظاهر" وهو الفقيه العالم؟ ولا أدل على علو مكانته في علوم الشريعة واللغة، من كون زملائه ومعاصريه من فقهاء القرويين كانوا لا يستحيون من إبداء قلقهم لوجوده بين أظهرهم، خصوصا لأنه مجرد غريب قدم من مدينة شفشاون كي يطلب العلم بفاس. لقد حز في نفوسهم تفوقه عليهم، فلم يهدأ لهم البال حتى أشاروا على السلطان مولاي سليمان ببعثه إلى تطوان، وتقليده منصب الإشراف الديني والعلمي على المسجد الأعظم الذي بناه بهذه المدينة سنة 1223 هـ.

لم تمر ست سنوات على قدومه إلى تطوان، حتى كان الحسد قد تمكن من قلوب بعض علمائها الذين دبروا له مكيدة شنعاء:

"فلما كان يوم الجمعة والوقت وقت الخطبة، دخل الإمام الحراق إلى المقصورة ليدخل منها إلى المسجد على العادة، ولم يغلقها من خلفه، وقد أرصد له خصومه متتبعين لحركته، بعضهم خارج المسجد وبعضهم داخله. فلما رأى المراقبون من الداخل أن الإمام قد أخذ مستقره من المنبر، أشاروا إلى مساعديهم، فأمروا امرأة من الفاجرات، كانوا قد زينوها واختاروها من الجميلات، بأن تدخل إلى المقصورة من الباب الذي بقي مفتوحا، ففعلت ما أمروها به، ثم وقفوا على جانب أبواب المسجد يجمعون الناس، فإذ ذاك خرجت المرأة كأنها تتسلل، لا علم لها بما وراء الباب، فتهامس الناس في الآذان"[139].

وهكذا لم يتردد قائد تطوان آنذاك في فصل محمد الحراق عن مهامه، وذلك بعد أن قدمت إليه شهادة موقعة من قبل مائة وأربعة وأربعين رجلا يرأسهم القاضي عبد الرحمن الحايك الخصم الأكبر للخطيب والعلامة محمد الحراق.

كانت هذه الفاجعة هي السبب في اختياره طريق القوم وولوج باب التصوف. وتثبت الدراسات الصوفية أن أغلب أقطاب التصوف من أمثال: ذي النون المصري، البسطامي، الحلاج، الغزالي، ابن الفارض، وغيرهم، كانوا يشعرون قبيل تصوفهم بنوع من الأزمة النفسية أو الشك المعرفي.

وقبل الشروع في مناقشة الجانب الفلسفي في تصوف محمد الحراق، لا بأس من إطلاع القارئ على نماذج من شعره في هذا المجال:

قال شاعرنا المتصوف في قصيدته "التائية":

---

[139] - التهامي الوزاني: "الزاوية"، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، د.ت ص 156.

"أتطلب ليلى وهي فيك تجلتِ

وتحسبها غيراً وغيرُك ليستِ

فذا بَلَهٌ في ملة الحب ظاهر

فكن فطنا فالغير عين القطيعة

....

كلفت بها حتى فنيت بحبها

فلو أقسمت أني إياها لبَرَّت

ذُهِلتُ بها عني فلم أَرَ غيرها

وهمت بها وَجْداً بأول نظرة

ولم أزل مستطلعا شمس وجهها

إلى أن تراءت من مطالع صورتي

....

وأصبحت معشوقا وقد كنت عاشقا

لأن ظهوري صار أعظم زلتي

....

ولي مقعد التنزيه عن كل حادث

ولي حضرة التجريد عن كل شركة

جلست بكرسي التفرد فاستوى

من الله عرش لي على ماء قدرتي"

وقال في قصيدة أخرى:

"كنت ما بيني وبيني

غائبا عني بأيني

والذي أهواه حقا

لم يزل ذاتي وعيني

فانظروني تبصروه

إنه والله إني"

في الأبيات الثلاثة الأولى، يتوجه الشيخ الشاعر محمد الحراق باللوم والعتاب لمن يُتعب نفسه في طلب ليلى التي يقصد بها الحضرة الإلهية أو الله، بينما هي قد تجلت في ذاته وليست شيئا آخر سوى هذه الذات المريدة التي ما فتئت تطلب وتبحث. ومن أتم البله والحمق في مذهب الحب الإلهي، أن يُعتقد مثل هذا الاعتقاد؛ إذ ما تم غيرك، لأن افتراض وجود الغير عين القطيعة، أي أساس البعد والفرق الذي هو ضد الجمع، كما هو في تعبير المتصوفة. وفي البيت الثالث، يصرح بأنه فني من شدة حبه لها، وكلفه بها، وأنه وإياها ذاتا واحدة.

ويتابع الشيخ محمد الحراق في الأبيات الثلاثة التالية، وصفه لحالة الذهول، أي الدهشة التي أصابته وهو هائم في رؤية ليلى، إلى أن تجلت في صورته، وحينئذ غدا الشيخ موضوعَ العشق بعد أن كان عاشقا.

وتبلغ الشطحات الصوفية مداها عندما ينزه نفسه في البيتين الأخيرين من "تائيته"، عن صفة الحدوث، بمعنى أنه قديم وليس مخلوقا باعتبار أن كل مخلوق حادث، كما أنه مجرد ومنزه عن كل شريك، وأنه قد جلس على كرسي التفرد واستوى على عرش القدرة؟

بعد هذا الشرح الخاطف والموجز للقطع الشعرية الواردة في "تائية" الحراق، تجدر الإشارة إلى أن معاني هذه الأبيات الستة لها شبه بمعاني نظريتي الاتحاد والحلول الصوفيتين. إن شاعرنا المتصوف من خلال خطابه الموجه إلى طالب ليلى؛ أي الحضرة الإلهية، ومن خلال وصفه لحالة الفناء والذهول، وتجلي الذات الإلهية في صورته، لا يدع لنا أدنى ريب في القول بأنه، خلال أحواله الوجدانية ومعاناته السُّكْرَ الصوفي كان يحوم حول النظريتين الصوفيتين المشار إليهما وحاشاه رحمه الله أن يعتقد فيهما في حال الصحو. ومما يعضد هذا التأويل ويشهد له إضافة إلى ما ورد في "التائية" قوله:

والذي أهواه حقا

لم يزل ذاتي وعيني

فانظروني تبصروه

إنه والله إني (!!)

لقد كان الحلول والاتحاد اللذان تمثلا في كثير من شطحات الصوفية، من أبرز أدوار الكمال عند صوفية القرنين الثالث والرابع، ولم يكن عليهم بعد أن بلغوا هذه المرتبة إلا أن يتعاهدوا تعاليم الصوفية ويعملوا على تطويرها وتنميتها، لا سيما أنهم كانوا مطلعين على جوانب من الثقافات والفلسفات التي انتشرت بين المسلمين، بواسطة ما ترجم من آثار اليونانيين والفرس والصينيين، وغيرهم من الأمم السابقة. لقد كان لديهم ما يعينهم على التوسع في تلك الأفكار ونشرها وإيجاد المبررات لها.

ولم يكن القول بالحلول والاتحاد وقفا على بعض الصوفية، بل سبقهم إلى الإيمان به عدد كبير من أقطاب الشيعة الروافض، كما نجد جذور ذلك في عقيدة النصارى القائلين بحلول الله في المسيح عليه السلام، أو اللاهوت في الناسوت،

والسبئية القائلين بحلول روح الله في علي كرم الله وجهه. وقد تجلت هذه النظرية بوضوح عند الحسين بن منصور الحلاج المتصوف المصلوب، الذي تأثر ببعض الاتجاهات الغنوصية، خاصة منها ذات الطابع المسيحي والقائلة بوجود طبيعتين في شخص المسيح؛ الطبيعة اللاهوتية والطبيعة الناسوتية؛ يقول الصوفي الحلاج:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتني أبصرته

وإذا أبصرته أبصرتنا

ومما لاشك فيه أن نظرية الحلول والاتحاد التي ينطق بها شعر محمد الحراق، لم تظهر عنده إلا بعد قطعها لمرحلة تاريخية طويلة تبتدئ، بالنسبة لحوض البحر المتوسط، بالقرنين الأولين للعهد الميلادي، حيث كان للفلسفة اليد الطولى في تطوير هذه النظرية التي يُرجَّح أن يكون مهدها الأول هو الشرق الأقصى ؛الصين والهند. وجاء في كتاب "خريف الفكر اليوناني": "يقول أفلوطين: يجب علي أن أدخل في نفسي ومن هنا استيقظ، وبهذه اليقظة اتحد بالله، ويقول أيضا: يجب علي أن أحجب نفسي عن النور الخارجي لكي أحيا وحدي في النور الباطني"[140].

ثم إن فكرة التجرد عن الدنيا والإعراض عن ملذاتها المباحة، وإماتة شهوات النفس وغرائزها الفطرية، أملا في النجاة وطلبا لمعانقة الحقيقة الإلهية، والذوبان فيها، والاتحاد بها، ترجع في أصولها إلى مفهوم الخلاص الذي تسرب إلى المسيحية عن طريق الفلسفة اليونانية، على يد المفكر والفيلسوف اليهودي الاسكندري فيلون:

---

[140] - عبد الرحمن بدوي: "خريف الفكر اليوناني"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1970، ص 114.

"إن الغاية من الفلسفة عند فيلون هي أن تكون مؤدية إلى الخلاص من الخطيئة، وإذا كانت تلك غاية الفلسفة، فعليها أن تبين لنا الطريق المؤدي إلى هذا الخلاص، والخلاص هنا يجب أن يفهم بالمعنى الديني، أعني تخلص المتناهي من حالة التناهي للوصول إلى اللامتناهي، وهو ما سيعبر عنه في المسيحية فيما بعد بفكرة الخلاص. وهذا الطريق هو إمكان عودة الفاني إلى حالة اللامتناهي، ويمكن أن يسلك في مرحلتين، مرحلة الشك ثم مرحلة التصوف....فحينما يبحث الإنسان في ذاته يجد أنه قابل لكثير من الأغلاط، فالحواس تخدع الإنسان، و المعرفة اليقينية لا سبيل إلى الوصول إليها، وبإيجاز؛ المعرفة غير ممكنة. وكل ما نصل إليه هو اقتناعنا بأن اللذات الإنسانية فانية متناهية، كلها نقص وشر. وإن العالم زائل وفان، فيدفعنا هذا إلى البحث عن وسيلة للخلاص، وتحصيل الخلاص إنما يتم بأن يتجه الإنسان إلى التشبه بالله، عبر الفناء فيه، وهذا الفناء يتم عن طريق التصوف، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بإدراكه مباشرة ودون حاجة إلى وسائط، ولهذا نجد فيلون لا يعطي أدنى قيمة للمعرفة ذات الوسائط، وإنما يريد أن يدرك الله مباشرة، وهذا الإدراك لله مباشرة إنما يتم عن طريق التجربة الصوفية، ففي حالة الوجد الصوفي يستطيع المرء أن يعاين الله"[141].

وخلاصة القول: إن النفس عند فيتاغورس، وأفلاطون، وفيلون، وأفلوطين، كانت قبل اتصالها بالبدن في الملأ الأعلى مع الله، ثم هبطت إلى هذا العالم، ويجب عليها أن تتحرر من الشهوات، وتدمن التأمل في الله، ليتم لها الاتصال بالعلة الأولى وهي الله، وحينئذ ستشعر بالسعادة لاتحادها به.

---

[141] - عبد الرحمن بدوي: "خريف الفكر اليوناني"، ص 104-105.

ويرى هؤلاء أن الغاية من الفلسفة: هي الخلاص من الآثام، بمجاهدة النفس وقمع شهواتها، تم الاتصال بالله والاتحاد معه، وهذا هو الفناء المطلق الذي تصبو إليه روح المتصوف المتفلسف.

ومما يدل على تأثير روح الفلسفة اليونانية في التصوف الإسلامي، ذلك الانقلاب المفاجئ الذي أصاب حقيقة هذا التصوف، والمتمثل في انتقاله من المستوى العملي إلى المستوى النظري.

فإذا كان المتصوفة الأوائل يعرفون بالزهاد والعباد والنساك، فإن خلفهم من متصوفة القرنين الثالث والرابع وما بعدهما، مثل جلال الدين الرومي، والحلاج، والبسطامي، وابن عربي، والسهروردي، وابن سبعين، وابن الفارض، وغيرهم، عملوا على بلورة نظريات فلسفية صوفية شاملة. ومن هنا فقد استلهموا الفلسفة الميتافيزيقية واستعانوا بها في الدفاع عن قولهم بوحدة الوجود، أو الاتحاد والحلول.

ولعل من باب الإنصاف والنزاهة العلمية، أن يلتمس الباحث العذر للشيخ محمد الحراق ولأمثاله من الصوفية، الذين نطقوا بمثل هذه الشطحات والخيالات ودونوها. ولولا وطأة الأحوال الروحية، وسيطرة العناصر الوجدانية والذوقية، والخواطر النفسية المضطربة، بالإضافة إلى تأثير الفلسفات الفيضية والإشراقية، لما جرت على ألسنتهم تلك الشطحات والعبارات الزائغة أو الطائشة. ويا ليتهم لم يدونوها في أشعارهم ورسائلهم درءا للفتنة، حيث إنهم بتسطيرهم لها وإخراجها للناس، أوغروا عليهم صدور بعض الفقهاء وكثير من العوام، الذين رموهم بالزيغ والانحراف العقدي.

الفصل الرابع

قضايا وحقائق صوفية

1- عبادة النفس عند غلاة الصوفية

2- "من لا شيخ له فالشيطان شيخه"

3- معشر الصوفية الأفاضل

4- محيي الدين بن عربي والموسيقى الصوفية والعولمة

5- وجود شيخ التربية الصوفية زمن الصحابة والتابعين: دعوى باطلة

6- الصوفية وأمريكا

7- جواب عن أسئلة تركية في التصوف

8- علاقة التحليل النفسي الفرويدي بالتصوف اليهودي

1- عبادة النفس عند غلاة الصوفية

مما لا شك فيه أن التصوف يعتبر جزءا لا يتجزأ من الفكر الإسلامي قديما وحديثا، كما أنه مر تاريخيا بمراحل ثلاث؛ مرحلة الزهد والتعبد والصفاء، فمرحلة التفلسف، ثم أخيرا مرحلة التصوف الطرقي. ولم تخل هاتان المرحلتان الأخيرتان من ظهور بعض الشيوخ الصوفية الذين مزجوا بعض كلامهم وشطحاتهم بأفكار فلسفية.

وقد يطغي الشعور الذاتي عند المتصوف، ويتضخم عنده الإحساس بالأنا الصوفي، فيعكف على نفسه مناجيا ومتأملا إياها. ومن الصوفية من يبلغ برياضته الروحية ومجاهداته مرتبة الفناء عن العالم والاستغراق في الألوهية !!؟ مما جعلهم يقعون فيما يسمونه بالعشق الإلهي، مع اعتقادهم أحيانا بالحلول أو الاتحاد.. بل منهم من أفضى به حاله إلى أن يرى نفسه فقط ولا يرى شيئا غيرها. وفيما يلي، سأعرض بعض النصوص الصوفية الدالة على أن كثيرا من أرباب التصوف كانوا يعبدون أنفسهم وذواتهم وهم يحسبون أنهم يعبدون ربهم.

قال الحسين بن منصور الحلاج الصوفي الحلولي مخاطبا ربه عز وجل:

"مزجت روحك بروحي كما *** تمزج الخمرة بالماء الزلال"

وقال:

"أنا من أهوى ومن أهوى *** أنا نحن روحان حللنا بدنا"

ويقول عمر بن الفارض متحدثا عن الذات الإلهية:

"ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها *** وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلت

ولولاي لم يوجد وجود ولم يكن *** شهود ولم تعهد عهود بذمة

فلا حي إلا من حياتي حياته *** وطوع مرادي كل نفس مريدة !!

وكل الجهات الست نحوي توجهت *** بما تم من نسك وحج وعمرة

لها صلواتي بالمقام، أقيمها *** وأشهد فيها أنها لي صلت"[142] !!

وقال عبد الكريم الجيلي في الموضوع نفسه:

"فمهما ترى من معدن ونباته *** وحيوانه مع إنسه وسجاياه

ومهما ترى من أبحر وقفاره *** ومن شجر أو شاهق طال أعلاه

ومهما ترى من هيئة ملكية *** ومن منظر إبليس قد كان معناه

ومهما ترى من عرشه ومحيطه *** وكرسيه أو رفرف عز مجلاه

فإني ذاك الكل والكل مشهدي *** أنا المتجلي في حقيقته لا هو !!!

وإني رب للأنام وسيد *** جميع الورى إسم وذاتي مسماه"[143] !!

إن قول ابن الفارض:

ففي الصحو بعد المحو لم أك غيرها *** وذاتي بذاتي إذ تحلّت تجلّت

يفيد الإمعان والإغراق في الحلول ووحدة الوجود، إذ هو لم يكتف بإثبات هذا الشعور في حال أو مستوى "المحو"؛ الذي هو امحاء الكثرة والغيرية، وفناء السوية، وتجلي الوحدة المطلقة، حيث الخلق عين الحق والمربوب عين الرب، وإنما أكده، بكل استعلاء، حتى في حال "الصحو"؛ فذاته هي ذات خالقه سواء كان حاله محوا أو صحوا. كما يأبى، وهو في نشوة الاستعلاء والتيه والتكبر، أن يثبت لربه ذاتا إذ يقول: "وذاتي بذاتي إذ تحلت تجلت"

فلم يقل: وذاتي بذاته أو ذاته بذاتي، وإنما قال، ليحكم بالعدم الصوفي على رب الوجود،: وذاتي بذاتي؛ فليس ثمة إلا ذاته.

---

[142] - انظر "تائية" ابن الفارض.

[143] - عبد الكريم الجيلي: "الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل"، القاهرة، 2012، ص31.

لا يخفى على الناقد المتأمل في هذه الأبيات الشعرية الصوفية، أن أصحابها قد حصل لديهم ما يمكن أن نعبر عنه بـ: "تضخم الأنا الصوفي"؛ ذلك الإحساس الذي قذف ببعضهم في الحلول أو في وحدة الوجود أو الاتحاد، أو في إنكار الذات الإلهية وإثبات الذات الصوفية؛ كما هو واضح وصريح في أشعار عبد الكريم الجيلي.

قال محمد بن قيم الجوزية في كتابه "مدارج السالكين":

سمعت بعض الشيوخ يقول: "لو أن شخصين ادعيا محبة محبوب فحضرا بين يديه، فأقبل أحدهما على مشاهدته والنظر إليه فقط. وأقبل الآخر على استقراء مراداته ومراضيه وأوامره ليمتثلها. فقال لهما: ما تريدان فقال أحدهما: أريد دوام مشاهدتك والاستغراق في جمالك. وقال الآخر: أريد تنفيذ أوامرك وتحصيل مراضيك؛ فمرادي منك ما تريده أنت مني لا ما أريده أنا منك. والآخر قال: مرادي منك تمتعي بمشاهدتك. أكانا عنده سواء؟ فمن هو الآن صاحب المحبة المعلولة المدخولة الناقصة النفسانية، وصاحب المحبة الصحيحة الصادقة الكاملة أهذا أم هذا ؟ وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه، يحكي عن بعض العارفين أنه قال: الناس يعبدون الله والصوفية يعبدون أنفسهم. أراد هذا المعنى المتقدم؛ وأنهم واقفون مع مرادهم من الله، لا مع مراد الله منهم. وهذا عين عبادة النفس. فليتأمل اللبيب هذا الموضع حق التأمل فإنه محك وميزان، والله المستعان"[144].

نعم لقد صدق هذا الشيخ في قوله: "والصوفية يعبدون أنفسهم"، وما أظنه يقصد الصوفية جميعا، وإنما يشير إلى تلك الفئة التي عبرت من خلال كلامها وأشعارها، عن المشاهد الانفعالية والوجدانية، الناتجة عما يسمونه بالعشق الإلهي، الذي قاد أصحاب هذه الفئة، بعد تضخم الأنا الصوفي لديهم، إلى الوقوع في الاتحاد أو الحلول أو وحدة الوجود، أو غيرها من الضلالات. وهذا التصور المنحرف لا يجافي الفكر والفطرة الإنسانية فحسب، بل يتناقض مع العقيدة الإسلامية الصحيحة القائمة على التوحيد وألوهية الخالق وعبودية العبد.

---

[144] - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج 2، ص 289.

2- "من لا شيخ له فالشيطان شيخه"

لقد ذهب الصوفية إلى أن "من لا شيخ له فالشيطان شيخه". إذ الشيخ هو الذي يدلك على الله ويوصلك إليه. وهو الواسطة اللازمة من خلال البيعة. فالشيخ ضروري ولازم لتربية النفس والسمو بها في مقامات الإيمان والإحسان.

وقد أشار أبو حامد الغزالي إلى هذا المعنى: "فكذلك المريد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه إلي سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه، قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سلك سبيل البوادي المهلكة بغير خفير، فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر. فمعتصم المريد بعد تقديم الشروط المذكورة شيخه. فليتمسك به تمسك الأعمى على شاطئ النهر بالقائد...، وليعلم أن نفعه في خطئه لو أخطأ، أكثر من نفعه في صواب نفسه لو أصاب"[145] ؟!!.

إن القارئ المتأمل قد يعجب لهذه الأفكار الغريبة التي سطرها العلامة أبو حامد الغزالي في هذا النص، تلك الأفكار التي تتعارض كليا مع منطق العقل والنقل. فقوله "إن سبيل الدين غامض"، لم يقل به عامة الناس من المسلمين بله علماؤهم. إن الأدلة العقلية والنقلية على يسر الدين، ووضوح منهاجه وطريقه، أكثر من أن تحصى. إن الله الذي خلق العباد و أمرهم بعبادته، وأرسل الرسل وأنزل الوحي، يستحيل أن يأمرهم بما لا يطيقون، وبما لا يفهمون؛ أي بما هو غامض كما ادعى أبو

[145] - أبو حامد الغزالي: "إحياء علوم الدين"، ج 3، ص 112-113.

حامد الغزالي غفر الله له. ومن الأدلة النقلية قوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا﴾[146].

ومن السنة، قول النبي صلى الله عليه وسلم: "تركتم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك"[147].

ثم إن قول أبي حامد الغزالي: "فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة"، قول مردود عليه. نعم نحن جميعا نعلم أن الشيطان عدو الإنسان الأكبر، لا يتوقف عن إغواء الآدميين والكيد لهم وإهلاكهم، بيد أن الله عز وجل يقول: ﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾[148]. ويقول أيضا: ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[149].

والغريب أن المطلع على سلوك كثير من الشيوخ الطرقيين، وانحرافاتهم وتكالبهم على الدنيا، واستعبادهم لمريديهم، وأكاذيبهم ودعاواهم، ومسوخاتهم ومنكراتهم، لا يشك أنهم هم الشياطين حقا، كما قال تعالى: ﴿شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا﴾[150].

إن قول الصوفية باستحالة الوصول إلى إصلاح النفس وتزكيتها دون الاعتماد على الشيخ الصوفي، قول لا ينهض على دليل، بل يكذبه واقع وحياة المسلمين على مر العصور. فإذا رجعنا مثلا إلى حياة المسلمين الدينية فيما بين القرنين الأول والسادس، حيث خلو هذه المرحلة من التصوف الطرقي، وجدنا أن هؤلاء المسلمين

---

146 - سورة الإنسان، الآية 3

147 - رواه ابن ماجة

148 - سورة الحجر، الآية 42

149 - سورة الأعراف، الآية 201

150 - سورة الأنعام، الآية 113

كانوا يمارسون عبادتهم وحياتهم الدينية بطريقة تلقائية، كل حسب مستوى إيمانه واجتهاده وتقربه إلى الله.

ولم يكن التصوف الذي ظهر في أواخر القرن الثاني للهجرة، مشاعا بين الناس. وإنما اهتم به طائفة من المسلمين ودعوا إليه. فنسبتهم إلى عامة المسلمين ضعيفة جدا، وعددهم لا يذكر إذا قورن بعدد المسلمين.

فهل معنى هذا أن غير الصوفية من المسلمين لم يعملوا على إصلاح النفس وتزكيتها؟ إن كتب التاريخ والتراجم مليئة بذكر حياة كثير من العباد، والزهاد، والفقهاء والعلماء، من الذين شهد لهم المسلمون بالصلاح والاستقامة والورع، مع عدم تصوفهم أو سلوكهم مسلك الصوفية.

وهل تصوف الأئمة الأربعة؛ مالك والشافعي وابن حنبل وأبو حنيفة؟ وهل تصوف تلاميذهم الذين أخذوا عنهم العلم؟ وهل تصوف مئات العلماء والأدباء والأطباء... وغيرهم ممن أثروا الثقافة الإسلامية بإنتاجهم العلمي والأدبي؟ فكيف نحكم على هؤلاء بعدم ممارستهم لتزكية النفس لكونهم لم يكونوا من الصوفية؟

نعم لقد كثر عدد المتصوفة بعد القرن السادس الهجري، بسبب ظهور وانتشار الطرق الصوفية التي مال إليها كثير من المسلمين الذين جعلوا من الشيوخ الطرقيين أئمة يهتدون بهم، حتى انتهى بهم الأمر إلى تقديسهم والاستغاثة بهم أحياء وأمواتا. وإن المطلع على حياة أولئك الشيوخ وحياة مريديهم، ليدرك أن هؤلاء كانوا ولا يزالون أبعد الناس عن إصلاح النفس وتزكيتها وتطهيرها على منهج النبوة.ولا يتسع المجال هنا لذكر المصائب والويلات والانحرافات السلوكية والعقدية، التي انتشرت بين أتباع الطرق الصوفية.

وأما قول الصوفية: إن التصوف دعت إليه الشريعة الإسلامية من خلال حثها على التحقق بمقام الإحسان الذي يرادف، في تصورهم، مقام التصوف، فإنه قول

بعيد عن الصواب، وليس له من الأدلة والبراهين إلا ما هو من قبيل السراب. والإحسان كما جاء في الحديث الصحيح: "أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، ومعناه مقام أو منزلة إيمانية سامية، تجعل المؤمن مستحضرا ربه في قلبه حتى كأنه، من شدة اليقين، يراه. إنها مراقبة الله سبحانه وخشيته. إن منزلة الإحسان هي أسمى منزلة إيمانية يبلغها المؤمن بتوفيق من الله، مع المجاهدة والتحلي بصفات المتقين.

وإذا كان الإحسان يعني أن تعبد الله كأنك تراه، فإنه يستلزم العبادة كما أمر الله ورسوله. فكيف نرادف بينه وبين التصوف الذي ابتدع أهله وشيوخه في مجالات كثيرة متعلقة بالعبادة كمجال الذكر على سبيل المثال؟

إن مصطلح الإحسان مصطلح ديني إيماني، يقوم على معاني إيمانية مستلهمة من الكتاب والسنة، ومسيجة بسياجهما. في حين أن مصطلح التصوف تؤسسه معاني وآراء مستلهمة من اجتهادات ومواقف المتصوفة، والتي لا تخلو من أهواء وميولات شخصية. فلا ترادف ولا تطابق بين المصطلحين. وبعبارة أوضح: كيف يمكننا الجمع أو التوفيق بين الإحسان كمصطلح إيماني رصين ودقيق، وبين التصوف الطرقي كسلوك في العبادة قائم على البدع والأباطيل والدجل؟

3- معشر الصوفية الأفاضل

معشر الصوفية الأفاضل، إن المناظرة في القضايا المذهبية من أصعب أنواع المناظرات، لأن كلا المتناظرين يرى أن صاحبه أو مناظره غير متجرد من الأهواء والميولات . فالمعترض على التصوف البدعي الطرقي يعتبر لدى مناظره المتصوف، وهابيا أو جاهلا بالتصوف، ولو قدم هذا المعترض ألف حجة وبرهان. والأمر كذلك بالنسبة لمدعي التصوف إزاء مناظره المعترض.

فلو قال المعترض مثلا: إن النبي صلى الله عليه وسلم تستحيل رؤيته يقظة بعد موته، بدليل أن ليس أحد من الصحابة أو التابعين ومن تبعهم بإحسان خلال القرون الأولى ادعى ذلك، وإنما ادعى تلك الرؤية شيوخ وأقطاب صوفيون بعد وتطور بدعة التصوف، لأجابه مدعي التصوف: إنك جاهل بعلوم القوم وأذواقهم، أو مصاب بآفة الوهابية. بيد أنني أتساءل: لماذا لم يقم أحد من هؤلاء الأدعياء بدعوة الناس لرؤية النبي صلى الله عليه وسلم عندما رآه أو حضر معه حتى يقيم الحجة على المعترض أو الوهابي؟ أليس لأنه يفتري أو خيل إليه أنه يراه؟

وكذلك إذا قال المعترض: إن المسلم لا يستطيع الطيران في السماء بدون آلة، ولا يستطيع إقامة صلاة الظهر في أقصى المشرق، وصلاة العصر في أقصى المغرب دون الاستعانة بوسيلة نقل، ولا أن يستجيب، وهو ميت في قبره، لمستغيث يستغيث به، ولا أن يتصرف في أحوال الناس وأرزاقهم كما يفعل الأقطاب والأبدال والأوتاد، لأجاب مدعي التصوف أن كل هذا يستطيعه شيوخ التصوف وأقطابه وأوتاده، ولا دليل له على ذلك سوى أنه مسطر في كتبهم ومسلم به عندهم. وقس على هذا مما لا يتسع المجال لذكره من الترهات، والطامات، والمسوخات.

وكذلك إذا قال المعترض: هذا الذي تسمونه علوما لدنية، لم يكن موجودا عند الصحابة والتابعين، ولا يشبه من قريب ولا من بعيد، إلهاماتهم وفتوحاتهم في فهم الدين وإدراك حقائقه. فمن من الصحابة أو التابعين تفوه بكلام من جنس كلام ابن الفارض في تائيته، أو الجيلي في كتابه: "الإنسان الكامل"، أو ابن عربي في "فتوحاته" أو "فصوصه"، أو الدباغ في كلامه الذي لم يحسن دبغه، أو الشعراني، أو التيجاني، أو ابن عجيبة، أو الحراق...، لأجاب مدعي التصوف بالجواب نفسه، ولا دليل يستدل به سوى الهوى.

ولوقال المعترض: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تجعلوا قبري وثنا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"[151]. وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي لم يقم منه: "لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد".

وعندما خالفوا أمره صلى الله عليه وسلم، جرهم ذلك إلى مفاسد عظيمة، حيث اعتقدوا في أصحاب الأضرحة الضر، والنفع، وقضاء الحوائج. كما تقربوا اليهم بالذبائح والقرابين، وطلبوا منهم ما يطلبه العباد من ربهم، واستغاثوا بهم إلى غير ذلك من ألوان الشرك التي تفسد العقيدة. أقول: لو قال المعترض كل هذا لأجابه المتصوف الطرقي: أنت تنكر بركة الأولياء ونفعهم للعباد، وتنفي كراماتهم وما خصهم الله به، وما يشبه هذا الكلام.

ولو قال المعترض: إن كل واحد من الشيوخ الطرقيين يزعم أنه تلقى ذكرا وأورادا خاصة بطريقته من الغيب، إما من الله مباشرة، أو من الرسول صلى الله عليه وسلم يقظة أو مناما، أو من الخضر عليه السلام، مثل ما هو موجود في الطريقة التيجانية، حيث يجلس المريد الذاكر جلسة التشهد، مغمضا عينيه، مستحضرا

---

[151] - رواه مالك في الموطأ.

صورة الشيخ أحمد التيجاني، شيخ الطريقة، ويتخيل أن عمودا من النور يخرج من قلب الشيخ ويدخل في قلبه..

ولهم ذكر آخر يوم الجمعة عند الغروب، حيث يرددون لا إله إلا الله ألف مرة مع السماع؛ وهو إنشاد شيئا من الشعر بالغناء والترنم جماعة، ثم يقولون: الله حي، والمنشد ينشدهم وهم قيام، حتى يخلص عندهم إلى لفظ: آه، آه، آه. ويسموه هذه الحالة: العمارة. ثم يصلون صلاة الفاتح لما أغلق خمسين مرة، ثم لا إله إلا الله مائة مرة، ثم صلاة جوهرة الكمال اثني عشرة مرة. وبما أن النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة، يحضرون، في زعمهم، عند قراءة جوهرة الكمال، لذا يجب التطهر بالماء وليس التيمم، قبل قراءتها. ومن شروطها أيضا إعداد الفراش الطاهر الذي يسع خمسة أشخاص، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يحضر ومعه الخلفاء الأربعة!!!؟.

إن العبادات التي شرعها الله توقيفية فلا مجال للرأي فيها، ومع كل هذا الانحراف لا يستحيي الصوفية الطرقيون، من قولهم: إنهم يهتدون بالكتاب والسنة.

أقول: لو قدم المعترض هذا الكلام وأثبته بالحجج والبراهين، فإن المتصوف الطرقي لن يعدم جوابا من جنس الأجوبة السابقة التي تنبت في أرض الأهواء والشركيات والضلالات.

إخواني الصوفية: قال عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه: "من كان منكم مستنا، فليستن بمن كان مات، أولئك أصحاب محمد، أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيهم وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم، وتمسكوا بهديهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم"[152].

---

[152] - أبو الخير الحنفي: "شرح العقيدة الطحاوية"، صاغها وراجعها مجموعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني، 1408هـ/1988م، ص 383.

فمن خالفهم زاعما أنه أتى بطاعة و قربة، فلا يخلو حاله من أمرين: اما أنه جاء ببدعة ظلما، واما أن يكون مدعيا فاقهم فضلا وعلما.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد"[153]؛ أي مردود على صاحبه غير مقبول.

إخواني الصوفية: إن التصوف الطرقي مليء بالبدع والمخالفات والضلالات، بدءا من أخذ العهد وتقديس الشيوخ أحياء وأمواتا، والاستغاثة بهم، ومرورا بالقبورية والمواليد والمزارات، ثم طي الزمان والمكان والكشوفات والمعارج، وهم جرا ومسخا... كل هذه المظاهر البدعية المستحدثة وغيرها، يدين بها الصوفية الطرقيون، ويتقربون بها الى الله، وهم بذلك خالفوا أمر الله ورسوله، حيث أنهم أدخلوا في عبادتهم ما لم يأمر به الله سبحانه ولا رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

---

[153] - رواه البخاري ومسلم.

4- محيي الدين بن عربي والموسيقى الصوفية والعولمة

إن علاقة التصوف بالموسيقى علاقة وظيفية وقديمة، تضرب في أعماق التاريخ، باعتبار أن التصوف ظاهرة روحية وتربوية، عرفتها كثير من الحضارات القديمة؛ كحضارتي الصين والهند. كما مارس اليهود والنصارى التصوف، قبل أن يعرف عند المسلمين. واستعمال الموسيقى عند المتصوفة قديما وحديثا أمر منطقي؛ أي يستجيب لمنطق وجوهر التصوف، من حيث أن التصوف، في كثير من معانيه وتجلياته الفلسفية، نزوع أو ميل نحو التخلص من عنصر الطين البشري وأوحال الدنيا، والتوجه إلى عالم الروح والانخراط فيه إلى الأبد. ومن هنا، فإن وظيفة السماع والموسيقى، شيء أساسي عند الصوفية لتحقيق تلك الغاية الروحية. ولعل محيي الدين بن عربي الصوفي الشهير، يعتبر من كبار الصوفية الذين عالجوا في كتاباتهم موضوع الموسيقى الروحية معالجة فلسفية ميتافيزيقية، لا تخلو من التأثيرات الهندية واليونانية واليهودية والمسيحية.

وقد كان السماع والموسيقى سمة لبعض الطرق الصوفية، في الوقت الذي لم يقبلهما كثير من المتصوفة.

ومن المعلوم أن المولوية وزعيمها جلال الدين الرومي من أكبر المؤيدين للسماع والرقص في الأذكار الصوفية. لأن السماع فيه تيسير للإيقاعات المحببة إلى النفوس. وحركات الرقص في الأذكار فيها تصعيد لكثير من رغبات النفس وترويض لها، ورمز للحركات الدورية للأفلاك والكواكب، وتعبير عن الروح الثملة بالعشق الإلهي.

وبصورة عامة فإن الطرق الصوفية ارتبطت بالسماع بطريقة أو بأخرى، سواء أكانت قد استخدمت الدفوف والمزاهر والطبول والنايات، أم اكتفت بالكلام الموقع الموزون المغنّى وفق مقاماته وأنغامه.

وقد عرف التاريخ الإسلامي عدداً كبيراً من الطرق الصوفية كالقادرية، والرفاعية، والسهروردية، والشاذلية، والبدوية، والدسوقية، والمولوية، والكبراوية، والششتية، والحريرية، والنقشبندية، والبكتاشية، واليونسية. وقد انقرض كثير من هذه الطرق وبقي بعضها حتى اليوم، وهي تختلف في نسبة استعمالها للموسيقى في أورادها وأذكارها.

إن السماع في الطرق الصوفية، يتوسلون به إلى حالات من الوجد والتواصل مع المحبوب. وقد أخذ حيزاً من حياة الصوفيين وانتقل من خلالهم إلى الحياة العامة.

ولما أصيب الغربيون بالفراغ والجذب الروحي والأزمات النفسية، وأقبل بعضهم على الإسلام، كان التصوف هو الباب المناسب للدخول منه إلى بيت الدين الجديد. وهذا هو سبب اهتمام الغربيين المسلمين بابن عربي، وجلال الدين الرومي وابن الفارض، وغيرهم من أقطاب الصوفية. وإذا كان دخول الغربيين في الإسلام يقلق بال المسؤولين السياسيين وأصحاب القرار والنفوذ، فإن تأييدهم وتشجيعهم للتصوف يدخل في إطار إبعاد رعاياهم من المسلمين الجدد عن الإسلام الصحيح. كما أن هؤلاء المسؤولين يعملون على إحياء ونشر ثقافة التصوف في البلدان الإسلامية، لكي تقف في وجه ثقافة إسلامية لا يرغبون فيها، بل تزعجهم.

ثم إن التصوف الذي ظهر عند المسلمين في أواخر القرن الثاني للهجرة، قد انحرف عندما انتقل من الزهد إلى الفلسفة، ثم إلى التصوف الطرقي الذي نعيش الآن أسوء مراحله؛ حيث الدجل واستعباد الناس واستغفالهم، وألوان من المصائب والبدع والانحرافات العقدية.

وإنه لمما يؤلم القلب ويحزنه، أن تغدو فاس، مدينة القرويين؛ مهد العلم ومعقل الثقافة والهوية والحضارة المغربية الأصيلة والعريقة، فضاء مستباحا للغناء الصوفي الفولكلوري العالمي المستورد. ولا شك أن العولمة التي لا تعترف بغير الثقافة الغربية

المادية، وتعمل على إبادة أو طمس معالم الثقافات الأخرى، تحاول الآن مسخ الثقافة الإسلامية التي استعصت عليها، وتريد أن تزج بها في حمأة ما سمى بالتسامح والحوار الديني. بيد أنها تضرب في حديد بارد، وتروم أمرا دونه بيض الأنوق، أو تلهث وراء سراب في صحراء يباب. ولا علم لها بقوله تعالى: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾[154]. وقبل ما يزيد على عقد من الزمن، تركز اهتمام الإدارات الأمريكية المتعاقبة على الجماعات الصوفية في باكستان والصومال والسودان ومصر والأردن، ودول المغرب العربي، وأمريكا وبعض دول أوروبا.

ومبعث هذا الاهتمام الكبير بالصوفية، هو بحث أمريكا عن شريك داخل جسد الأمة المسلمة، يمكن أن تنفذ من خلاله استراتيجياً إلى تحجيم وإبعاد التيارات السلفية التي تقف حجر عثرة أمام هيمنتها على المسلمين، ومسعاها لإقصاء الإسلام من حياتهم. وقد وجد الباحثون الأمريكيون هذه الضالة المنشودة في الصوفية بصورة مركزية.

يرى الأمريكيون أن "فرق المتصوفة" و"النخب الليبرالية" على امتداد العالم الإسلامي، هم أكثر المجموعات التي يسهل استيعابها وانخراطها في المشروع الأمريكي لمواجهة "المد السلفي" و"الإسلام السياسي" في العالم.

ويتصور الغرب، وأمريكا على وجه الخصوص، أن الصوفية أكثر الفئات المسلمة تساهلاً في اتباع السنة وأعلاها احتفاء بالمبتدعات، وأقلها في جانب تطبيق النصوص المنادية بالعمل بفهم السلف الصالح؛ ولذا يعتبرونهم غير متشددين في التطبيق والممارسة، كما يشيدون بما يتميز به الفكر الصوفي من تقديس الأضرحة والمشايخ

---

[154] - سورة الصف، الآية 8

وحب الإنشاد والميل للطقوس الاحتفالية والموالد، فهي أمور يرتضونها ويعتبرونها ممثلاً للإسلام "الوسطي"!، وهم على استعداد لدعم انتشارها وترويجها في المجتمعات الإسلامية. وهذا بالطبع مردّه إلى أن النصرانية واليهودية لا ترغبان في وجود أمة إسلامية قوية في عقيدتها، وارتباطها بربها ونبيها، حتى يسهل اختراق المجتمعات الإسلامية وإضعاف قوتها ومقوماتها.

وهذه خلاصة مركزة للدراسات الأمريكية التي بُنيت عليها استراتيجية استغلال التصوف:

– الصوفية تُمثِّل: "البديل الثقافي والاجتماعي والدين الأساسي لمواجهة الأشكال الأيديولوجية للإسلام المهيمنة حالياً في العالم الإسلامي".

– الصوفية هي: "الإسلام الذي يمكن أن تتعامل معه أمريكا والغرب، حيث يمكن أن تقدم مساعدة عظيمة للعالم، وذلك عبر مواقفها من الاستقلال والتعددية واحترام الأديان والعقائد الأخرى".

– الصوفية تُعتبَر: أوضح خيار للمسلمين للمصالحة بين "العالم اليهودي المسيحي" و"العالم الإسلامي".

والخلاصة أن الغرب الأمريكي والأوروبي يسعى جادا في إقامة الندوات واللقاءات، والمهرجانات الصوفية: حيث الموسيقى والرقص الصوفي، وحيث لغة الحب والعشق والعرفان والسياحة الروحية.

5- وجود شيخ التربية الصوفية زمن الصحابة والتابعين؛ دعوى باطلة

إذا اطلعنا على تاريخ الصحابة والتابعين، وتابعيهم إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، لن نجد ذكرا لمصطلح شيخ التربية لفظا أو مضمونا، بما يحمله من الحمولات والمعاني التربوية الصوفية. وليتصفح القارئ مثلا كتاب "صفة الصفوة" للعلامة ابن الجوزي، ثم لينظر هل يجد أن أحدا من مئات الرجال المترجم لهم نعت أو وصف بـ"شيخ التربية". وذلك راجع لأسباب جوهرية منها:

أ- أن المسلمين، خلال هذين القرنين من الزمن، كانوا أحرص الناس على التقوى والاستقامة والتمسك بالكتاب والسنة. فلم يكونوا بحاجة إلى شيوخ التربية بالمعنى الصوفي الذي أصبح متداولا في القرون اللاحقة؛ أي لم تكن هناك أزمات أومشاكل نفسية أوروحية متعلقة بضعف الإيمان. وإن وجدت فسرعان ما تعالج، إما عن طريق الصحبة الصالحة وما أكثرها في ذلك العهد، أو عن طريق اللجوء إلى شيخ فقيه عالم معروف بالصلاح والزهد، فيطلب منه النصيحة.

ب- إن روح التربية الروحية والإيمانية، كانت تسري بين المسلمين بطريقة تلقائية، لأن مظاهر الحياة الاجتماعية كانت تعبر أصدق تعبير عن الاستقامة وحب الدين ونصرته، الأمر الذي بدأ يتغير بعد انصرام العقود الأولى من حكم العباسيين، وظهور نفوذ الفرس، وتأثيرات الثقافات الدخيلة.

ج- إن العلم أو الفقه، والتربية، كانا يشكلان وجهين لجوهر أو أمر واحد. ذلك أن الصحابة أو التابعين، أو من تبعهم خلال تلك الفترة أو الحقبة الصافية، عندما ينفق أحدهم العلم، فإنه في الوقت ذاته يلقن التربية الروحية والإيمانية. فلم يكن هناك شيخ في العلم والفقه غير مُربّ؛ أي غير مُلقِّن للتربية.

يستنتج مما سبق أن إسم شيخ التربية لم يكن ينعت به أحد في ذلك الزمن، أو ينادى به عليه، أو يخاطب به، بل كان الشيوخ العلماء والفقهاء يمارسون العلم

والفقه تحصيلا وإنفاقا كما يمارسون التربية الروحية والإيمانية، ومن هنا فإن مصطلح شيخ التربية من المصطلحات المستحدثة.

والمسلم يحتاج في حياته إلى من يعلمه القرآن أو الحديث أو الفقه، ويعلمه طرق وأساليب إصلاح النفس وتزكيتها. لكن ذلك المطلوب لا يتعين في شخص بذاته؛ بحيث إذا انتسب إليه الطالب المستفيد يواليه وحده ولا ينفصل عنه، كما يفعل الصوفية مع شيوخهم، بل يستحسن أن يكثر من الشيوخ والعلماء، تماما كما يتغذى النحل وهو ينتقل بين الأزهار. وكل من قدم لمسلم فائدة فقهية، أو تربوية فهو شيخه فيها. كما عليه أن يبحث عن الشيوخ والعلماء الربانيين الورعين الزاهدين في الدنيا، والراغبين في الآخرة، فهم وإن قلوا لم ينقطعوا ولله الحمد.

وبهذه الطريقة يظل قلب المسلم معلقا بخالقه وبسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، مع الاستفادة من الشيوخ والعلماء. فلم يرتبط الصحابة ولا التابعون ولا من تبعهم، بشخص واحد في العلم والتربية، بحيث جعلوه محورهم ومستندهم الوحيد، لأن هذا الأسلوب أي أسلوب الاقتصار على شيخ واحد له عيوب كثيرة: منها أن أي شيخ أو فقيه أو عالم يعتبر غير معصوم، إذ قد تصدر منه أخطاء في الفقه أو التربية، تؤثر سلبا في عقيدة أو سلوك أتباعه أو تلاميذه، وهم لا يشعرون، وذلك بسبب حبهم لشيخهم الوحيد وتعصبهم لطريقته أو لمذهبه. ولذا كان تعدد المشارب وموارد الفوائد بتعدد الشيوخ والعلماء، أسلم وأصوب وأهدى سبيلا.

والخلاصة أن كل مسلم يكون على علم بفقه العبادات، مطلع على السيرة النبوية وسير الصحابة والتابعين والأئمة، متخلق بأخلاق الإسلام، راغب في التقوى والاستقامة...، يعتبر مؤهلا، بالقوة والفعل، للقيام بدور الشيخ التربوي إذا دعت الضرورة لذلك، ودون حاجة لأن ينعت بوصف شيخ التربية، أو يسعى للاتصاف بها والتخصص فيها، حتى يعرف بها ويشار إليه بالبنان، إذ عندما يصل الأمر إلى هذا المستوى، قد يلج صاحبه باب الفتنة، فيفتن نفسه وغيره.

6- الصوفية وأمريكا[155]

إن التاريخ المعاصر يحدثنا عن علاقات سياسية خطيرة نسجها المستعمر الفرنسي والإنجليزي في القرنين التاسع عشر والعشرين، مع كثير من شيوخ الطرق الصوفية في شمال إفريقيا وباقي البلدان العربية. ففي الجزائر مثلا، كان أتباع الطريقة التيجانية وشيوخها أكثر الناس نفعا لفرنسا في الجزائر وبعض الأقطار الأفريقية. ولقد استطاعت أوريلي بيكار الفرنسية أن تتسلل إلى الزاوية التيجانية، وتتزوج شيخها ومؤسسها أحمد التيجاني. ولما توفي تزوجت أخاه، فأطلق عليها التيجانيون لقب: "زوجة السيدين"، وكانوا يتيممون بالتراب الذي تمشي عليه، مع أنها ظلت كاثوليكية. وقد أنعمت عليها فرنسا بوسام الشرف، لأنها أدارت الزاوية التيجانية الكبرى إدارة حسنة تخدم مصالح المستعمر الفرنسي. وقد ساعد أتباع الطريقة التيجانية الجيوش الفرنسية بمختلف الوسائل.[156]

قال الشيخ محمد الكبير صاحب السجادة التيجانية الكبرى، في خطبة ألقاها أمام رئيس البعثة الفرنسية في مدينة عين ماض بالجزائر، بتاريخ 28 ذي الحجة 1350هـ: "إن من الواجب علينا إعانة حبيبة قلوبنا فرنسا، ماديا ومعنويا وسياسيا. ولهذا فإني أقول على سبيل الاحتساب والشرف والقيام بالواجب: إن أجدادي قد أحسنوا صنعا في انضمامهم إلى فرنسا قبل أن تصل إلى بلادنا، وقبل أن تحتل جيوشها الكرام ديارنا"[157].

---

155 - انظر المزيد في الملحق رقم 1.

156 - روم لاندو: "تاريخ المغرب في القرن العشرين"، ترجمة نقولا زيادة، دار الثقافة للطباعة والنشر 1980، ص 146.

157 - صحيفة "الفتح" الأسبوعية، مصر، 1350هـ، عدد 257.

إن الأمثلة والدلائل على الروابط والعلاقات المتينة التي كانت قائمة بين الإدارة الاستعمارية وكثير من شيوخ الطرق الصوفية، أكثر من أن تحصى. ويبدو أن هذه العلاقات لا زالت حية ومستمرة وفعالة. وهذا نص يتضمن حدثا هاما يؤكد استمرارية العلاقات والروابط المذكورة:

"وجهت لبعض مشايخ الطرق الصوفية في مصر دعوات لحضور مؤتمر عن التصوف في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي دعوات أثارت ردود أفعال غاضبة في أوساط مشايخ الطرق الصوفية، ورئيس المجلس الأعلى للطرق الصوفية، إذ اعتبرها البعض دعوة مشبوهة تروج للفكر الشيعي(...)

واتهم محمد علاء أبو العزايم عضو المجلس الأعلى للطرق الصوفية، وشيخ الطريقة العزمية الشيخ محمد أبو هاشم شيخ الطريقة الهاشمية، بأنه مصاب بعدم اتزان عاطفي؛ بسبب خسارته في المجلس الأعلى للطرق الصوفية، وذلك لرفضه المؤتمر وقوله: إنه مؤتمر بيزنس.

وحول علاقات أمريكا بالصوفية، قال أبوالعزايم في تصريحات لـ"المصري اليوم" قبيل ساعات من سفره للمشاركة في مؤتمر "التصوف" بأمريكا: البعض يحاول تشويه الهدف السامي الذي نسافر من أجله.

وفي محاولة لاستعراض مكانته بالمؤتمر المشبوه قال: أنا همزة الوصل بين دعاة المؤتمر في أمريكا وهم من الصوفية السُنية، ومشايخ الطرق الصوفية في مصر، وأوضح أن منظمي المؤتمر دعوا عشرة أفراد من قيادات هذه الطرق في حين طلبوا منه دعوة ثلاثين صوفياً من أهل السُنة.

وزعم أبو العزايم أن هذا المؤتمر صوفي، وليس شيعياً أو أمريكياً(...) فأمريكا من مصلحتها أن تغير سياستها تجاه العرب والمسلمين، وتنظر للصوفيين باعتبارهم قوة

كبيرة وعريضة من المسلمين لا تمت للإرهاب بأية صلة(...) لافتاً إلي وجود اتصالات مع المسلمين الصوفيين في أمريكا.

وقال: إن الاتهامات التي وجهت للمشاركين في المؤتمر بأنهم مجموعات "بزنس" لا أساس لها من الصحة! لأن المشاركين في المؤتمر من ذوي المراكز المرموقة في المجتمع، ولا يسعون لمصالح شخصية(...) وأكد شيخ الطريقة العزمية إلي أنه سيذهب إلي المؤتمر حتى لو لم يوافق المجلس الأعلى للطرق الصوفية؛ لأنه ليس له سلطان علي سفري.

وأكد أبو العزايم أن علاقات قوية تربط بين مشايخ الطرق الصوفية السُنية في مصر ومثيلاتها في أمريكا، وقال: إن المجلس الأعلى للطرق الصوفية وضع شروطاً للتأكد من انتماءات المشاركين في المؤتمر.

وعن أسباب اهتمام أمريكا بالطرق الصوفية في العامين الأخيرين قال: من مصلحة أمريكا ومصلحتنا عقد تلك المؤتمرات؛ لتوصيل النموذج المثالي للإسلام، لمناهضة الأفكار الهدامة التي تدعو إلى العنف والتطرف، والتي نشرها دعاة الوهابية سواء "القاعدة" أو "الإخوان المسلمين"، على حد زعمه.

وعن موقف المشيخة العامة للطرق الصوفية من مشاركة المشايخ في المؤتمر، قال الشيخ حسن الشناوي شيخ مشايخ الطرق الصوفية: "إن المشيخة ليس لها علاقة بأي شكل من الأشكال بتنظيم هذا المؤتمر، وإن الطريقة العزمية هي التي قامت بتنسيق الأمر مع الرابطة الصوفية بالولايات المتحدة".

يذكر أن الطريقة العزمية طريقة شيعية تدَّعي التصوف لتكون جسرًا لنشر العقيدة الشيعية بين مسلمي السنة في مصر"[158].

---

[158] - مجلة آخر ساعة، 23 أبريل 2008.

7- جواب عن أسئلة تُركية في التصوف

أرسَل إلي شاب مسلم تركي من أسرة التربية والتعليم، أسئلة لها علاقة بالتصوف، فحررت، العبد المفتقر إلى الله، جوابا عنها مستعينا بالله العليم سبحانه.

- هل الأحوال والمقامات الروحية والإيمانية خاصة بأهل التصوف وحدهم؟

يخطئ كثير من المتصوفة المسلمين عندما يعتقدون أن الأحوال الروحية والمقامات السامية، هي من نصيب الصوفية وحدهم، وأن من أراد الارتقاء في هذه الأحوال والمقامات، يلزمه الدخول في طريق القوم أي الصوفية. وهذا خطأ كبير ودعوى باطلة، تفتقر إلى الدليل القاطع والمقنع. ذلك أن التصوف منهج سلوكي وتربوي، لم يكن معروفا في القرنين الأولين، وإنما ظهر وانتشر في بداية القرن الثالث للهجرة. معنى هذا أن المسلمين من الصحابة والتابعين والذين أتوا من بعدهم، تحققوا بالمقامات الإيمانية والأحوال العظيمة من غير سلوك منهج التصوف.

ثم لما انتشر التصوف واستمر عبر القرون، لم يعم المسلمين جميعا، بل التاريخ الإسلامي يؤكد أن أغلبية المسلمين بدءا من القرن الثالث وإلى الآن لم يكونوا صوفية؛ رغم تكاثر وانتشار الطرق الصوفية في القرون المتأخرة. ومع ذلك فإن كثيرا منهم قد أكرمهم الله بالأحوال والمقامات الإيمانية الصحيحة، والعلوم والمعارف. فالتصوف إذن، لا يعتبر شرطا لازما وضروريا لإصلاح النفس وتزكيتها، والترقي في الأحوال الروحية والإيمانية.

وقد كتب الإمام الفقيه الأصولي المحدث النظار، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي، صاحب كتاب "الموافقات" و"الاعتصام"، المتوفى سنة 790هـ، من

غرناطة قاعدة الأندلس، إلى شيخ الصوفية في عصره أبي عبد الله محمد بن عباد النفزي، خطيب جامع القرويين في مدينة فاس، المتوفى سنة 792هـ رحمهما الله تعالى.

كتب إليه يسأله: هل على السالك إلى الله تعالى أن يتخذ لزاما شيخ طريقة وتربية يسلك على يديه؟ أم يسوغ له أن يكون سلوكه إلى الله تعالى من طريق التعلم والتلقي من أهل العلم دون أن يكون له شيخ طريقة؟.

فكتب إليه الشيخ ابن عباد، كما في كتابه "الرسائل الصغرى" ص 106 وما بعدها وص 125 وما بعدها: "الشيخ المرجوع إليه في السلوك ينقسم إلى قسمين: شيخ تعليم وتربية، وشيخ تعليم بلا تربية.

فشيخ التربية ليس ضروريا لكل سالك، وإنما يحتاج إليه من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس. وأما من كان وافر العقل منقاد النفس، فليس بلازم في حقه، وتقيده به من باب الأولى. وأما شيخ التعليم فهو لازم لكل سالك.

أما كون شيخ التربية لازما لمن ذكرناه من السالكين فظاهر، لأن حجب أنفسهم كثيفة جدا، ولا يستقل برفعها وإماطتها إلا الشيخ المربي، وهم بمنزلة من به علل مزمنة، وأدواء معضلة من مرض الأبدان، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة.

وأما عدم لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس، فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يغنيانه عنه، فيستقيم له من العمل بما يلقيه إليه شيخ التعليم ما لا يستقيم لغيره. وهو واصل بإذن الله تعالى، ولا يخاف عليه ضرر يقع له في طريق السلوك إذا قصده من وجهه، وأتاه من بابه.

واعتماد شيخ التربية هو طريق الأئمة المتأخرين من الصوفية، واعتماد شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم. ويظهر هذا من كتب كثير من مصنفيهم، كالحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي، وغيرهما، من قبل أنهم لم ينصوا على شيخ التربية في

كتبهم على الوجه الذي ذكره أئمة المتأخرين، مع أنهم ذكروا أصول علوم القوم وفروعها، وسوابقها ولواحقها، لا سيما الشيخ أبو طالب، فعدم ذكرهم له دليل على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك. وهذه هي الطريقة السابلة أي: المسلوكة، التي انتهجتها أكثر السالكين، أشبه بحال السلف الأقدمين، إذ لم ينقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية، وتقيدوا بهم والتزموا معهم ما يلتزمه التلامذة مع الشيوخ المربين، وإنما كان حالهم اقتباس العلوم، واستصلاح الأحوال بطريق الصحبة والمؤاخاة بعضهم لبعض".

لا يسع الباحث الموضوعي إلا أن ينوه بالنزاهة العلمية، والموضوعية التامة لهذا العالم الجليل محمد بن عباد النفزي رحمه الله، حيث لم تمنعه مشيخته الصوفية من ترجيح كفة شيخ التعليم، والانتصار للعلم والفقه، ومنح الأولوية والأسبقية لهما، في حين جعل دائرة شيخ التربية أو شيخ الطريقة ضعيفة جدا، لا تضم إلا "من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس".

فتأمل معي أيها القارئ الفطن، واستعمل ذهنك الثاقب، وانظر كيف كان علماء القرون الماضية من أصحاب الذوق الصوفي النقي يفهمون التصوف، ويقيدونه بالشريعة، ويضبطون قواعده بضوابط الكتاب والسنة، حتى تذوب ماهية التصوف في ماهية الإسلام، وتتلاشى علامات التمييز، ويبقى الحق هو ما جاء به القرآن وكلام الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. لكن خلف من بعدهم خلف انحرفوا عن هذا النهج القويم، وجعلوا شيخ التربية أو شيخ الطريقة أولى من شيخ التعليم.

إذا كان التصوف يعتبر باطلا، فكيف يرتقي أصحابه في المقامات والأحوال الإيمانية، وتحصل لهم الكرامات والإلهامات والإشراقات...؟

إذا كان المتصوف الذي يمارس التصوف على طريقة الأوائل من الزهاد والصوفية المجتهدين، الذين اجتهدوا في عبادتهم وسلوكهم معتمدين على الكتاب والسنة، من

أمثال الفضيل بن عياض، والحارث المحاسبي وغيرهما، ولم يبتدعوا المنهج الصوفي القائم على تقديس الشيوخ أحياء وأمواتا، وقراءة الأوراد والأذكار المليئة بالانحرافات العقدية، والإيمان بالخرافات والأكاذيب التي تصدر عن الشيوخ الطرقيين...؛ أقول: إذا كان المتصوف مجتنبا لكل هذه الضلالات والانحرافات التي انتشرت بين المسلمين، عبر القرون وإلى يوم الناس هذا، فإنه قد يتسنى له الفوز والظفر بالأحوال الايمانية الرفيعة، علما بأنه يلام عليه كونه يعلن عن تصوفه و يفتخر به، فيعرف بين الناس بأنه صوفي، لأن شهرته بين المسلمين قد تفضي به إلى الرياء والعجب، أو تجعله يميل إلى معاشرة الصوفية دون غيرهم من المسلمين، أو ينتقص من قدر وشأن إخوانه المسلمين الذين ليسوا على مذهب من مذاهب التصوف. بل كثير منهم يذهب إلى القول بأن "من لا شيخ له فالشيطان شيخه"، إلى غير ذلك من الأخطاء التي وقع فيها كثير من الصوفية.

أما المتصوف المبتدع، الذي يتبع ويمارس تلك الأكاذيب والخرافات، والانحرافات السلوكية والعقدية، المنتشرة في كل الطرق الصوفية القديمة والمعاصرة، ثم هو يدعي الترقي في الأحوال والمقامات الروحية والإيمانية، و يشعر بالطمأنينة والمتعة الباطنية، فهذا شيء طبيعي يجده الإنسان في نفسه، يعني أن الأحوال الروحية او الباطنية الممتعة، ليست من نصيب المسلمين وحدهم، وإنما هي من نصيب أتباع كل الملل من اليهود، والنصارى، والبوذيين، وغيرهم من أصحاب العقائد الوثنية، حيث أنهم يشعرون، كلما تمسكوا بعقيدتهم الباطلة، بأحوال روحية ممتعة. وهذا أمر يعتبر من الحقائق والمعطيات العلمية التي أثبتتها وأكدتها الدراسات والأبحاث النفسية قديما وحديثا.

وكما أن لممارسة الحق ثمرة إيمانية وروحية، كذلك توجد لممارسة الباطل والهوى ثمرة روحية ونفسية، يشعر بها أهل الباطل، ومن خلالها يحسبون أنهم يحسنون

صنعا، أو أنهم أهل النجاة والنعيم في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾[159]؛ فالهوى إله عند أهل الباطل يُعبد، وكل عبادة صادقة ولو كانت باطلة ومنحرفة وضالة، تعقبها لذة روحية مناسبة لها، ويعرف أصحابها أحوالا روحية ونفسية ممتعة، ولله في خلقه شؤون.

والخلاصة أن الصوفي الطرقي، القبوري، المبتدع، قد يحيا أحوالا روحية ووجدانية عجيبة، لكن هناك فرق جوهري بين هذه الأحوال، وتلك التي هي ثمرة اتباع هدي الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي يحياها ويشعر بها المسلمون المتقون، المتبعون للسنة النبوية الصحيحة. فالأحوال الروحية الإيمانية التي نجدها عند هؤلاء المسلمين المتقين، يشهد لها ولصحتها و سلامتها، العقل والنقل. بينما الأحوال الروحية الإيمانية التي تعرف عند الصوفية المسلمين من المبتدعة المنحرفين، لا يشهد على صحتها وسلامتها عقل ولا نقل، وإنما هي حالات أو أحوال روحية وجدانية، استغرقت كيان صاحبها، حتى حالت بينه وبين نور العقل والنقل.

- كيف يمكن للمؤمن أن يرتقي في الأحوال والمقامات الإيمانية؟

إننا معشر المسلمين، كثيرا ما نعاني ضعفا كبيرا في ما يتعلق بحلاوة الإيمان وحرارة الوجدان والروح. ولهذا السبب، حثنا الشرع الحكيم، بل أوجب علينا تزكية النفس ومجاهدتها، من خلال مراقبتها ومحاسبتها، والإكثار من الذكر والطاعات، وأعمال الخير والقربات، وقراءة القرآن، والتدبر في آيات الكون والوعد والوعيد...؛ وبعد القيام بهذه الأعمال والقربات، يرتفع منسوب ومستوى الإيمان في باطن المسلم وقلبه، فتغمره السكينة والطمأنينة، ثم يرتقي في الأحوال والمقامات الروحية والإيمانية. وليس هناك أجمل وأعظم وأسمى وأصح، من الحالات الروحية والإيمانية التي عرفها

[159] - سورة الجاثية، الآية 23

وحظي بها الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم، وخلق عظيم من العلماء والعباد والزهاد والدعاة وغيرهم من المسلمين المتقين، على مر العصور والأزمان. قال رسولنا صلى الله عليه وسلم: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا"[160]. إن الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، لم يظفروا بذلك الكنز الروحي والإيماني، إلا بعد اتباع أوامر ووصايا وحِكَمِ الكتاب والسنة، والالتزام بالمنهج النبوي الصحيح. إن تلك الحالات الروحية السامية التي صحبتهم طوال حياتهم، هي ثمرة الإيمان العميق المتجدد، وثمرة العمل الصالح المسدد، والخالص لوجه الله، والمنضبط بالكتاب والسنة. وقد أكرم الله كثيرا منهم بالكرامات، وألهمهم الحكمة والسداد في القول والعمل، ويسر لهم طريق العلم والتقوى، فكانوا هداة مهتدين ربانيين، يقصدهم طلاب العلم والتربية، وكل المسلمين الراغبين في التعلم وتزكية النفس.

---

[160] - رواه مسلم.

8- علاقة التحليل النفسي الفرويدي بالتصوف اليهودي

يعتبر الكاتب الفرنسي المعاصر دافيد باكان من بين كثير من الكتاب والباحثين الذين اهتموا بإبراز الارتباط بين نظرية التحليل النفسي والعقيدة اليهودية عند فرويد.

"أتى والد فرويد من غاليسي، حيث تسود الهاسيدية، وهي شكل متأخر وواسع الانتشار من الصوفية اليهودية. يقول فرويد في رسالته إلى راباك أن والده أتى من وسط هاسيدي"[161].

"فهو على سبيل المثال، يقر بإحساسه بيهوديته في "حياتي والتحليل والنفسي" إذ يقول:

"ولدت في السادس من آيار- مايو 1856، في فرايبورغ بمورافيا، كان والداي يهوديين وبقيت أنا كذلك".

ويتكرر هذا التأكيد حين دخوله الجامعة.

"عند التحاقي بالجامعة عام 1873 عانيت من خيبة الأمل الشيء الكثير، فقد واجهت التزاما غريبا، كان علي أن أشعرأنني دون غيري من الناس وأنني غريب عنهم لأنني كنت يهوديا(...). ثم يجزم بفعالية التأثير التوراتي عليه.

"إن استغراقي المبكر في التاريخ التوراتي، منذ تعلمت القراءة تقريبا، كان له، كما اكتشفت ذلك فيما بعد، تأثيرا ثابتا على وجهة اهتمامي"[162].

---

[161] - دافيد باكان: "فرويد والتراث الصوفي اليهودي"، ترجمة طلال عتريسي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1988 ص 56.

[162] - دافيد باكان: "فرويد والتراث الصوفي اليهودي"، ص 9.

"من الممكن القول أن هناك استعدادا ثقافيا بين يهود فيينا للتحليل النفسي، ذلك أو أول مستمع لأفكار فرويد عن التحليل كانت الجمعية اليهودية: "بناي برث"، وأن أوائل المحللين كانوا جميعا من اليهود. وأهم شخصية غير يهودية بينهم هو: يونغ، الذي ينتمي إلى تراث صوفي مسيحي. نذكر هنا ما حدث في المؤتمر الدولي الثاني للتحليل النفسي في نورمبورغ عام 1910، يومها اقترح فرويد يونغ رئيسا. فحصل اجتماع احتجاجي في إحدى غرف الفندق قال فيه فرويد:

إن أغلبكم يهود، وبالتالي غير قادرين على اكتساب الأصدقاء للعقيدة الجديدة. على اليهود أن يكتفوا بفتح الطريق. من الضروري أن أنسج علاقات مع الوسط العلمي لأنني أتقدم في السن، وقد تعبت من الهجمات المتواصلة علي. جميعنا في خطر"[163].

"فتحدث تيو برمير في كتابه: "فرويد قارئ التوراة" عن أربعمائة نص توراتي اكتشفها في كتابات فرويد ومراسلاته، وبحث عن علاقته بالكتابات المقدسة، وتماهيه ببعض الشخصيات التوراتية وأهمها موسى ويوسف: الأول كمخلص لشعبه والثاني كمفسر الأحلام. كما ذكر إرنست سيمون، وجود نصوص توراتية في مراسلات هذا الأخير مع مارتا وفليس، تشير إلى معرفة جيدة بالتوراة، وأشار ألكسندر كراينستاين إلى تأثيرات التوراة على على فرويد وأحلامه. وكذلك فعل جوهاشيم شارنبرغ. أما الأصول التلمودية لفكر التحليل النفسي، فقد أفرد لها جيرار حداد كتابه: "الطفل غير الشرعي. المصادر التلمودية للتحليل النفسي: (1981)". وكان بول ريكور قد تناول هذه الفكرة وطريقة التفكير التلمودية والمأثور الشفوي"[164].

---

[163] - المرجع نفسه، ص 9.

[164] - دافيد باكان: "فرويد والتراث الصوفي اليهودي"، ص 9.

"كذلك حين نلاحظ الاستخدام الخارق للرمز الشهوي في الكابال، تقل دهشتنا للموقع المميز للجنس في الفرويدية. من هنا نستنتج أن الامتداد مباشر؛ لقد رفض فرويد اليهودية التقليدية، لهذا سمح لنفسه باللجوء إلى تراث طويل من البدع: التراث الصوفي. النتيجة: وجد التحليل النفسي في هذا التصوف اليهودي نفسه"[165].

"وفقا لأطروحة هذا الكتاب، تُفسَّر مساهمة فرويد في خطوطها الكبرى، على أنها صياغة معاصرة لتاريخ التصوف اليهودي، ومساهمة معاصرة في هذا التاريخ. إن فرويد بطريقة واعية أو لا واعية، قد علمن التصوف اليهودي، ويمكن اعتبار التحليل النفسي بحق، هذه العلمنة"[166].

"هذا ليس كل شيء، فبعد أن حارب ظلم الشريعة، وجرد التراث من أسلحته، وقتل موسى، سمح فرويد لنفسد باستعادة ما هو أنفع له في صراعه الصعب، إنها وليمة جديدة على حساب الطوطم. وبقتله موسى قتل الشريعة كوصية مقدسة، إلا أنه حفظ الوصية التي فسرها كما شاء. وهو يكرر أنه فخور بالانتماء إلى الشعب الذي أعطى التوراة للعالم، ويقول بأن الاضطهاد ولد لدى اليهود مميزات خاصة؛ التعود على الوحدة، وعلى البعد والفكر النقدي، ويضيف بأنه ما كان يمكن إلا ليهودي أن يخترع التحليل النفسي(...). باختصار؛ إنه يسترجع يهوديته هذه المرة كتراث ثقافي وكنفس جماعية"[167].

إن المطلع على تاريخ اليهود من سقوط الأندلس إلى مشارف القرن العشرين، يجده مليئا بأحداث اجتماعية ودينية وسياسية، كانت لها مضاعفات خطيرة على الجماعات اليهودية في أوروبا، فبعد طرد المسيحيين لليهود من إسبانيا سنة 1492

---

[165] - المرجع نفسه، ص 269.

[166] - المرجع نفسه، ص 34.

[167] - دافيد باكان: "فرويد والتراث الصوفي اليهودي"، ص 272.

بدأت سلسلة من المحن والمذابح عاناها اليهود أشد المعاناة. ففي سنة 1648 تعرض يهود أوروبا الشرقية لمذبحة فضيعة ذهب ضحيتها ما يقدر بثلاثمائة ألف يهودي، وتوالت الاضطهادات حتى زمن فرويد، ذلك أن الخلاف الديني بين المسيحية واليهودية ظل قائما طوال القرون، بالإضافة إلى أن المسيحيين كانوا يتهمون اليهود بقتل الصبيان المسيحيين لإقامة بعض الطقوس الدينية اليهودية. وقد عاش فرويد نفسه حادثة من هذا النوع، ولمس اضطهاد اليهود من جراء ذلك.

"تعتبر بداية 1881، بداية لتشكل اليهودية الحديثة. خلال أكثر من عشرين عاما، ضجت أوروبا بصرخات المجازر البشعة كعقاب على القتل الطقسي المزعوم الذي يمارسه اليهود. من حين لآخر نكشف جثة، من الأفضل أن تكون لامرأة صبية مغتصبة، سحب دمها يهودي يحتفل بعيد الفصح، لقد عاش فرويد الذي كان يبلغ الخامسة والعشرين من العمر في 1881، بداية حياته في هذا المناخ اليومي من الكابوس..."[168].

"يلاحظ فرويد أن غير اليهود يمارسون على اليهودي اضطهادا لا يطاق يجده في حياته المهنية، والاجتماعية، والتاريخية، كما يكتشف أن تراثه الخاص يسبب له اضطهادا أكثر قسوة ويقيده داخليا(...)".

"من هذا التصور تستمر قراءة العمل الذي تم إنجازه، حيث يسطع ويتماسك. إن الاعتراض الفرويدي على الدين هو، ببداهة، تصفية حساب مع الدين اليهودي أولا، ومع المسيحية أيضا، وبالتالي مع كل دين، من هنا تصبح الحجج التي يقدمها حججا عالمية"[169].

---

[168] - دافيد باكان: "فرويد والتراث الصوفي اليهودي"، ص 264.

[169] - المرجع نفسه، ص 266.

"يمكن القول أيضا، وهذا ما أعتقده نوعا ما، أن العلمنة هي على الأرجح الطريقة الوحيدة لإنقاذ التراث اليهودي. مثل هذا التكيف فقط يسمح فيما يبدو للإرث اليهودي أن يؤخذ من جديد ويستمر اليهود في المستقبل، وهذا باختصار ما يفعله فرويد"[170].

تحت ضغوط العداء للسامية، رأى فرويد أن الحل يكمن في الثورة على اليهودية التقليدية، وذلك لكي يتمكن اليهود من الاندماج في العالم الغربي، ويتجنبوا النفي والتشريد بل الإبادة. ومن نقده للديانة اليهودية انتقل إلى نقده لمفهوم الدين عموما. ويذكر الباحثون أن آخر تأليف له هو كتاب "موسى والتوحيد" حيث اعتبر موسى أسطورة من نسج خيال اليهود(...) غير أن رفضه للشريعة اليهودية لا يعني رفضه لليهودية ككل. فقد ظل طوال حياته معتزا بيهوديته، وكان يعارض بشدة قضية اعتناق اليهود للمسيحية في مطلع القرن العشرين.

إن فرويد كما سبقت الإشارة إلى ذلك: "حفظ الوصية التي فسرها كما شاء"، حيث احتفظ بكثير من الأفكار الدينية المحرفة، والتي استخدمها في صياغة بعض المفاهيم المتعلقة بالتحليل النفسي منها مفهوم الليبيدو و الجنس(...). وهكذا فإن صياغته للأفكار الجنسية والمتضمنة في الكتب المقدسة عند اليهود مثل الكابال والزوهار، أقول إن صياغته لتلك الأفكار بطريقة علمية، كما يدعي هو وأتباعه، مكنه من المحافظة على استمرارية التراث اليهودي الصوفي الهاسيدي، بل صيره تراثا وفكرا عالميا دون وعي من الناس. وهذا ما يزيد من اقتناعي بفرضية بعض الباحثين المهتمين بأثر الفكر اليهودي في الثقافة والفلسفة الغربية، لتلك الفرضية التي مفادها أن عملية تهويد الفكر الغربي باتت من الأمور المسلم بها.

---

[170] - المرجع نفسه، ص 270.

"لعب التصوف اليهودي دورا خاصا في الصلات بين اليهود والعالم الغربي، فشكل داخل اليهودية، خصوصا بعد القرن السابع عشر، حركة ثورية ضد نمط الحياة اليهودية التقليدية. فتزعزعت قواعد اليهودية الكلاسيكية، وبات دخول اليهود في التيارات الواسعة للعالم الغربي أكثر يسرا"[171].

وأخيرا إنه لا يمكن فهم سيطرة مبدأ الليبيدو والجنس في تغيير مختلف أوجه السلوك الإنساني، كما ذهب إلى ذلك فرويد وانفرد به عن زملائه والمنشقين عنه، ممن أسهموا في تأسيس التحليل النفسي وبلورة أفكاره، إلا في إطار ذلك التحليل الذي أثبته دافيد باكان في كتابه المشار إليه، والذي مفاده أن فرويد كان يعمل من خلال أطروحته التحليلية على علمنة التصوف اليهودي، بما يتضمنه من مفاهيم ترجع في أصولها إلى الكابال والزوهار، محاولة منه في حلة "علمية"، لإنقاذ التراث الديني اليهودي من الاندثار، ولو عن طريق علمنته وتحريفه ومسخه.

لماذا لا نعتبر منظومة التحليل النفسي الفرويدي بما تحتويه من مفاهيم وألغاز (الهو، الأنا الأعلى، الليبيدو،...) تأليفا رمزيا نسج من حيث البنية الرمزية، على غرار رمزية الكابال؟

"نعتقد أن فرويد كتب غالبا بطريقة غامضة، وأنه كانت لديه دوافع، واعية أم لا، لإخفاء بعض أفكاره العميقة ذات الأصل والمضمون الكابالي. المأثور الكابالي نفسه بطبيعته سري، ويتناول في قسم منه أشياء سرية يشترط من حيث المبدأ، ألا تنتقل تعاليمه السرية إلا شفويا وتلميحا إلى شخص واحد فقط في كل مرة، وأن يكون هذا الشخص من ذوي العقول النيرة. هذا ما فعله فرويد حقا في ممارسة التحليل النفسي، وهذه السمة من المأثور الكابالي لا تزال متضمنة في تعليم المحلل النفساني الحديث. فعليه أن يتلقى المأثور شفويا (في التحليل التعليمي). أي كما يقول المحلل النفسي "لاكان": إن التحليل النفسي لا يتعلم من الكتب"[172].

---

[171] - دافيد باكان: "فرويد والتراث الصوفي اليهودي"، ص 16.

[172] - دافيد باكان: "فرويد والتراث الصوفي اليهودي"، ص 41.

ويضيف دافيد باكان: "نسب المتصوفون اليهود خلافا لباقي المتقشفين المتصوفين، الجنسية إلى الله نفسه. يرى الكابالي اليهودي في العلاقات الجنسية بين الرجل وامرأته، تحقيقا رمزيا للعلاقة بين الله والشكيناه. ويحتج بأن التوراة تستخدم الكلمة نفسها للدلالة على المعرفة وعلى العلاقة الجنسية في الوقت نفسه، حيث تعتبر المعرفة ذات طابع شهواني بحت. نشير إلى أن تصور الشكل المثالي للجنسية هو في التغاير الجنسي الذي يتحقق خصوصا في الزواج، تصبح الجنسية الزوجية رمز القوة الخلاقة. وهكذا، فإن استخدام فرويد للكلام الجنسي للدلالة على أعمق مشاكل الإنسانية وأكبرها، يقع تماما ضمن الفكر الكابالي. فقد اتخذ معيارا هو الشكل "التناسلي" للجنسية الذي يعبر عنه بأتم صيغة في الزواج.

رفع التلمود وكافة التراث الأرثوذكسي صيغة الزواج إلى وضع معياري: وقد قبل الكابال هذا الشكل المعياري، إلا أنه حوله إلى لغة أساسية وكونية (كوزمولوجية) وفقا للزوهار، تنزع النفس بقوة إلى الاتحاد بمصدرها في الله. من المميز هنا اللجوء إلى استعارات جنسية للتحدث عن هذا الاتحاد بشكل عام. ويعتبر اتحاد الذكر والأنثى شكل الوجود المثالي، وهكذا تصبح العلاقة الجنسية الإنسانية تعبيرا رمزيا عن القدرات الإلهية، كما تفسر القوة الخلاقة الإلهية نفسها بطريقة شهوانية عميقة.

إن الشكيناه أو الحضور المقدس لله، هي إحدى المفاهيم اللاهوتية اليهودية: ينظر إليها الكابال من زاوية مؤنثة بحتة، فهي القسم الأنثوي من الرب وهي الجزء من الرب نفسه. يبدو أن نظام الكابال بأسره يكمن في هذا المفهوم، المعقد جدا، والذي مهما أعطيناه من معنى، تترابط الجنسية فيه دائما مع هذه الصورة الأمومية. ضمن هذا التشابك في المعنى، نجد عدة أمثلة تسمح لنا بالحكم على طبيعة الجنسية كما يفهمها فرويد، لأن هذه الأخيرة بالنسبة له لا تقتصر على الجماع الجسدي، بل هي صورة معقدة تمتزج فيها جميع الأهداف الإنسانية"[173].

---

[173] - دافيد باكان: "فرويد والتراث الصوفي اليهودي"، ص 225-226.

الفصل الخامس[174]

مختصر "تجربتي الصوفية "

1- الدراسة الثانوية والجامعية

2- العوامل الممهدة للخلوة الصوفية

1.2- الحرية والإباحية في العاصمة الفرنسية

2.2- نسج علاقات الصداقة بفرنسيين متصوفة

3.2- معاناة نفسية

3- الخلوة الصوفية

1.3- ولوج الخلوة الصوفية

2.3- ممارسة الذكر

3.3- حلاوة الذكر

4.3- محبة القرآن

5.3- أحلام ورؤى

4- ما بعد الخلوة الصوفية

1.4- السياحة في فضاء التصوف

2.4- واردات وخواطر إيمانية

3.4- في أدب الواردات والخواطر

4.4- واردات وخواطر إيمانية بعد التوبة

5.4- رجوع السفينة إلى شاطئ الأمان

---

[174] - هذا الفصل؛ تلخيص مركز لكتابي: "تجربتي الصوفية؛ مساهمة في فهم الكيان الصوفي".

1- الدراسة الثانوية والجامعية

لقد كانت سنة 1389هـ/1970م، سنة حاسمة في حياتي وبداية عهد جديد يتسم بحب العلم والمعرفة، لم تلبث أن ظهرت آثاره في دراستي بثانوية القاضي عياض بتطوان.

كان عدد الحاضرين في الجلسة العلمية بمقصورة مسجد العيون، يقارب العشرة، وقد جلسوا على الحصير يستمعون إلى دروس في السيرة والفقه والتفسير والأدب والنحو والبلاغة. وبفضل شخصية الفقيه؛ أبو أويس محمد بوخبزة المرحة والانبساطية، لم تكن هذه الدروس مملة، بل كان إقبالنا عليها شديدا ورغبتنا في التحصيل قوية. وكان أستاذنا جزاه الله عنا خيرا ومد في عمره، كثيرا ما يدعونا إلى بيته ويقدم إلينا الشاي والحلويات، كما يتحفنا بالنوادر الأدبية والتاريخية، وأحيانا يدخلنا مكتبته القيمة ويعيرنا الكتب التي كنا نرغب في مطالعتها. لقد غرس فينا حب القراءة والبحث، وعلمنا آداب المناقشة والحوار، كما رغبنا في الدعوة الإسلامية، وحثنا على قراءة كتب الدعاة من القدامى والمحدثين، من أمثال تقي الدين بن تيمية، وحسن البنا، وأبي الأعلى المودودي، وسيد قطب وأخوه محمد قطب رحمهم الله.

وبما أنه كان يميل إلى المذهب الظاهري في كثير من المواقف والأحكام الفقهية، لم يكن يخفي إعجابه بشخصية ابن حزم، مما دفعني إلى الاهتمام بهذا العالم الموسوعي الفذ، فقرأت بعض مؤلفاته التي أسرني فيها كلامه المنطقي والفلسفي، ومنها طفقت أبحث في الكتابات الفلسفية عند المسلمين؛ فقرأت لأبي علي بن سينا ولأبي نصر الفارابي، ولأبي حامد الغزالي، ولأبي الوليد بن رشد، ولم أبلغ بعد سن العشرين.

وسرعان ما بدأت بذور جلسات أستاذنا الدينية والثقافية تثمر، حيث تجلى أول الغيث في تأسيس مجلة "لسان الطالب" بثانوية القاضي عياض، والتي أسهمت فيها

بمقال حول "مشكلة الملحدين". كما حرر صديقي وزميلي في الدراسة الأمين بوخبزة، مقالا تحت عنوان "الماركسية تحارب الدين". وقمنا بتوزيع بعض أعداد المجلة على ثانويات المدينة. غير أننا فوجئنا بعد بضعة أيام، عندما ذكرت جريدة "البيان" أسماءنا قائلة بأن "الإخوان المسلمين بدأوا يفرخون... في ثانوية بمدينة تطوان" !! ولم يكن هذا التهديد ليثنينا عن عزمنا، بل كنا نستغل كل الفرص لنوضح مبادئ الإسلام لتلاميذ المؤسسة، ونحذرهم من الوقوع في حبائل "المتمركسين" المعجبين بتعاليم ماركس ولينين، والذين كانوا يحلمون بثورة شي غيفارا في الوطن العربي.

ثم إني شغفت في هذه السنوات بموضوع الجمال، فكنت أكثر من التأمل في الأشياء الجميلة سواء تعلق الأمر بالانسان، أو الحيوان، أو النبات، أو الجماد؛ مثل الجبال والوديان، مما دفعني إلى دراسة موضوع الجمال من خلال الشعر والفلسفة. ثم نظمت أبياتا في الغزل، لكن سرعان ما تركت الشعر والتجأت إلى الرسم، غير أني أعرضت عن كل ذلك لانجذابي إلى الفكر والفلسفة والثقافة الإسلامية.

ولما حصلت على شهادة الباكلوريا في الآداب العصرية وانتقلت إلى مدينة فاس لمتابعة الدراسة الجامعية سنة 1975م، كان من البديهي أن أختار شعبة الفلسفة، فكنت أحضر الدروس والمحاضرات بشغف واهتمام بالرغم من أن بعض الأساتذة المتمركسين كانوا يمارسون علينا نوعا من الإرهاب الفكري من خلال دروسهم وكتاباتهم. وأذكر أن أحدهم، ولا داعي لذكر إسمه، فاجأ طلبته قائلا: إني نبئت بأن مجموعة من الطلبة المسلمين بدأت تنشط في الوسط الجامعي وإني لها بالمرصاد!!. وقد كان لكلامه هذا وقع سيئ في نفوس الطلبة الغيورين على دينهم. بل كان بعضهم يخفي تدينه عن زملائه المتمركسين اتقاء شرهم. وقد كنت لهذه الأسباب أكثر من الاطلاع على كتابات الفكر اليساري والفلسفات المادية. وذات يوم اشتريت كتاب "مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط" للدكتور طيب تيزيني

المتمركس، ولما فرغت من قراءته واطلعت على ضحالة أفكاره والتي تجلت في محاولة إسقاط المنهج المادي الجدلي على كتابات الكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد الفلسفية، فكرت في تحرير مقال نقدي حول الكتاب المذكور، فحررته ونشرته في جريدة "النور" التي تصدر بمدينة تطوان تحت عنوان: "قراءة نقدية في كتاب مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط".

أتاحت لي الدراسة الجامعية بفاس، فرصة الاطلاع على التيارات الثقافية والسياسية، والاستفادة من المناقشات مع الطلبة من مختلف الاتجاهات والتخصصات الأدبية والفكرية. وعندما انتقلت إلى السنة الدراسية الثالثة اخترت تخصص علم الاجتماع، وبدأت أهتم بالدراسات الاجتماعية الأمر الذي شجعني على القيام ببحث اجتماعي ميداني متعلق بالعمال المغاربة المهاجرين بمدينة برشلونة في إسبانيا، وذلك في إطار مادة البحث المقررة في سنة الإجازة.

أقمت في هذه المدينة سبعة عشر يوما كنت خلالها أجري مقابلات مع عينة من أولئك العمال الذين كانوا يعانون الغربة والأزمات النفسية والاجتماعية والمادية. وبالرغم من أن فرص العمل كانت متوفرة لكل الخريجين الموجزين، فإنني آثرت المضي قدما في الدراسة والبحث، خاصة بعد أن يسر الله لي منحة من وزارة التربية الوطنية لمتابعة الدراسة العليا بفرنسا.

ومع بداية السنة الدراسية (1979-1980م) غادرت مطار طنجة متجها نحو باريس طلبا للعلم والمعرفة.

ثم قصدت جامعة السوربون وولجت مكتب تسجيل الطلبة الجدد، حيث تم قبولي في شعبة علم الاجتماع، تخصص الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية. وبعد سنة من البحث والدراسة، أحرزت على دبلوم الدراسات العليا المعمقة في موضوع: "دراسة حول الوضعية القانونية للعمال المغاربة المهاجرين بفرنسا".

ومما أثار انتباهي فور وصولي إلى باريس، اهتمام كثير من الكتاب الفرنسيين بالإسلام وقضايا المسلمين السياسية والاجتماعية، خاصة بعد اندلاع الثورة الإيرانية التي وصلت أصداؤها إلى أسماع كل المواطنين، كما تسابقت الصحف إلى نشر أخبارها ووصف أحداثها ووقائعها. وقد دفع هذا الحدث التاريخي كثيرا من المعاهد والمؤسسات الثقافية، وكذا المتخصصين في موضوع الإسلام وشؤون المسلمين إلى مزيد من البحث في هذا الموضوع. فلم تمض سنة واحدة حتى أضحت واجهات المكتبات الباريسية مليئة بالمؤلفات والدراسات حول الإسلام دينا وثقافة وسياسة، كما لاحظت فيما بعد إقبال كثير من الطلبة الفرنسيين على شعبة الدراسات الإسلامية في جامعة السوربون.

ومن خلال مذاكرتي مع بعض أساتذة الجامعة وبعض الطلبة، أدركت أن الإنسان الغربي انطلاقا من أحداث الثورة الإيرانية، ومن وقائع الصحوة الإسلامية عموما، بدأ يشك في معلوماته عن الإسلام والمسلمين، وأنه قد آن الأوان لمراجعة بعض مفاهيم ومعطيات الاستشراق حول هذا الدين، وأن العلمانية التي شملت المجتمعات الغربية ليس من السهل تطبيقها في المجتمعات الإسلامية، وأن مقولة عالمية الثقافة الغربية ليست مطلقة.

وذات صباح ركبت قطار المترو قاصدا معهد الدراسات العليا الشرقية لكي أحضر درس الأستاذ ميشال شولدفيتسك حول التصوف الإسلامي. ولما دخلت قاعة الدرس وجدتها غاصة بالطلبة والباحثين المغرمين بالفكر الصوفي. كان الأستاذ على وشك الانتهاء من مقدمة تتعلق بكتاب "عوارف المعارف للسهروردي" المتصوف، والحاضرون ينصتون إليه في خشوع كأن على رؤوسهم الطير. ثم شرع في قراءة نص طويل من الكتاب المذكور وأتبعه بترجمة فورية. ولما انتهى من الترجمة طلب من امرأة شابة، كانت جالسة بالقرب منه أن تقوم بتصحيح ما قد يكون قد ارتكبه من أخطاء

أثناء القيام بترجمته السريعة للنص الصوفي، فلبت طلبه وقومت بعض التعابير الواردة في الترجمة. ولقد علمت فيما بعد أن السيدة كانت مبرزة في اللغة العربية، وأنها ابنة الأستاذ المذكور، الذي أعجبت بتواضعه ونزاهته العلمية. وبعد خروجي من قاعة الدرس أخبرني أحد الطلبة أن الأستاذ يعمل مديرا لإحدى دور النشر الكبرى في فرنسا، كما بدأ يشتغل منذ دخوله في الإسلام بالكتابة عن المتصوفة المسلمين، خاصة محيي الدين بن عربي.

ولما اطلعت على بعض تآليفه لمست من خلالها إعجابه الشديد بنظرية وحدة الوجود الصوفية. وسمعته مرة يمدح ابن عربي ويثني على كتابه "الفتوحات المكية" الذي اعتبره أعظم كتاب في الفكر الصوفي على الإطلاق، كما أكد بأنه من المستحيل نقل بعض فصول هذا الكتاب إلى لغة أخرى لغزارة المعاني وعمقها، ولأن لغة الذوق إذا بلغت درجة معينة من العمق والتجريد، فإنها تستعصي على الترجمة.

لم يكن الأستاذ الباحث ميشال شولديفيسك وحيدا في هذا المجال، بل هناك عشرات من الباحثين والأساتذة الذين يهتمون بالموضوع نفسه. ويبدو أن موضوع التصوف قد تبوأ مكانة لا بأس بها في الجامعات، والمعاهد، والمؤسسات والجمعيات الثقافية التي تهتم بدراسة الحضارات الشرقية. كما أن دخول الفرنسيين في الإسلام غالبا ما يتم من باب التصوف. وهذا يسري حسب اطلاعي على معظم الغربيين الذين اختاروا الإسلام دينا جديدا، ذلك لأنهم يلتجئون إلى روحانية التصوف، فارين من لهيب الحياة المادية. ولا يستغرب المرء عندما يسمع بوجود فرنسيين منتسبين إلى زاوية أو طريقة صوفية معينة. ولقد التقيت بمجموعة منهم ينتسبون إلى شيخ يعيش في دمشق، حيث يقومون بزيارته عندما يشتاقون إليه. كما التقيت بآخرين لهم علاقة قوية بالزاوية البودشيشية ببركان.

ولقد كنت من ناحية أخرى حريصا على حضور دروس ومحاضرات بعض كبار الأساتذة المتخصصين في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية؛ وعلى رأسهم الأستاذ كلود ليفي ستراوس الذي أسس الأنثروبولوجيا البنيوية، كما بلور نظريات كثيرة في ميدان الفلسفة البنيوية عموما. كما كنت استمع إلى دروس الأستاذ جورج بالانديه المتخصص في الأنثروبولوجيا السياسية، وكذا إلى دروس ميشال فوكو المتعلقة بفلسفة المعرفة، ومحاضرات الأنثروبولوجي المستشرق جاك بيرك، والأستاذ الأنثروبولوجي أندري آدم. ولقد كنت معجبا بهؤلاء الأساتذة الكبار ومنكبا على قراءة وفهم ما كتبوه من كتب ومقالات، كما كنت منبهرا بالأساليب والطرق والمناهج العلمية التي يوظفونها في تحليل نظرياتهم وأبحاثهم.

بيد أن رياح التصوف هبت على حين غرة، فتغيرت الوجهة ومال القلب إلى نسمات المعرفة الروحية.

2- العوامل الممهدة للخلوة الصوفية

1.2- الحرية والإباحية في العاصمة الفرنسية

لما حللت بباريس في فاتح محرم الحرام سنة 1401هـ/نونبر1979م وبدأت أحتك بأفراد هذا المجتمع الجديد، كانت تنتابني أحيانا، حالة نفسية رهيبة مصدرها الخوف من الذوبان وفقدان الهوية. غير أن اهتمامي بالدراسة والتحصيل كان يخفف من وطأتها، كما أن العلاقات الأولى التي نسجتها مع بعض الطلبة المغاربة جعلني أشعر بنوع من الدفء النفسي. والحقيقة أن الواقع النفسي والشعوري للطالب العربي المسلم في البلدان الأوربية قلما يسلم من الهزات العنيفة، لأن هذا الواقع يشكل مسرحا للصراع بين ثقافتين متعارضتين أشد التعارض. ولقد أثبتت الدراسات النفسية المتخصصة في مجال الهجرات البشرية من آسيا وإفريقيا إلى أوربا، أن المهاجرين إلى هذه القارة قلما يجتازون عقبة التكيف بدون مشاكل، هذا إذا افترضنا وجود تكيف حقيقي وكامل؛ لأن هذا الأخير لا يتحقق في المجتمعات الغربية، إلا إذا تخلى المهاجر كليا عن ثقافته الأصلية. هذا هو منطق الثقافة الغربية؛ إنه منطق الاستعلاء والقوة، علما بأن التعايش الثقافي كان سمة أساسية من سمات كثيرمن الحضارات الإنسانية مثل الحضارة الإسلامية. وما سياسة العولمة التي تتزعمها وتمارسها الولايات المتحدة الأمريكية، إلا دليل من بين عشرات الأدلة المعبرة عن ذلك المنطق السخيف المنافي لمفهوم الحضارة الإنسانية.

ولعل مظهر الحرية الفكرية والعقدية والأخلاقية، والإباحية الجنسية، من بين المظاهر العنيفة التي تواجه المهاجر المسلم وتتحداه، بل قد تحدث له مع الزمن، شروخا خطيرة في كيانه الثقافي والعقدي. إن هؤلاء المهاجرين المسلمين الذين يقيمون في مجتمعات تختلف ثقافيا، واجتماعيا، ودينيا عن مجتمعاتهم الأصلية، معرضون لا

محالة لهزات وأزمات نفسية خطيرة ورهيبة، خاصة إذا كانوا لا يرغبون في استبدال ثقافتهم التي نشأوا عليها وتربوا في أحضانها بثقافة المجتمع الجديد. وبما أن مقولة "الإنسان ابن بيئته" لا ترحم، والسنن والقوانين الاجتماعية تتسم غالبا بصفتي القهر والحتمية، فإن هؤلاء المهاجرين يؤدون ثمن هجرتهم باهضا، حيث يتجلى ذلك في المعاناة الناجمة عن التصادم الثقافي والعقدي في مجتمع الهجرة، خاصة أن هذا المجتمع لا يقبل ثقافة وعقيدة المهاجرين المسلمين، بل يستعمل آليات الإكراه النفسية، والاجتماعية، والثقافية، والقانونية، لدفعهم إلى التنكر لثقافتهم وعقيدتهم، أو للانسلاخ عنهما. كما أن الثقافة الغربية بحكم نزعتها المركزية، لا تعترف بالثقافة الإسلامية الشرقية، بل تصرح بكراهيتها وعدائها لها، وهذا أمر أبين من فلق الصبح، ويمكن ملاحظته من خلال الاطلاع على ما تنشره وسائل الإعلام، وما يكتبه المستشرقون وغيرهم من الكتاب الغربيين، حول قضايا الإسلام وثقافة المسلمين، وحياتهم الاجتماعية والسياسية. كل ذلك انطلاقا من "النزعة المركزية"، التي هي لسان حال الثقافة الغربية.

ثم إن الغربيين عموما يكرهون العرب والمسلمين، لأسباب تاريخية وعقدية يعرفها الخاص والعام. أما خرافة العلمانية أو الإلحاد، أو المادية الجدلية، أو الاشتراكية والشيوعية، أو ما شابه ذلك من المفاهيم الفلسفية، التي أفرزتها الثقافة الغربية في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، فإنها لم تستأصل جذور العقيدة المسيحية المحرفة من نفوس الغربيين، ولم تمح المنطق الصليبي من ذاكرتهم. إن المسيحية الصليبية بشكل من الأشكال، ما زالت تؤثر في بواطنهم وبنيتهم اللاشعورية. والمنطق الصليبي لا ينفك حاضرا في سلوكهم، ومواقفهم السياسية تجاه المسلمين والعالم الإسلامي، بل هو ألزم لهم من ظلهم. أما ما يتبجحون به من شعارات: ديمقراطية، حقوق الإنسان، الحوار الحضاري والديني، فكله تمويه وهراء. وما وقع

ولا يزال على أرض العراق، وأفغانستان، وفلسطين، من مجازر، وقتل، وهدم، وتشريد للأسر، وإبادة للقرى والمدن، وما يحاك ضد الإسلام عقيدة وثقافة باسم "محاربة الإرهاب"، ليس إلا دليلا من بين مئات الأدلة على أن عقيدة القرون الوسطى المسيحية ما زالت تسري في دماء الغربيين، وأن روح الصليبية تغذي إلى يوم الناس هذا، نفوس النصارى من الأوربيين والأمريكيين وغيرهم بالحقد والكراهية تجاه المسلمين.

هذه الحقائق الجوهرية يجهلها أو يتجاهلها المهاجر المسلم في بلاد المهجر، وهي السبب الرئيس في ما يعانيه من ظلم، وعنصرية، وتهميش، واستلاب، واغتراب، وضياع للهوية.

إن مناخ الحرية السائد في هذه البلدان له علاقة بماض تاريخي، يرجع إلى حصيلة الصراع الذي كان قائما بين أصحاب الكنيسة و أصحاب الفكر المادي والسياسي، والذي توج بانتصار الفريق الثاني، حيث شهدت البلدان الأوربية بزوغ العلمانية، وانتشار المذاهب المادية والإلحادية. فالحرية في هذه الديار جاءت نتيجة تطور ثقافي وعقدي وسياسي معين، ونتيجة فلسفة خاصة اختارها أصحابها ونسجوا انطلاقا منها أنواعا من التصورات والأفكار والنظم والقوانين.

أما انبهار بعض الطلبة العرب وغيرهم من المهاجرين بهذه الحرية، فإنه لا يعبر إلا عن ضعف العقيدة الإسلامية لديهم، كما يعبر عن قوة المؤثرات واستعلاء الثقافة الأوربية ورفضها للثقافات الأخرى، وكأن لسان حالها يقول: إما أن تعتنق مذهبنا في الحياة، وإما ترحل عنا. ومما لا شك فيه أن مظاهر الخلاعة والإباحية الجنسية، والاختلاط الفاحش والعري، وما إلى ذلك من ألوان الحيوانية والبهيمية، بالإضافة إلى الإلحاد والاستهزاء بالديانات، والأخلاق السامية مثل الحياء والمروءة؛... كل ذلك كان له وقع سيئ في نفسي، الأمر الذي جعلني أمقت هذه الحضارة، وأبحث في الدراسات

التي اهتمت بنقدها وإبراز عيوبها؛ فقرأت في هذا الشأن بعض مؤلفات أوزوالد شبنجلر، وبرنارد شو، ورونيه كينو وغيرهم.

"كان انطلاق الغرب نحو الاباحية المفرطة ردة فعل على القيود المسيحية الكنسية المتزمتة، التي تكبت النوازع الفطرية وتغلها عن الانطلاق. ولعلهم حسبوا أن هذا الانطلاق هو الحل الحقيقي لمشكلة الجنس الجامحة التي تزداد تعقدا كلما ازدادت المدنية الغربية تقدما على طريقتها المادية الخالصة.

ويصف الكاتب الأمريكي وليام ديورانت الحضارة الغربية فيقول: "إن ثقافتنا اليوم سطحية ومعرفتنا خطيرة، لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأغراض، وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني، وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقيتنا، إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن..."[175].

وخلاصة القول: إن واقع الاستعلاء والهيمنة وإلغاء الآخر، مما تتميز به الثقافة الغربية، بالإضافة إلى ما ذكرت من مظاهر التحرر والخلاعة والإباحية؛ هذه الأسباب شكلت أحد العوامل الرئيسة في ظهور ميلي إلى نوع من الانطوائية والهروب، الأمر الذي شجعني على الاهتمام بالتصوف واللجوء إليه واتخاذه حصنا وملجأ.

2.2- نسج علاقات الصداقة بفرنسيين متصوفة

شاء ربي وخالقي أن أتعرف إلى ثلاثة من الطلبة التونسيين؛ أحدهما يدرس الطب والآخران يدرسان الهندسة. وكانوا على صلة متينة بأسرة فرنسية تدعى؛ روتي، حيث كانوا يزورون بيتهم كل يوم سبت بعد العصر. وذات يوم اقترحوا علي مصاحبتهم فأجبتهم لذلك.

---

[175] - سيد قطب: "الإسلام ومشكلات الحضارة" دار الشروق 1992 ص 135.

كان حديثنا ونحن في القطار، يدور حول موضوع هذه الأسرة الفرنسية وما تتصف به من صفات التدين والمعرفة. وبعد ما يقرب من عشرين دقيقة، أشرفنا على مدينة صغيرة تدعى أنطوني، وهي من المدن الصغيرة التي تنتشر في ضواحي العاصمة الفرنسية. وبما أن الوقت كان وقت صيف، فإن السيد يعقوب روتي قد استقبلنا في بستان منزله الجميل، وقدم إلينا أكوابا من المشروبات الطبيعية أعدتها زوجته.

ولقد كان إعجابي كبيرا وأنا أستمع إلى حديث هذا الرجل في موضوع التصوف، حيث كان ينتقل من القرن الثالث الهجري إلى القرن العاشر، ثم يرجع إلى القرنين السادس والسابع، متحدثا عن أقطاب الصوفية وأعلامهم، ومستشهدا بأفكارهم، وأشعارهم وخواطرهم، وما قاموا به من أدوار في إصلاح وتربية النفوس وتزكيتها، كل ذلك بلغة فرنسية رصينة على طريقة الأساتذة المتخصصين .وكنت بين الفينة والاخرى أتفرس وجوه أصدقائي التونسيين، فأجد عيونهم ترنو اليه بإعجاب كبير، ناهيك عن العبارات الأدبية والأخلاقية التي كان يستعملها معنا ومع عموم الزوار، مما تجعل القلوب تهوي إليه وإلى منزله .كما كان يقوم بخدمة زواره بنفسه ويكرمهم أيما إكرام. بعد أن أدينا صلاة العصر في قاعة فسيحة، بدأ الزوار يتوافدون على البيت إلى أن قارب عددهم عشرين شخصا. وبعد هنيهة، غادروا تلك القاعة ثم رجعوا إليها، وقد لبس كل واحد منهم عباءة بيضاء، واستعملوا الطيب وجلسوا في شكل حلقة صوفية، ثم دخل الشيخ عبد الحميد روتي، والد السيد يعقوب، وهو رجل في سن الثمانين، وكان قد دخل في الإسلام في بداية الأربعينيات من القرن العشرين الميلادي. فلما جلس وحيانا، نظرت إلى القوم فإذا هم صامتون ينظرون إليه من طرف خفي.

وبعد قراءة الفاتحة، افتتح الشيخ حزبا من أحزاب أبي الحسن الشاذلي فتبعه الحاضرون، وقد أخذ كل واحد منهم كتيبا يقرأ فيه، ثم تُليت أحزاب أخرى ودعوات.

واستمر الحال إلى وقت الغروب. وبعد الصلاة المغرب، عاد القوم إلى وضعهم الحلقي، ثم جئ بأطباق مليئة بالزيتون، وأخرى بالخبز. ولاحظت أن الحاضرين كانوا أثناء الأكل، يتجاذبون أطراف الحديث بنوع من المودة الصادقة، وكأنهم أعضاء أسرة واحدة. بعد ذلك انصرفنا وودعنا السيد يعقوب روتي على أمل اللقاء يوم السبت القادم.

وهكذا بعد أن توطدت العلاقة بيني وبين أسرة روتي، علمت أن السيد يعقوب وأباه قد كتبا باللغة الفرنسية كتبا لها علاقة بالتصوف، وأخرى تعرف بالدين الإسلامي. وقد أهديا إلي نسخا منها. كما كنت أستعير من مكتبتهما كتبا في التصوف كلما قمت بزيارتهم.

لقد شكل هذا اللقاء منعطفا خطيرا في حياتي، كما كان له أثر عميق في كياني، ومن ثم فإني أعتبره من العوامل الأساسية في ولوجي عالم التصوف والتجربة الصوفية؛ وكان ذلك سنة 1400 هـ موافق لسنة 1981م.

لم تكد تمر أيام قليلة بعد التعرف إلى أسرة روتي، حتى ألفيتني أنتقل بين الكليات والمعاهد العليا، باحثا عن أساتذة الدراسات الإسلامية والشرقية، لعلي أجد من بينهم من يشفي غليلي بحديثه عن التصوف الإسلامي. كما كنت أخصص الساعات الطوال لقراءة كتب المتصوفة وذلك في مكتبات الجامعات، وكذا في المكتبات العمومية مثل المكتبة الوطنية الشهيرة. وهكذا قرأت لأبي حامد الغزالي كتابه "إحياء علوم الدين"، ومجموعة من رسائله مثل "المنقذ من الضلال"، و"الأربعين في أصول الدين"، "ومعارج النفس إلى مدارج القدس"، و"مشكاة الأنوار"، و"المضنون به على غير أهله" و"القسطاس المستقيم" و"إلجام العوام عن علم الكلام"، و"الذرة الفاخرة في علوم الآخرة". كما قرأت كتاب "قوت القلوب" لأبي طالب المكي، و"الرسالة" لأبي القاسم القشيري، وأجزاء من كتاب "الفتوحات المكية" لمحي الدين بن عربي، وعشرات من

رسائله، كما قرأت رسائل الحكيم الترمذي وكتب شهاب الدين السهروردي. وقرأت كتاب "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم، وكتابات ابن سبعين، وأقوال أبي منصور الحلاج، وأبي يزيد البسطامي، والشبلي، وأبي القاسم الجنيد، ورسائل الحارث المحاسبي. كما قرأت عشرات الكتب عن التصوف باللغة الفرنسية.

لقد مكثت ما يقرب من سبع سنوات، وأنا ألتهم كتب الصوفية وأحلق بخيالي في عوالمهم اللامحدودة، وأنعم بطمأنينة نفسية عميقة. فأصبح هذا العالم الباطني الذي أسبح في أرجائه، بمثابة الحصن المنيع الذي حال دون تسرب سموم الثقافة المادية إلى كياني، بل كنت أتجول في شوارع العاصمة الفرنسية وأنا مشغول بالذكر، أو التفكر، أو المحاسبة النفسية. ولم يعد للصور الخليعة المعلقة على جدران محطات المترو، ولا لمظاهر الخلاعة المنتشرة هنا وهناك، ولا لمعاني الثقافة المادية وجود في ذهني، أو رسم في مخيلتي. وكانت شخصية أبي حامد الغزالي أهم شخصية صوفية أثرت في نفسي، بحيث لم أكن أمل من قراءة كتبه، كما كنت مولعا بتحديق النظر باستمرار، في رسائل ابن عربي الحاتمي، والغوص فيما تتضمنه من معاني وأفكار. وقرأت كثيرا من مؤلفات الشيخ عبد الواحد يحي، رونيه كينو سابقا، المفكر والمتصوف الفرنسي.

لقد كان لهذا الرجل باع كبير في ميدان التصوف العالمي، بحيث كتب عن التصوف الصيني والفارسي والهندي والإسلامي، وكان يتقن عدة لغات، فاقتنيت جل كتبه خاصة فيما يتعلق بالتصوف وبنقد الحضارة الغربية.

وعندما أنهيت رسالتي حول وضعية العمال المغاربة المهاجرين في باريس وضواحيها، وحصلت على شهادة دكتوراه السلك الثالث في علم الاجتماع؛ تخصص الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية سنة 1984م، رجعت إلى بلادي راجيا من الله أن أجد مكانا بين أسرة التدريس في إحدى الجامعات المغربية، لكن بعد أسابيع من

التنقل بين تلك الجامعات، رجعت إلى مدينة تطوان بخفي حنين راضيا بقضاء الله وقدره. ولكي لا أظل عاطلا، بدأت أطرق أبواب بعض الثانويات الخاصة، فانتهى بي المطاف إلى ثانوية ابن خلدون بمدينة طنجة، حيث قمت بالتدريس فيها بضعة أشهر. ثم ألم بي حنين الرجوع إلى الديار الفرنسية لمتابعة الدراسة والتحصيل وذلك سنة 1985م.

قصدت جامعة السوربون من جديد واخترت هذه المرة شعبة الفلسفة، وبدأت أبحث عن أستاذ مشرف بعد أن حددت موضوعا للبحث والدراسة، وهو: "الفكر الصوفي عند أحمد بن عجيبة المغربي". فطلبت مقابلة الدكتور محمد أركون، وعرضت عليه الموضوع، لكنه اشترط علي استعمال منهجية التحليل النفسي، واستخدام آليات وأدوات علم النفس في دراستي لهذه الشخصية الصوفية. فقلت له: إن موضوع التصوف لا يمكن إخضاعه لآليات العلوم الإنسانية الحديثة، كما أن التجارب الصوفية لا علاقة لها بالأمراض والعقد النفسية كما تدعون. وبعد أيام عثرت على أستاذ آخر كان يدعى بيير تييه، فاقترحت عليه موضوعا آخر تحت عنوان: "دراسة حول المعرفة والأخلاق عند أبي حامد الغزالي"، فقبل الإشراف وتم تسجيلي في الجامعة. وبعد ثلاث سنوات أنجزت الأطروحة وهيأت نسخا منها وقدمتها للإدارة قصد المناقشة، بيد أنني سافرت إلى المغرب في نهاية الموسم الدراسي لسنة 1988م وحصلت على منصب أستاذ مساعد في كلية أصول الدين بتطوان، فلم أرجع بعد ذلك إلى فرنسا، وظلت ولا زالت الأطروحة معلقة !!.

وفي سنة 1999م حصلت على شهادة دكتوراه الدولة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي تطوان في موضوع: " الاستغراب في المغرب الأقصى؛ قضاياه وأهدافه"، الأمر الذي زهدني في الرجوع إلى باريس لمناقشة الأطروحة المعلقة.

3.2- معاناة نفسية

بينما أنا جالس في غرفتي ذات صباح وقد أطلقت العنان لخيالي، إذا بي أطل من نافذة على عالمي الجنة والنار؛ ينشرح صدري تارة وينقبض أخرى، ويهيم قلبي لحظات ويطرب لانعكاس ألوان النعيم في مرآته، ثم يضيق ويتألم لورود ما يخيفه ويزعجه، من صور العذاب وهول الجحيم، حتى غدا باطني مسرحا لصراع عنيف بين النعيم والجحيم، والشقاوة والسعادة والطمأنينة والحيرة. وما هي إلا دقائق معدودة حتى فوجئت بنداء ينبعث من صميم قلبي وهاتف يهتف بي: إلى متى هذا النوم؟ إلى متى هذه الغفلة؟ ألا من يقظة توقظ عزمك وتضيء ما ادلهم من ليل حالك وتذيب حجارة القسوة الجاثمة فوق قلبك. أما آن لهذا القلب أن يلين ويخشع؟ ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾؟ ولهذه العين أن تبصر وتتبصر وتدمع؟ ما لهذا خلقت يا عبد الله؟ وما خلق الله شيئا عبثا أو سدى، بل كل في فلك يسبحون وبكل لسان يسبحون، فأين لسانك؟ وأين قلبك؟ وأين قصدك؟ وما وجهتك؟.

هيهات هيهات، أتظن الأمر سهلا وتحسب الوجود عبثا؟ كلا؛ فالأمر أعظم مما تتصور، والخطب أجل مما قد يخطر على بالك، والفضاء ضاق بما رحب، وعجلة الزمان أوشكت على التوقف، بعد أن أباد الأمم والقرون تعاقب الحركة والسكون، وليل نهارك قد جن عليك ولما تعاين نجومه، أقم قيامتك قبل قيامها فهول القيامة أشد ما ينتظر والساعة أدهى وأمر. وليوقفنك رب العزة بين يديه وليسألنك سؤال عزيز مقتدر، وقتئذ تبلغ القلوب الحناجر وتفترس الندامة الصدور ويعض الظالم على يديه ولات حين مناص.

"يا عبد الله أنت أكرم على الله من أن تسحرك الدنيا بظلها الزائل، أو تعبث بك الشياطين وتزج بك في حمأة الشهوات والضلالات، وإلهك ينتظر رجوعك وتوبتك ويفرح بذلك أكثر من فرح أم برجوع ولدها المفقود".

ومرت الأيام وأثر ذلك الهاتف يزداد توقدا، وصوت النداء الباطني يزداد قوة وحدة، فعزمت على الخروج عن العادات والمألوفات، "والاقتداء بأرباب العزائم المشمرين إلى اللحاق بالملأ الأعلى، ووطنت نفسي على ذلك، كيف لا والعمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة، والفرص بروق تأتلق، والأوطار في غرضها تجتمع وتفترق، والنفوس على فواتها تذوب وتحترق.

فلما استقرت في باطني بوارق اليقظة، وانزعج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين، أخذت في أهبة السفر إلى الله لا ألوي على شيء، وعقدت عقدا جازما على المسير ومفارقة كل قاطع ومعوق ومرافقة كل معين وموصل"[176].

قال الشاعر:

"فحي على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم

ولكننا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسلم

ثم أعقب حال اليقظة والانتباه، شعور عميق بالذل والانكسار، والخضوع والافتقار للرب سبحانه وتعالى، يقول رب العزة: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾[177].

---

[176] - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج ، ص

[177] - سورة فاطر، الآية 15

ومضت أسابيع، بل شهور، وأنا على هذه الحال؛ أشعر بانجذاب قوي نحو الحق سبحانه وتعالى، وغدوت حريصا على أداء الصلوات في وقتها، كما شرعت في الاجتهاد في نوافل الطاعات، وفي مطالعة كتب فقه العبادات بالرغم من صعوبة العيش والإقامة في بلاد الغربة. وتبين لي مع مرور الأيام بيان يقين، أن الدنيا حقيرة قليلة الوفاء، كثيرة الجفاء، تحزن أكثر مما تسر، وتجرع سم العذاب أكثر مما تسقي حلو الشراب، وتذكرت قول الله تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[178]. وقوله جل وعلا: ﴿ياأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾[179]. وقول النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر رضي الله عنه: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"[180]. وقوله صلى الله عليه وسلم: "مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها"[181]. وقوله عليه الصلاة والسلام: "الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالما ومتعلما"[182].

وروي أن الحسن البصري رضي الله عنه بعث برسالة إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة، قائلا: "بسم الله الرحمن الرحيم: أما بعد فإن رأس ما هو مصلحك ومصلح به على يديك، الزهد في الدنيا، وإنما الزهد باليقين واليقين بالتفكر، والتفكر بالاعتبار. فإذا أنت تفكرت في الدنيا لم تجدها أهلا أن تبيع بها

---

[178] - سورة الحديد، الآية 20

[179] - سورة لقمان، الآية 32

[180] - رواه البخاري.

[181] - حديث صحيح.

[182] - رواه الترمذي.

نفسك، ووجدت نفسك أهلا أن تكرمها بهوان الدنيا فإن الدنيا دار بلاء وموطن غفلة"[183].

فلما رأيت أن القرآن العظيم مملوء بالتزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها ودناءتها، وسرعة انقطاعها وفنائها، حمدت الله على حالي وشكرته إذ لم يبتلني بالغنى الذي يطغي، وإنما جعلني طالب علم بعد أن جاء بي إلى ديار الغربة.

لم تكد تمضي سنة واحدة على عالم التصوف الفكري من خلال الاحتكاك المتواصل بمجموعة "روتي"، والإكثار من قراءة كتب المتصوفة والإطلاع على التجارب الصوفية لأقطابهم، حتى بدأت أفكر في ممارسة تجربة صوفية عملية، وتراءت لي الخلوة، ولو مؤقتا، أحسن وسيلة ناجعة في درب التصوف العملي. لكن كيف أختلي بنفسي يا ترى وأنا مقيم في عاصمة لا مكان فيها للخلوة أو العزلة؟ بالإضافة إلى أنني كنت على صلة دائمة بالطلبة التونسيين الثلاثة وبطالبين أخوين مغربيين، ثم بدا لي أن أؤجل الخلوة إلى حين. لكنني اجتهدت في تربية النفس وتزكيتها. ومعلوم أن الصوفية يركزون على ضرورة معرفة النفس، ويعدون ذلك شرطا أساسيا في طريقهم لسببين: أولهما أن دراسة النفس توقف الإنسان على غوائلها ورغباتها ومخالفاتها، وفي ذلك عون له على مقاومتها. والسبب الثاني أن معرفة النفس تؤدي إلى معرفة الله، والنفس عندهم هي عدو الإنسان الأكبر الذي يجب مجاهدته، كما أنها تتحالف مع الشيطان لإهلاك هذا الإنسان وسوقه إلى الكفر والمعصية.

أصبحت النفس موضوع تفكيري وتأملي، وصرت أبحث عن عالمها في بطون كتب الفلسفة وعلم النفس، بالإضافة إلى كتب التصوف. فتكونت لدي حصيلة علمية لا بأس بها، لكنني كنت كل يوم، أزداد اقتناعا بأنه لا يمكن لإنسان فهم نفسه حق الفهم دون امتلاك أداة الذوق، إذ أن أداة المعرفة غير كافية، لكونها توقفك فقط

---

[183] - إبن الجوزي: "سيرة عمر بن عبد العزيز"، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ص 124.

على عتبة العالم النفسي. أما اجتياز العتبة ودخول المنزل فأمر متوقف على الذوق، وما أدراك ما الذوق.

وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته، فذكر الذوق والوجد وعلقهما بالإيمان، فقال: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا"[184]، أي أن للإيمان طعما، وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم الطعام والشراب. قال محمد بن قيم الجوزية:

"ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه، وهم الذين آمنوا به وبرسوله. ثم لم يرتابوا في إيمانهم. وإنما انتفى عنهم الريب: لأن الإيمان قد باشر قلوبهم. وخالطتها بشاشته. فلم يبق للريب فيه موضع. وصدق ذلك الذوق: بذلهم أحب إليهم في رضى ربهم تعالى؛ وهو أموالهم وأنفسهم. ومن الممتنع حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان، ووجود حلاوته. فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد. كما قال الحسن: "ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل"[185].

لا شك أن طائفة أهل الرقائق الذين يحيون التجربة الروحية دون انقطاع، وذلك من خلال مجاهدة النفس وتزكيتها، يغدون ويروحون متفيئين ظلال مقامات روحية سامية من زهد وورع، وأنس، ومحبة، وخوف، ورجاء، وصبر، وشكر، وتوكل، وحياء، وتواضع، وذكر، وتفكر، وتفويض، وسكينة، وطمأنينة... إن هذه المعاني الشريفة المتأصلة في الكتاب والسنة، قد باشرت قلوبهم وذاقوا طعمها الإيماني، وسرى الذوق في كيانهم، وهو ما يعبر عنه أحيانا باللذة الروحية العارمة. والذوق الإيماني من الموضوعات التي يستعصى على العقل وصفها، لأن جذورها عميقة في أرض الوجدان، أما كلام أهل الرقائق عنه فإنه لا يعدو أن يكون مجرد إشارات وتلويحات.

---

[184] - رواه مسلم.

[185] - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ص 316.

ومثل الذوق الإيماني في الاستعصاء على العقل، كمثل الانفعال. يقول الأديب الناقد إيليا الحاوي متحدثا عن طبيعة الانفعال الجمالي: "إن الانفعال هو في أصل كل تجربة جمالية، ونفهم بالانفعال تلك الحركة الشعورية التي تطغى على النفس وتسيطر على قواها، فتَرْتَهِنُها لحتميتها وتولد فيها يقينا خاصا بها. وبكلمة موجزة: الانفعال هو ما تعانيه النفس معاناة ولا قبل لها بفهمه فهما، أو أن ما تفهمه منه ليس سوى أشلائه، والجزء الساقط الذي لا ينطوي على أي شيء من حقيقته. فالانفعال هو حالة كلية قائمة بذاتها، تكون في النفس حالة فيها، هي وإياها يقين واحد، فإذا ما اعتكف عليها العقل ليفهمها تجمدت وتبدلت وعادت حالة أخرى، وما يقع بين يدي العقل منها هو الجزء المادي أو الجزء الذي يلائم طبيعة العقل، بل إن ما يتلمسه العقل لا يلمس شيئا من حقيقة تلك المعاناة. مثال ذلك أن يحاول العقل فهم التجربة التي تستولى على النفس في حالة من أحوال الثكل. إن تلك الحالة هي شديدة التعقيد والتداخل في النفس. بل إنه لا حد لها، وكل ما يقبض عليه العقل منها هو القول أن تلك المرأة الثاكل هي في حالة حزن شديد، أو إنها في حالة يأس وافتقاد، وإنها فاقدة العزاء. وذلك كله لا يعدو الكلام الأخرس الأصم، كأن المرء لم يقل به شيئا عن حقيقة ما تعانيه تلك المرأة"[186].

ثم اهتديت بعد ذلك من خلال مطالعتي وتأملي، إلى وسيلة كثيرا ما ينصح بها الصوفية مريديهم وهي الرياضة الروحية، فبدأت أكثر من الصيام، حتى أنني اغتنمت فرصة غياب أصدقائي في عطلة الصيف، فصمت أربعين يوما متتالية مع الاجتهاد في الذكر والعبادة. ثم بدأت أقلل من الطعام، بل أمسكت عن أكل اللحم والسمك والبيض...، واقتصرت على القطنيات والخضروات والحليب والخبز، ما يقرب من سنة لغاية أن جسمي بدأ يهزل، وقل وزني كثيرا وصرت أشعر بخفة في نفسي، وصفاء

---

[186] - إيليا الحاوي: "في النقد والأدب"، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1986، ج 2، ص 10.

في ذهني، مع ميل إلى الصمت، واعتزال أصدقائي ما أمكنني ذلك. كما صرت أتحسس خمود القوى النفسية الحيوانية، كالقوة الغضبية والقوة الشهوانية. والحقيقة أن هذا التحول العميق هو ما يعبر عنه الصوفية ب "الولادة الثانية". وهي ولادة معنوية جديدة تشكل نقطة البدء في الحياة الصوفية، والتي هي طريق صوفي باطني تطهيري، قائم على قطع الصوفي علاقته بالمحيط الاجتماعي إلا فيما يدخل في دائرة الضرورة.

ولن يستطيع الإنسان أن يملك نفسه إلا إذا جاهدها وراضها. فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوها بمنعها الشهوات التي أطلقت لهم، فلم يمكنوها من تلك الشهوات إلا ما لا بد منه كهيئة المضطر، حتى ذبلت في النفس حرارة الشهوات، ثم زادوها منعا حتى ذبلت واسترخت، فكلما منعوها شهوة أتاهم الله عز وجل على منعها نورا في القلب فقوي القلب، وضعفت النفس، وحيي القلب بالله، جل ثناؤه، وماتت النفس عن الشهوات حتى امتلأ القلب من الأنوار، وخلت النفس من الشهوات، فأشرق الصدر بتلك الأنوار، فجلب على النفس خوفا وخشية وحياء، واستولى على النفس وقهرها.

يقول الحارث بن أسد المحاسبي: "أول ما يلزمك في صلاح نفسك الذي لا صلاح لها في غيره، أن تعلم أنها مربوبة متعبدة، فإذا علمت أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة ربه ومولاه، وأن الدليل على طاعة ربه ومولاه في العلم، ثم العمل بأمره ونهيه، في مواضعه وعلله وأسبابه، ولن يجد ذلك إلا في كتاب ربه، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، لأن الطاعة سبيل النجاة والعلم، وهو الدليل على السبيل، فأصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء، والدليل على محاسبة النفس، العلم بما تعبد الله، عز وجل، خلقه في قلوبهم وجوارحهم، وكذلك

أهل الدنيا، لا يعالجون الأعمال ولا يتكلفون التجارات، إلا ببصر قد تقدم منهم، وعلم بما يعملون، وبما يبتاعون ويبيعون"[187].

ولما كان أصل المجاهدة وملاكها يكمن في فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها، وإبعادها عن الرذائل وتحليتها بالفضائل، باتت مسألة الخلوة من المسائل التي تؤرقني وتصير ليلي نهارا. فصرت أحلم بخلوة أربعينية على منهج الصوفية، تلك الخلوة التي حببها إلي أبو حامد الغزالي غفر الله له، عند ما ذكر في كتابه "إحياء علوم الدين"، حديثا منسوبا إلى النبي صلى الله عليه وسلم: "من أخلص لله أربعين يوما تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه"[188].

فتأثرت بهذا الحديث الموضوع، وظننته صحيحا لقلة زادي في علم الحديث، ولم أتحمل عناء البحث في أصله ومدى صحته شأني في ذلك شأن معظم الصوفية. فأصبح شغلي الشاغل هو إيجاد مسكن أعيش فيه وحدي بعيدا عن الأصدقاء، حيث يمكنني أن أمارس خلوتي...

لقد أيقنت بأن التصوف غدا بالنسبة لي خيارا روحيا لا مفر منه، بل صرت أشعر بما يشبه النداء الباطني الذي يدعوني إلى الخلوة والعزلة.

---

[187] - الحارث بن أسد المحاسبي: "الرعاية لحقوق الله"، ص 35.

[188] - هذا الحديث موضوع، انظر: "موسوعة الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة"، (إعداد: علي حسن الحلبي، وإبراهيم القيسي، وحمدي محمد مراد)، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، 1419هـ/1999م، ج 9، ص 176.

3- الخلوة الصوفية

1.3- ولوج الخلوة الصوفية

اشتريت ثلاثة أو أربعة كيلوغرام من الدقيق، و لترا واحدا من الزيت، وقليلا من السكر، ونصف كيلو من الزبيب والملح، وبعض العلب من الحليب، ودخلت مسكني الجديد في الحي الجامعي بمدينة أنطوني بعد أن ودعت أصدقائي. كان المسكن يحتوي على غرفة واحدة ومطبخ صغير، حيث كنت أهيء طعامي؛ أجعل جزءا منه للإفطار بعد صلاة المغرب، وجزءا آخر احتفظ به لوقت السحور؛ وهو عبارة عن رغيف كنت أصنعه بنفسي. واعتمدت طريقة الإقلال من الطعام تدريجيا، حتى صرت بعد أسبوعين اكتفي بربع الرغيف في المغرب، وأتناول الربع الآخر في السحور، مع حبات من الزبيب.

لقد كنت أوزع وقتي بين الصلاة والتلاوة والذكر، والتأمل والتدبر، واجتهدت كل وسعي في تجريد عقلي من كل الخواطر النفسية التي لا طائل تحتها، وفي طرد الوساوس و الأفكار المتعلقة بالدنيا. وبعبارة أخرى أخضعت نفسي لعملية التخلية؛ باعتبارها خطوة أولى وأساسية في درب التجريد والتصفية الروحية.

يقول العلامة محمد بن قيم الجوزية أيضا: "(...) حراسة الخواطر وحفظها والحذر من إهمالها والاسترسال معها. فإن أصل الفساد كله من قبلها يجئ لأنها هي بذر الشيطان، والنفس في أرض القلب، فإذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى، حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال. ولاريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة. وهو المفرط إذا لم

يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس، فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها "[189].

ثم إن العبد مفتقر إلى الله في كل أحواله وأوقاته، فلا يستطيع الاستغناء عنه برهة من الزمن، ولا طرفة عين. وحاجته إليه أعظم إلى حاجته من الماء والهواء. ومن هنا كان الذكر من أعظم الوسائل لتحقيق مقام المعية والقرب من الله؛ يقول العلامة الفقيه محمد بن قيم الجوزية كذلك: "إن فقر العبد إلى الله سبحانه وحده لا يشرك به شيئا ليس له نظير فيقاس به، لكن يشبه من بعض الوجوه، حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس، فيقاس به، لكن بينهما فروق كثيرة. فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، ولا صلاح له إلا بإلهه الحق الذي لا إله إلا هو، فلا يطمئن إلا بذكره، ولا يسكن إلا بمعرفته وحبه، وهو كادح إليه كدحا فملاقيه، ولا بد له من لقائه، ولا صلاح له إلا بتوحيد محبته وعبادته وخوفه ورجائه، ولو حصل له من اللذات والسرور بغيره ما حصل فلا يدوم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص ويتنعم بهذا في حال وبهذا في حال، وكثيرا ما يكون ذلك الذي يتنعم به هو أعظم أسباب ألمه ومضرته. وأما إلهه الحق فلا بد له منه في كل وقت وفي كل حال، وأينما كان فنفس الإيمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته، وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان، ودلت عليه السنة والقرآن، وشهدت به الفطرة والجنان..."[190].

2.3- ممارسة الذكر

في بداية الأسبوع الثاني عزمت على ممارسة الذكر بالإسم المفرد "الله، الله..." وكنت قبل بضعة شهور، قد قرأت كتابا لابن عطاء الله السكندري تحت عنوان

[189] - محمد بن قيم الجوزية : "طريق الهجرتين وباب السعادتين"، دار الكتاب العربي، د.ت. ص276.

[190] - محمد بن قيم الجوزية : "إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان"، ص 37.

"القصد المجرد في معرفة الإسم المفرد". كما أن كثيرا من المتصوفة أشاروا إلى المزايا والمنح التي يجنيها الذاكر من ممارسته لهذا النوع من الذكر. وهكذا توكلت على الله، واستقبلت القبلة، وأغمضت عيني، واستحضرت عظمة الله سبحانه وتعالى، وجلاله وجماله وكماله وفضله ولطفه، وتأملت أسماءه الحسنى وصفاته العلا، حتى تغلغلت معانيها في ذهني ونهل من رحيقها قلبي، كل ذلك وأنا أستحضر في مخيلتي لفظ الجلالة. ثم شرعت في قولي: "الله، الله، الله...." بكل بطء وسكينة، مع تحريك اللسان حركة ضعيفة جدا، وسرعان ما حصل تواطؤ اللسان والقلب، وانشرح الصدر، وخمدت الجوارح والأعضاء. ومكثت على هذا الوضع ما يقرب من ساعتين.

لم يكد يمر يومان على ممارسة الذكر بالاسم المفرد، حتى حصل في باطني ما لم أستطع تحمله في الساعات الأولى، لقد فوجئت بموسيقى تنفجر في دماغي ويصل صداها إلى أذنيَّ الباطنيتين!!. فقلت في نفسي لعل ما أسمعه قد حمله إلي الأثير من إحدى الغرف المجاورة، ففتحت نافذة الغرفة ولم أسمع شيئا، لا سيما أن معظم الطلبة القاطنين كانوا في سفر بسبب العطلة الدراسية. غير أن صوتا واحدا كان يصل إلى مسمعي مصدره حركة السيارات على طريق سيار بالقرب من مبنى الحي الجامعي. والغريب أن تلك الموسيقى كانت ألذ ما سمعت أذناي من أنواع الموسيقى، ولها شبه كبير ببعض مقاطع السنفونيات الشهيرة. وأحيانا كان صوتها يفتر قليلا، لكي يعلوه صوت آخر حيرني كثيرا وهو عبارة عن ترتيل لدعوات وأشعار وأذكار يبدو كأنها تصدر من حلقة صوفية لا تبعد عني كثيراً. وسرعان ما تذكرت ما قاله بعض الصوفية في هذا الشأن فاطمأن قلبي قليلا، لكنني تساءلت قائلا: وما مصدر الذكر الذي أسمعه؟ ثم فكرت قليلا وأعملت عقلي لكن دون جدوى، فلم أهتد إلى تفسير ولم أعثر على جواب. بيد أن النشوة الروحية الناتجة عن ألحان الموسيقى والذكر، حملتني بعيدا إلى عالم لا محدود أحس فيه بسعادة باطنية لا مثيل لها. لم أكن أشك

وأنا في غمرة هذه النشوة الروحية أن هذه هي الحال الذي طالما عبر عنها الصوفية بالمنزلة الروحية التي يحصل فيها الإشراق وتفيض عليهم فيها المعرفة الذوقية.

ولقد كان ذلك الإشراق يتجلى لي أحيانا في صورة البرق الذي يومض لحظة ثم يخبو، وأحيانا يدوم لحظات. وهي حال تجل عن الوصف، وتصحبها لذة روحية هي من أعظم ما قدر للإنسان أن يحظى به في هذه الحياة الدنيا. كما كان النشيج يباغتني بين الفينة والأخرى وتنهمر الدموع مدرارا، تعبيرا عن الفرح بهذه "النعمة"، وخوفا من فقدانها زمن الجلوة: أي بعد الخروج من الخلوة والعودة إلى مجتمع الناس.

وأحيانا كنت أظل أبكي أوقاتا طويلة وأنا مضطجع في غرفتي واضعا خدي على الأرض وقد أصابه بلل الدموع التي امتلأت بها المآقي، يا له من طرب وهيام وأنس. وأعقب ذلك إحساس بشهود المنة والجمال، وبقيت أصوات الموسيقى والذكر متدفقة لا تعرف خمودا أياما طويلة حتى بعد خروجي من الخلوة.

وذات يوم تذكرت كلاما متعلقا بهذا الأمر كنت قد قرأته في كتاب لأحد المتصوفة لا أذكر إسمه الآن، ولعله ابن عطاء الله السكندري، ومفاده أن المريد السالك إذا ما أكثر من ذكر الله وهو يردد الله، الله...، قد تنبعث من كيانه أصوات وألحان وموسيقى يجد بها لذة باطنية عظيمة الشأن. وسبب ذلك، حسب قوله، يرجع إلى أن الذاكر، بحكم الخلوة والصوم وكثرة الذكر، يحصل له من الصفاء الذاتي ما يجعله يستمع إلى ذكر كيانه المادي والعضوي، وذلك من خلال العناصر الأربعة الأساسية المكونة لبدن الإنسان؛ وهي الماء والهواء والنار والتراب. فلهذه العناصر لغتها في الذكر والتسبيح، يسمعه الذاكر بسمعه الباطني على شكل ألحان موسيقية؟؟. وهذا تفسير أو تأويل غير مقنع، ولعله أقرب إلى الوهم منه إلى الحقيقة. وفي هذا الصدد يقول الإمام محمد بن قيم الجوزية: "إن اللطيفة المدركة من الإنسان إذا صفت بالرياضة

وانقطعت علقها عن الشواغل الكثيفة: صار الحكم لها بحكم استيلاء الروح والقلب على البدن، ومصير الحكم لهما. فتنصرف عناية النفس والقلب إلى تجريد المعاني التي هي متصلة بهما، وتشتد عناية الروح بها. وتصير في محل تلك العلائق والشواغل. فتملأ القلب، فتصرف تلك المعاني إلى المنطق، والخطاب القلبي الروحي بحكم العادة. ويتفق تجرد الروح، فتتشكل تلك المعاني للقوة السامعة بشكل الأصوات المسموعة. وللقوة الباصرة بشكل الأشخاص المرئية. فيرى صورها، ويسمع الخطاب. وكله في نفسه ليس في الخارج منه شيء. ويحلف أنه رأى وسمع، وصدق، لكن رأى وسمع في الخارج، أو في نفسه؟ ويتفق ضعف التمييز، وقلة العلم، واستيلاء تلك المعاني على الروح، وتجردها عن الشواغل"[191].

ومن ناحية أخرى، فإن ذكر الله بصيغة لفظ الجلالة، استدرجت إليه استدراجا من خلال قراءتي لكتب المتصوفة. ولم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن الصحابة أو التابعين، أنهم كانوا يذكرون الله بتلك الصيغة أي وهم يرددون: "الله، الله، الله".

وفي الموطأ والصحيحين، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أفضل ما قلت أنا والنبيئون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك الله له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير".

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله: "وإنما الغرض هنا أن الشرع لم يستحب من الذكر إلا ما كان كلاما تاما مفيدا مثل "لا إله إلا الله"، ومثل "الله أكبر"، ومثل "سبحان الله والحمد لله"، ومثل "لا حول ولا قوة إلا بالله". ومثل ﴿تبارك اسم ربك﴾، ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾، ﴿سبح لله ما في السموات والأرض﴾، ﴿تبارك الذي نزل الفرقان﴾.

[191]- محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج 1، ص 73-74.

فأما الإسم المفرد "مظهرا" مثل: "الله" الله". أو "مضمرا" مثل "هو" "هو". فهذا ليس بمشروع في كتاب ولا سنة، ولا هو مأثور أيضا عن أحد من سلف الأمة، ولا عن أعيان الأمة المقتدى بهم، وإنما لهج به قوم من ضلال المتأخرين.

وربما اتبعوا فيه حال شيخ مغلوب فيه، مثلما يروى عن الشبلي انه كان يقول: "الله، الله". فقيل له: لم لا تقول لا إله إلا الله؟ فقال: أخاف أن أموت بين النفي والإثبات. وهذه من زلات الشبلي التي تغفر له لصدق إيمانه، وقوة وجده، وغلبة الحال عليه، فإنه كان ربما يجن ويذهب به إلى المارستان، ويحلق لحيته. وله أشياء من هذا النمط التي لا يجوز الاقتداء به فيها؛ وإن كان معذورا أو مأجورا، فإن العبد لو أراد أن يقول: "لا إله إلا الله" ومات قبل كمالها لم يضره ذلك شيئا. إذ الأعمال بالنيات؛ بل يكتب له ما نواه.

وربما غلا بعضهم في ذلك حتى يجعلوا ذكر الاسم المفرد للخاصة، وذكر الكلمة التامة للعامة وربما قال بعضهم: "لا إله إلا الله" للمؤمنين، و"الله" للعارفين، و"هو" للمحققين، وربما اقتصر أحدهم في خلوته أو جماعته على "الله، الله، الله". أو على "هو" أو "يا هو" أو "لا هو إلا هو"[192].

والخلاصة أن الشارع كان حكيما عندما نص على أن صيغة الذكر ينبغي أن تكون مفيدة وذات معنى، فالذاكر عندما يردد لا إله إلا الله، فإنه ينتقل من معنى النفي إلى معنى الإثبات، أي أنه ينفي صفة الألوهية عما سوى الله ثم يثبتها لله وحده، وهو بذلك يعمل على غرس بذور التوحيد الخالص في قلبه، وينفي عنه كل أنواع الشبه والوساوس والضلالات. وهكذا تتأصل شجرة التوحيد في صدره تم تمتد فروعها في جوارحه وأقواله وأفعاله، ويصبح كيانه مشرقا ومتلألئا بنور التوحيد. أما إذا كان الذاكر يردد لفظ الجلالة قائلا: "الله، الله، الله..."، فإن ذهنه لا يكون مرتبطا بكلام

[192]- إبن تيمية: "مجموع الفتاوى"، ج 10، ص 556-557.

مفيد، أضف إلى هذا أن الله اسم يدل على الذات الإلهية، والذات الإلهية لا يحيط بها ولا يتصور حقيقتها عقل. وبالتالي فإن الإنسان الذي يفكر في موضوعها يضرب في حديد بارد ويطلب المستحيل، وقصارى ما يصل إليه أو ما يظفر به مجموعة من الخيالات والأوهام الفاسدة، التي قد تفضي به إلى الحلول والاتحاد، أو وحدة الوجود وما إلى ذلك من الاعتقادات الضالة. لهذا نهى الشرع عن التفكر في الذات الإلهية وجوهرها أو حقيقتها.

3.3- حلاوة الذكر

ولقد أصبح باطني مستقرا لمعاني أسمائه وصفاته، وغدت حقائق الآخرة أقرب إلي من حبل الوريد، بحيث أن نسبتها لقلبي صارت كنسبة المرئي إلى العين. كذلك، ومتى وصل اليقين إلى القلب امتلأ نورا وإشراقا، أي امتلأ بنور الهداية، لا بالنور الذي هو صفة الرب تعالى، فإن صفاته لا تحل في شيء من مخلوقاته، كما أن مخلوقاته لا تحل فيه، فلا اتحاد ولا حلول ولا ممازجة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وشيئا فشيئا قذف بي الاستغراق الروحي المتصل في عالم الذوق والوجد الإيماني... وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذوق طعم الإيمان ووجد حلاوته فذكر الذوق والوجد وعلقهما بالإيمان، فقال: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا"[193]، أي أن للإيمان طعما وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم الطعام والشراب. "فالذوق والوجد: أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. كما أن الريب والشك والنفاق أمر باطن، والعمل دليل عليه ومصدق له. فالأعمال ثمرات العلوم والعقائد"[194]. وقال النبي صلى الله عليه وسلم أيضا: "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا

---

[193] - رواه مسلم.

[194] - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج 3، ص 105.

لله. ومن يكره أن يعود في الكفر، بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار"[195].

وبدأت أحس بمحبة الله تسري في كياني، بل وكأني أستمع إلى لغتها تتغنى بها جوارحي وأضلعي وخلاياي، فتبين لي بيان يقين أن كل ما وقع عليه بصري في الكون وما لم يقع عليه، يُسبّح ويَسبَح في فلك محيطه قبضة جلالية. وإذا تجلت لي أنوار الجلال وكنت في موطنه، قوي يقيني فسمعت ذلك التسبيح، وحد بصري بنور بصيرتي، وأحالتني آيات الكون على المكون، فشغلت بمحبوبي عما سواه، وطوي زماني، وقصرت المسافات، وغدا الآجل عاجلا والعسير سهلا.

ويقول العلامة محمد بن قيم الجوزية أيضا: "من الذاكرين من يبتدئ بذكر اللسان وإن كان على غفلة، ثم لا يزال فيه حتى يحضر قلبه فيتواطآ على الذكر.

ومنهم من لا يرى ذلك، ولا يبتدئ على غفلة، بل يسكن حتى يحضر قلبه، فيشرع في الذكر بقلبه، فإذا قوي استتبع لسانه فتواطآ جميعا.

فالأول ينتقل الذكر من لسانه إلى قلبه. والثاني ينتقل من قلبه إلى لسانه، من غير أن يخلو قلبه منه، بل يسكن أولا حتى يحس بظهور الناطق فيه. فإذا أحس بذلك نطق قلبه، ثم انتقل النطق القلبي إلى الذكر اللساني، ثم يستغرق في ذلك حتى يجد كل شيء منه ذاكرا"[196].

فقوله "حتى يجد كل شيء منه ذاكرا": ينطبق تماما على الحال الذي كنت أشعر به بعد الأيام الأولى من ممارسة الذكر، كما يعبر أحسن تعبير عن روح الذكر عندما تسري في الكيان الجسدي فتمتزج بالخلايا وتصيرها ذاكرة, فيحس الذاكر من أثر ذلك بخشوع في جوارحه وبدنه كله، فيغدو كل شيء منه ذاكرا.

---

[195] - رواه البخاري ومسلم.

[196] - محمد بن قيم الجوزية: "الفوائد"، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1422هـ/2002م، ص 234.

ثم إن الإنسان يعتبر جزءا لا يتجزأ من هذا الكون العظيم، وبالتالي فإن مفهوم التسبيح الذي يشكل القانون والمنهج الجوهري الذي تنتظم فيه كل المخلوقات انطلاقا من قوله تعالى: ﴿يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض﴾[197]، يعبر عن الخاصية الذاتية لهذه المخلوقات، وبالتالي فإن هذا الانسجام والتناغم الذي يعم الكون له علاقة وطيدة بمنطق التسبيح. وإذا كان الخالق سبحانه قد أودع في مخلوقاته، من حيوانات ونباتات وخلايا وأنهار وبحار ونجوم وكواكب، قانون التسبيح وألهمها ذكره والدوران في فلكه، فإنه قد هدى الإنسان إلى القانون نفسه بواسطة الوحي المنزل من عنده.

ومن هنا فإن الإنسان الذي يعرض عن تعاليم القرآن التي هي تعاليم فطرته المفطور عليها، فإنه يتحول إلى عنصر شاذ يصطدم بعناصر الكون بما في ذلك نفسه التي بين جنبيه، كما أن كل ما في الكون ينقلب ضده ويدخل في صراع معه لأن الكون يدور ويُسبِّح ويَسبَح في فلك مادي ومعنوي. وما دام الإنسان جزءا من الكون، فإما أن يدور ويسبح وتلك فطرته، وإما أن يلفظه الفلك فيغدو نشازا شاذا.

وكمثال حي على الإنسان الذي لفظه فلك التسبيح؛ الشخص المنتحر الظالم لنفسه، أو اللعين المطرود من رحمة الله، أو المشرك بالله الذي خر من السماء ولم يعد له مكان فيها مصداقا لقوله تعالى: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾[198]. وهذا أبلغ تعبير وتصوير لطرد الإنسان من فلك التسبيح.

ولو لم يكن الذكر والتسبيح من أعظم ما يتلذذ به الذاكر الصادق المحب له، لما كان التسبيح مما يلهمه عليه أهل الجنة في غرفاتهم وجنانهم، قال رسول الله صلى الله

[197] - سورة التغابن، الآية 1

[198] - سورة الحج، الآية 31

عليه وسلم: "يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يمتخطون ولا يتغوطون ولا يبولون، طعامهم ذلك جشاء كريح المسك، يلهمون التسبيح والتكبير كما تلهمون النفس"[199].

وبلغت مناجاة قلبي لربي مداها وإن سكت لساني عن الذكر، إذ أن لذة استيلاء ذكره تعالى ومحبته على قلبي، وحضوري بين يديه، وأنسي به، وقربي منه، صيرني كأني أخاطبه وأحدثه، فأعتذر إليه تارة وأرجوه وأتملقه تارة أخرى، وأسر إليه ما يختلج في صدري...

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى   مـــــا الحب إلا للحبيـــــب الأول

كم منزل في الأرض يألفه الفتى   وحنينه أبــــدا لأول منــــــــزل

4.3- محبة القرآن

ولقد حبب إلي القرآن، وأقبلت على تلاوته أشد ما يكون الإقبال، وبما أن القلب كان خاليا من الشواغل ونوافذه موصدة في وجه الخواطر الشيطانية، فإن معاني الآيات كانت تنساب في كياني انسياب الماء العذب الزلال في مرئ الظمآن. فكنت أتذوقها وأتنعم بحلاوتها، كيف لا والقرآن "نور البصائر من عماها، وشفاء الصدور من أدوائها، وحياة القلوب، ولذة النفوس، ورياض القلوب، وحادي الأرواح، إلى بلاد الأفراح، والمنادي بالمساء والصباح: يا أهل الفلاح حي على الفلاح. نادى منادي الإيمان على رأس الصراط المستقيم: ﴿يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم﴾.

أسمع والله لو صادف آذانا واعية، وبصر لو صادف قلوبا من الفساد خالية. لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها. وتمكنت منها آراء الرجال

---

[199] - رواه مسلم.

فأغلقت أبوابها وأضاعت مفاتيحها. وران عليها كسبها فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذا. وتحكمت فيها أسقام الجهل فلم تنتفع معها بصالح العمل"[200].

"أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أن ينجو من ربه بآراء الرجال؟ أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال؟ أو بالإشارات والشطحات، وأنواع الخيال"[201].

"وبعد، فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع، والعمل الصالح. وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كما قال تعالى: ﴿والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾[202]، أقسم سبحانه أن كل واحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما. كان حقيقا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره، واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه. فإنه الكفيل بمصالح العباد، في المعاش والمعاد. والموصل لهم إلى سبيل الرشاد. فالحقيقة والطريقة، والأذواق والمواجيد الصحيحة، كلها لا تقتبس إلا من مشكاته، ولا تستثمر إلا من شجراته"[203].

---

[200] - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج 1، ص 25-26.

[201] - المرجع نفسه، ج1 ص 28.

[202] - سورة العصر.

[203] - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج 1، ص 28-29.

ومن ناحية أخرى فإن إدراك الطبيعة العلوية للخطاب القرآني واستشعار الحق الكامن فيه، يتطلب تجريد النفس من أهوائها والإنصات إلى معانيه بقلوب منفتحة صادقة.

توالت الأيام...، ولم يكد يقبل اليوم الأول من الأسبوع الثالث حتى أصبح قلبي مشغوفا بالقرآن، وصرت كلما شرعت في قراءته أجهشت بالبكاء فتنهمر الدموع مدرارا، فأشعر ببرد اليقين والأمن والطمأنينة، ويخترق صدى قراءتي طبلة أذني قاصدا شغاف قلبي، فيحدث هزات وقشعريرة أجد أثرها اللذيذ في صدري وجوارحي، وسائر أعضائي وخلاياي. فتساءلت مع نفسي لماذا لم أكن أشعر بهذا عندما كنت أقرأ القرآن قبل الخلوة؟ لنستمع إلى كلام العلامة محمد بن قيم الجوزية وكأنه يجيب عن هذا التساؤل:

"وقد يكون هذا المسموع شديد التأثير في القلب. ولا يشعر به صاحبه، لاشتغاله بغيره، ولمباينة ظاهره لباطنه لذلك الوقت. فإذا حصل له نوع تجرد ورياضة، ظهرت قوة ذلك التأثير والتأثر. فكلما تجردت الروح والقلب، وانقطعتا عن علائق البدن، كان حظهما من ذلك السماع أوفى، وتأثرهما به أقوى. فإن كان المسموع معنى شريفا بصوت لذيذ، حصل للقلب حظه ونصيبه من إدراك المعنى، وابتهج به أتم ابتهاج على حسب إدراكه له. وللروح حظها ونصيبها من لذة الصوت ونغمته وحسنه، فابتهجت به. فتتضاعف اللذة ويتم الابتهاج ويحصل الارتياح، حتى ربما فاض على البدن والجوارح وعلى الجليس"[204].

---

[204] - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج 2، ص 462-463.

5.3- رؤى وأحلام

وذات ليلة بينما أنا أقرأ سورة لقمان إذا بهاتف يهتف بداخلي: لماذا لا تتعلم الحكمة كما تعلمها لقمان الحكيم؟ اطلب من رب العزة أن يفيض عليك بشيء منها؟ فما كان مني إلا أن ألححت في الدعاء، سائلا الله أن يرزقني علما تكون التقوى أساسه والحكمة تاجه.

ولما توفى الله نفسي في منامي تلك الليلة، زارني رجل يناهز السبعين من عمره، في حلة جميلة يعلو الوقار محياه، وقد تعمم بعمامة بيضاء، فبادرته قائلا من أنت؟ فأجابني: أنا الحكيم الترمذي؟؟!! فقلت: ما الذي جاء بك عندي؟ قال: أتيتك لأفسر لك سورة لقمان وأعلمك الحكمة ؟؟!! فعجبت لكلامه واستبشرت بقدومه خيرا، فقلت في نفسي: لقد جاء على قدر، أو لعل الله قد بعثه إلي ليدلني على طريق الحكمة.

فبدأت أرتل بعض آيات سورة لقمان ثم انطلق يفسرها تفسيرا باطنيا غريبا ذكرني بالتفاسير ذات المنحى الصوفي الإشاري، وبعض تفاسير الشيعة الباطنية...؛ عندما أنهى تفسيره التفت إلي قائلا: أبشر يا عبد الله فقد بدأت معراجك الروحي، وإنك الآن في السماء الثانية على قدم عيسى؟!! ثم ودعني قائلا: سأتركك الآن، لأن وقت الفجر قد حان فانتبهت من نومي. لقد كان لكلامه وقع كبير في قلبي دفعني إلى البحث بعد الخروج من الخلوة، في موضوع المعراج الروحي الذي مارسه بعض الصوفية وخاصة محي الدين بن عربي. وفهمت من خلال هذا الموضوع أن المتصوفة يؤمنون بإمكانية المعراج الروحي إلى السماوات العلا، وأن كل سماء تعرج إليها روح الصوفي، تناسب مقاما من المقامات أو مستوى من مستويات الترقي الروحي.

واتضح لي بعد بضع سنوات أي زمن التوبة، أن هذه الرؤيا كانت من تلبيس الشيطان ومن إيحاءاته المضللة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءا من النبوة، والرؤيا ثلاثة: فالرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث به المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل، ولا يحدث بها الناس"[205].

و انطلاقا من هذا الحديث، يتضح أن رؤياي كانت من نوع حديث النفس. ثم إن الشيطان الذي جاءني في نومي وهو متلبس بشخصية الحكيم الترمذي أراد أن يكذب علي ويضلني بكلامه وإشاراته الماكرة، مدعيا أنني قد بدأت معراجي الروحي وما إلى ذلك من الأوهام والترهات.

ومرة أخرى رأيت في منامي رجلا عرفني بنفسه قائلا: أنا محي الدين بن عربي جئت عندك كي أعلمك كلمات، ففرحت فرحا شديدا وذلك لمكانة ابن عربي في نفسي وقتئذ، ولكوني كنت معجبا أيما إعجاب برسائله وفتوحاته، فنطق بعبارات ما أن بلغت مسامعي حتى طرب لها قلبي، لكني بعد الانتباه من النوم لم أحتفظ منها سوى بالعبارة التالية: "ولسان حالي قول روحي أنا لم أكن يوما هنا أو في مكان..."

ولا يخفى على ذي بصيرة أن العبارة المذكورة لها علاقة متينة بنظرية وحدة الوجود الصوفية، ذلك أن "الروح التي لم تكن يوما هنا أو في مكان"، على حد قول ابن عربي، هي روح مستغنية عن الحيز والمكان، وإذا كانت كذلك فهي غير حادثة ومخالفة للمحدثات... !!!

ولما أشرفت على نهاية الأسبوع الثاني للخلوة، أيقنت بأن ما يغمرني من السعادة الباطنية والطمأنينة، وما أسمعه من ألوان الذكر والموسيقى، وما أحس به من حلاوة روحية تجل عن الوصف، كل ذلك قد تحقق بعد الزهد في الدنيا، والعزوف عن

---

[205] - رواه مسلم.

زينتها وزخرفها وكذا بعد اعتزال الناس ولو لمدة يسيرة. فغدا عقلي مشغولا بالتفكير في الطريق المؤدية إلى الاحتفاظ بهذا الكنز الثمين والذخيرة الفريدة.

وبعد طول تفكير وإعمال عقل، تبين لي أن الخلاص يكمن في الاقتداء بأرباب السلوك من القوم، والسير على آثارهم. فعقدت العزم على الإعراض عن الزواج وعدم التفكير في موضوعه!! واعتبرته العائق الأول والرئيس الذي يحول دون الممارسة الصوفية الحقة، ويمنع من الترقي في المقامات. وقلت في نفسي "ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه"، كيف يمكنني الجمع بين محبة الله والزواج والأولاد، ولو كان ذلك ممكنا لسبقني إليه أقطاب الصوفية وأبدالهم. فطفقت أتخيل الحياة الزوجية وكذا أعباءها من إشراف ونفقة، وسهر وجسامة الحقوق الزوجية، وثقل الميثاق الغليظ، وخلصت إلى أن هذا يتعارض كليا مع ما أنا فيه من السكينة والطمأنينة وراحة البال!!.

ولما تم لي الفصل في موضوع الزواج، انشغلت بموضوع العمل، فتساءلت مع نفسي: ما هو نوع العمل الذي ينتظرني بعد تحرير ومناقشة أطروحتي؟ إنه التعليم بلا شك، وهب أني ظفرت بمنصب في كلية من كليات المغرب، ماذا عساي أدرس فيها؟. قد يسندون إلي تدريس بعض العلوم الإنسانية خاصة علم الاجتماع أو الأنثروبولوجيا الاجتماعية، لكن ما أصل هذه العلوم؟ وما غايتها؟ ومن هم واضعوها ومؤسسوها؟ أليس أربابها كفارا ملاحدة؛ أمثال أوجست كونت، وسبنسر، ودوركايم؟ أليس غايتهم القصوى من هذه العلوم هي إقامة القطيعة التامة بين الإنسان وخالقه من خلال المنهج العلماني اللاديني التي تنبني عليه هذه العلوم؟. أترضى لنفسك يا عبد الله أن تكون مفسدا في الأرض بتدريسك لهذه العلوم، وهب أنك توفقت في نقد وإظهار عيوب هذه العلوم، واقتصرت على تدريس ما قد تتضمنه من أفكار ونظريات عملية تفيد في فهم الواقع المغربي ودراسته، ألن يكون عملك في الكلية شاغلا لك عن الذكر

والعبادة والخلوة؟ أتضمن لنفسك المكوث في عالم الطمأنينة والتحليق في فضاء الروح والتنعم بنسيم الإشراقات والإلهامات؟

كان هذا الحوار الذاتي كفيلا بإعراضي عن التفكير في العمل، بل إن الأمر تعدى إلى أكثر من هذا، ذلك أنني كنت أفكر في عدم الرجوع إلى وطني البتة، واستبداله بتركيا أو الهند؛ حيث يمكنني أن أحيا حياة صوفية بعيدا عن الأقارب والأحباب والأصدقاء. وبعد أن تمكنت هذه الأفكار الشاذة من عقلي واستحوذت عليه وصرت أحلق في أرجائها، وأتخيل الحياة الطليقة المفعمة بسكينة الروح وحلاوة الذكر، والانقطاع إلى الله. بعد كل هذا تدخلت مشيئة الله وحلت عنايته ولطفت بعبده الذي أضحى مشلولا ومستهدفا، وانتشلته من أيدي الشياطين ومن الوساوس التي كانت على وشك الإلقاء به في أودية الهلاك والضلال.

ما الذي حصل يا ترى؟ لقد رأيت في منامي ليلة السابعة عشرة ذلك الشخص الطالب الذي عرض علي الغرفة التي أقمت فيها خلوتي وهو يطرق الباب. فانتبهت من نومي حزينا خائفا من تحقق الرؤيا، لما في ذلك من إيقاف لخلوتي ونقض لعزلتي. وازداد قلقي لما رأيته في منامي ليلة الثامنة عشرة وهو يطرق الباب أيضا. ثم استسلمت لأمر الله لما تكررت الحالة في ليلة التاسعة عشرة حيث رأيته جالسا في إحدى زوايا الغرفة وهو يحدثني عن المغرب وأحواله... وفي منتصف النهار سمعت... دقات الباب، فلما فتحته وجدت الشخص ذاته. لقد جاء لأمر يتعلق بدراسته ومكث معي بضعة أيام كانت كافية لتبديد بعض الغيوم التي تجسدت في تلك الأفكار الشاذة.

4- ما بعد الخلوة الصوفية

1.4- السياحة في فضاء التصوف

وبعد خروجي من الخلوة الصوفية، مكثت ما يقرب من ثمان سنوات سابحا في عالم التصوف، محلقا في فضاء الروح.

لقد أصبحت أضواء باريس كاسفة، وجمالها باهتا، ووجوه الفرنسيين شاحبة كأنها أشباح... لم أعد أنجذب لشيء. كل العالم من حولي صائر إلى الفناء. الحياة الباريسية الصاخبة أصبحت أمام عيني خامدة وفاقدة لكل معنى وروح. الناس يزدحمون عند أبواب عربات المترو، وأمام الحافلات الأتوبيس، وداخل المحلات التجارية، وازدحام في الحي اللاتيني، وعلى أرصفة الشوارع الشهيرة؛ (سان جيرمان، سان ميشال، والإليزيه...) إنهم يتحركون مثل الحشرات، حين تغادر أو كارها أو تهم بالرجوع إليها.

لقد صرت أتعجب لهذه المخلوقات الكثيرة التعيسة، التي أنهكت قواها الآلات الصناعية، والوسائل التكنولوجية والإلكترونية، والرغبات الاستهلاكية اللامحدودة، حتى غدت حياتها موجهة توجيها محكما، ومبرمجة داخل برنامج محكم، مفاتحه وأزراره بيد الحكام والرأسماليين الكبار. وكثيرا ما كنت ألاحظ وأنا راكب في المترو أو الحافلة، كثيرا من الفرنسيين المسافرين وهم نائمون في مقاعدهم من شدة التعب وقلة النوم.

كما خفت في عيني بريق عناوين الإصدارات الجديدة في العلوم الإنسانية، والفلسفة، والتصوف، والتاريخ، والإسلاميات، حيث كنت مولعا من قبل بقراءة تلك العناوين وأنا أشعر بنشوة تنساب في كياني.

وغدت حدائق وبساتين باريس الفسيحة الخضراء المزهرة (لوكسمبورغ، بارك دوسو، فانسين، بولوني...) أهم الأماكن المحببة إلي، حيث كنت، وأنا أتنعم برؤية الأشجار والأزهار والطيور، أفضي إلى إلهي وحبيبي بأسرار قلبي، وأناجيه بما يختلج في باطني من معاني السعادة الباطنية والنعيم الروحي، كما كنت أكثر من الذكر تسبيحا وتهليلا واستغفارا. وأظل سابحا في فضاء هذا العالم الروحي أوقاتا طويلة متنقلا بين أرجاء تلك الحدائق الفيحاء.

وكثيرا ما كنت أتردد على مركز جورج بومبيدو الثقافي، ذلك المبنى الزجاجي الضخم الذي يشتمل أحد طوابقه على مكتبة فسيحة تحتوي على مئات الآلاف من الكتب والمجلات، في شتى فنون العلم والمعرفة والآداب. ففي ركن من أركان هذه المكتبة، وهو ركن التصوف والفلسفة، كنت أقضي الساعات الطوال، أقرأ بشغف بالغ تآليف مشاهير الصوفية، وحكمهم ونظرياتهم وتجاربهم الصوفية، ودراسات متنوعة حول التصوف ومذاهبه ومدارسه، ومعظم هذه التآليف والدراسات مكتوب باللغة الفرنسية، لكن يتخللها ما هو مكتوب بالعربية أو الإنجليزية.

وأكثر ما كان يجذبني في هذه الكتابات، تجارب الصوفية وأحوالهم، فكنت أهيم في عوالمهم، وأسبح في أفلاكهم، وأرتشف من كأس خمرتهم، حتى أشعر كأنني واحد منهم. فأتخيل صورا لشخصياتهم، وأحركها داخل مخيلتي، وأرسم دروبا وأزقة، ومساجد وزوايا، وأماكن في دمشق، وحلب، وبغداد، ونيسابور، والقاهرة، وقرطبة، وغرناطة، وإشبيلية، ومورسية، تلك الأزقة والمساجد والأماكن التي كان يمر بها أو يأوي إليها أهل التصوف. كما أتخيل كلام هؤلاء الصوفية ومعاملاتهم لعامة الناس، أو مناظراتهم لبعض الفقهاء أو لبعضهم البعض.

وعندما أغادر هذا المركز الثقافي تجدني وأنا راكب في قطار المترو أو الحافلة (الأوتوبيس)، استحضر في مخيلتي وقائع وأحداث وتجارب متعلقة بتلك الشخصيات الصوفية، وأشعر كأن صدى كل ذلك يتردد في كياني.

وكم كان يحلو لي المشي في شوارع باريس الطويلة والعريضة ذاكرا الله؛ مهللا ومسبحا ومستغفرا، وأنا أحرك بسبابتي وإبهامي حبات سبحة أخفيها في جيب معطفي، مع الإمعان في التأمل والتدبر. لقد كان هذا الذكر غذاء لقلبي، ونعيما لروحي أتلذذ به أعظم مما أتلذذ بالطعام والشراب والنظر، لأن اللذات الروحية القلبية أقوى وأتم من اللذات الجسمانية. ولطالما قرأت قبل تجربتي الصوفية عن الذكر وحقيقته وفضائله وغاياته في كتب الصوفية وغيرهم، بيد أن العلم شيء والحال شيء آخر. فعلم المحبة أو الخوف، أو الزهد أو الإنابة، غير حصولها أو تذوقها. ذلك أن القلب إذا ذاق طعم المحبة الإلهية وباشرت شغافه، غلب عليه حالها فزهدت النفس فيما سوى المحبوب، وأعرضت عن سائر المحبوبات. وهكذا لما ذقت حلاوة الذكر، وتنسمت عبيره، قذف بي في عالم روحاني يجل عند الوصف والنعت، ويند عن حدود العلم ورسومه. وأدبرت أعلام الهموم والغموم، وأقبلت أعلام الفرح والسرور، فحيي القلب وتنزلت السكينة، وانجلت غيوم الوحشة بيني وبين ربي، وتكاثفت بيني وبين العباد.

قال الفقيه العلامة محمد بن القيم الجوزية:

"إن دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها، قال تعالى: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون﴾206. وإذا نسي العبد نفسه وأعرض عن مصالحها واشتغل عنها، هلكت

[206] - سورة الحشر، الآية 19

وفسدت ولابد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية، أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه وشُغل عنه بغيره وضيع ومصالحه، فإنه يفسد ولا بد. هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها واشتغل عن مصالحها(...) وهذا هو الذي صار أمره كله فرطا، فانفرط عليه أمره وضاعت مصالحه(...) ولا سبيل إلى الأمان إلا بدوام ذكر الله تعالى واللهج به، وأن لا يزال اللسان رطبا به، وأن يتولى منزلة حياته التي لا غنى له عنها، وبمنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك(...) فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده؟ (...)

وأمَّا هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا ونسيه في العذاب يوم القيامة. قال تعالى: ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾[207]."[208]

ومن بركة ذكر الله سبحانه وتعالى، أني غدوت في مأمن من نسيانه لا سيما وأنا في بلاد الغربة والفتنة، فكان الذكر ملجئي وحصني الحصين، أتنعم فيه بانشراح الصدر وانفساح القلب متذوقا نعيم الأنس والرضا.

---

[207] - سورة طه، الآيات 124-126.

[208] - محمد بن قيم الجوزية: "الوابل الصيب من الكلم الطيب"، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ/1998م، ص 47-48.

لقد لبثت ما شاء الله من السنوات متفيئا ظلال الحالات الروحية المتعاقبة بلا انقطاع، متنقلا بين جَزْرِ الخوف ومَدِّ الرجاء، لا أتوقف عن الذكر باللسان أو القلب، حتى لكأنني أتنفس من خلاله. كما ألفيتني أرتشف رحيق المنازل والأحوال؛ كالوجد والذوق، والمحبة، والشوق، والزهد، واليقين، والذل، والانكسار، والعبودية إلخ.، حتى أمسى كياني ثملا من شراب ذاك الرحيق، فصارت باريس الفاتنة كلما وقع بصرها على وجهي الشاحب وجسدي الميت، أعرضت قائلة: هذا جسد بلا روح، لأن روحي حلقت خارج أسوارها، وفوق سمائها.

وكان من ثمرة السياحة والجولان بين تلك المنازل والأحوال، أن من الله علي بواردات أو خواطر معرفية إيمانية، كانت تحضرني بطريقة فجائية حاملة معها أعلام المنازل وألوان الأحوال. ومن لطف الله بي أنني كنت أشعر برغبة ملحة في كتاباتها والتعبير عنها، فور ورودها. فأبادر بذلك وأفرغ محتواها في كلمات وجمل لا تتعدى بضعة أسطر. وإليك عزيزي القارئ نص تلك الواردات أو الخواطر المعرفية والإيمانية.

2.4- واردات وخواطر إيمانية

أثر الوارد الإيماني

إذا ورد وارد إيماني قلبك، فلا تستغرب لما يحدث في باطنك، لأن الزائر الذي حل بقلبك رسول من عند الكريم، ولا يمكن لهذا الرسول أن يحل بمكان مملوء بما يتعارض مع مهمته. ومن علامات صحة الوارد: أن يكره إليك ما استعذبته نفسك من العوائد، وأن يمنعك من الاشتغال بكثير من أمور الدنيا، ويزيدك تعلقا بمحبوبك ويشغلك به عن غيره.

فِـــرَّ إلى الله

لا تألف غيره لأنك مفارقه، ولا تتعلق بسواه لأنه فان. وروحك خالدة. واعلم أنك في سفر منه إليه، وقد أودعك الأمانة فضيعتها في الطريق لتزودك زاد المقيم، ونسيت أنك على سفر، فأمنت سقر، فلفحك لهيبها. فِرَّ إليه وتذكر ألفتك الأصلية، واسأل الله أن يردها إليك، وفي الحديث: "اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها أمري...وتلهمني بها رشدي وترد بها ألفتي".

اجعل الله أنيسك

العابدون السائحون غمرهم الحضور وتجردوا مما سواه، وإن باشروا زينة الدنيا فبه، فلا حركة ولا سكون لهم إلا به، فهم في الغرفات آمنون، كما أن أهل الجنة في نعيم، وليس يحجبهم ذلك عن التعلق بمحبوبهم ومشاهدة أنواره. اجعل الله أنيسك في الدنيا وتحقق به لعلك تكون من السابقين، وتجرد به عن غيره لأن كل ما سواه باطل209، واعلم أن مطالعة أهل الجنة لأنوار الله وعدم انشغالهم بنعيمه عنه متعلق بعدم انشغالهم عنه بزينة الدنيا، فاكشف غطاءك قبل أن يكشف عنك.

حب الله يكفيك حب ما سواه

إذا أحببت الله فإنك لن تستطيع أن تشغل بما سواه، وإلا شعرت بالعذاب والحيرة حتى ترد إليه. وإذا لم تشعر بذلك وقد أقبلت على غيره، فما صدقت في حبك

---

[209] - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: ألا كل ما خلا الله باطل" حديث صحيح رواه مسلم عن أبي هريرة. وتكملة البيت الشعري قول الشاعر: وكل نعيم لا محالة زائل.

له وكنت فقط تحت سيطرة الوهم، وحبك لغيره ينتهي بانتهائه ويبقى الذي لا يفنى سبحانه ما أعظمه.

استعن بالصبر والصلاة

الله أكبر، الله أعظم، الله أجل. أسلم وجهك لله، واستمطر رحمته بالصبر والصلاة، واصدق الله في ركوعك وسجودك، واخضع وتذلل واستحضر عبوديتك تأخذك المناجاة إلى عالم يجل عن الوصف، تتفيأ في ظلاله، فترنو بعين البصيرة إلى جماله وبهائه. أعظم به من مقام، وأسعد بها من لحظات مع رب ودود، مقبل بوجهه الكريم على عبده الخاشع الذليل، واعلم أن حرصك على استحضار الخشوع في صلاتك إرضاء لربك، وطمعا في نعيم القرب وحلاوة المناجاة، لن يضاهي حرصه في الإقبال عليك والاستماع إلى دعواتك. ولئن جئته تمشي أتاك هرولة.

العهد والميثاق

إن الأرواح لما خوطبت في ميثاق الذر، ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا﴾، وشهدت بأن الله ربها، لم تكن تعرف بعد سجن الأشباح ولا مشاق الأمانة: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا﴾. ولما هبطت وسجنت، ووقعت في فخ النفس نسيت ثقل الأمانة فهلكت. ولو أنها حافظت على عهدها وميثاقها وظلت تعاين ببصيرتها ذاته، ولم تغفل عن ذلك طرفة عين لهان عليها ذلك.

أنت على الفطرة

أنت على الفطرة ما دمت على العهد، وإذا خنت الأمانة أوكلك الحق إلى نفسك. وهو يحول بين المرء وقلبه. فنورك من نور الفطرة، والله يهدي لنوره من يشاء.

وسلامة دينك معلقة بسلامة فطرتك. وصفاء هاته مرهون باتباعك للشريعة. فلا ترغب بنفسك عن نهج نبيك، وليكن هواك تبعا لما جاء به، ولا تتخلف عنه فيفوتك الركب ويقتلك الظمأ في فلاة.

الجـلال والجمـــال

إذا تجلت لك آية من آيات الحق في مظهر جمالي ولم ينكشف لك جلالها فما رأيت جمالها، وما استفدت من تلك الرؤية، إذ الجمال والجلال وجهان لحقيقة واحدة. فلا رجاء دون خوف، ولا خوف دون رجاء، ﴿وادعوه خوفا وطمعا﴾. وجماله يذكرك بجلاله، وجلاله يذكرك بجماله. ومن ثم فإنه ما تعرف إليك بجمال إلا وهو طالب منك أن تخافه؛ ﴿هذا من فضل ربي ليبلوني آشكر أم أكفر﴾، وما تعرف إليك بجلال إلا وهو طالب منك أن ترجوه.

لا تقف مع الحسنة

لا تقف مع الحسنة فتحجب عنه، ولا تيأس عند صدور السيئة فتسيء الظن به. ولا تكن حيث الخوف الدائم والهيمان والدهشة، وكن حيث شهود الجلال والجمال. حينئذ تفيض الحسنات عن ذاتك، ويسهل اجتناب السيئات لالتهاب نار الخشية في قلبك، ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾.

هـما جـــلالان

هما جلالان، ظاهري وباطني؛ والأول قد يدركه قلبك بواسطة حواسك، والثاني لا تراه إلا ببصيرتك إن أثمر الإدراك الأول. ويحدث الجلال الظاهري في القلب خشية قد تثبت وقد لا تثبت مع بقاء رسمك. ويحدث الثاني خشية ودهشة لا تنمحيان إلا أن يشاء الله مع ذهاب رسمك. وفي الأصل ما ثم إلا جلال واحد والتقسيم اقتضته طبيعتك.

خــوفـان لا يجتمعـان

خوفك منه يقهر خوفك مما سواه، ووجودك تحت سلطانه يجعل وجود ما سواه تحت سلطانك. والخوفان لا يجتمعان. والأول جوهري أصلي لتعلقه بالافتقار عين العبودية، والثاني عرضي طارئ. ويورث الأول الأمن والطمأنينة والنور، ويورث الثاني القلق والاضطراب والظلمة، ﴿فلا تخافوهم وخافوني إن كنتم مؤمنين﴾، ولو كنت مستحضرا ما كتب في اللوح المحفوظ ما خفت سواه فما أجهلك بربك.

خوفك منه حبلك إليه

إذا تمكن الخوف من قلبك ملكت التمييز، وتحركت الجوارح بالأمر، وسكنت بالنهي، وانمحى الاعتراض لضعف قوة النفس، وتلاشى الفرح إلا برحمة الله، والحزن إلا للتقصير في العبادة، ووقعت الإجابة بالطلب أو دونه لحصول الانسجام بين ذاتك والكون ولصدق اضطرارك؛ ﴿أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ والاضطرار إليه عين الخوف منه وحبلك الموصل إليه.

القرآن يخاطبك

إن القرآن خطاب رباني موجه إليك، فافتح قلبك له، واخشع في تلاوته لعل الله يلهمك بعض أسراره. وإذا لم يحدث في باطنك خشوعا أو طمأنينة، فما وقع الخطاب على قلبك، وما وعت أذنك؛ ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله﴾. فاحرص على أن تجعل رؤيتك بعين البصيرة للمشاهد الغيبية من جنة وملكوت، كرؤيتك بعين اليقين للمشاهد الدنيوية، لعل ذلك ينفعك في التقرب إلى الله.

مراعاة الوقت

لن تتجلى لك حقيقة ذاتك ما لم تراع وقتك، فلا تخضع لزمان لكونه فانيا، ولكون روحك لن تتغير وليست فانية، وكنزك هو الحال الذي أنت فيه، وأمسك لن يعود، وغدك ليس بحاصل، وحياتك هذه حلم، والتي بعد الموت هي الحياة؛ ﴿يا ليتني قدمت لحياتي﴾. روحك فهمت الخطاب خارج حجاب الزمن، واستعصى عليها استحضاره تحت وطأته. احفظ وقتك، وتحقق بالله فيه، تسطع عليك شموس المعرفة، وتحقق مراد الله من خلقك، وتفز بفرصة العمر قبل فواتها. فهو الموصل إن تحققت به، والحجاب إن غفلت عنه، وساعتك التي أنت فيها.

اجعل الوقت مطية لك

لا تكن مطية وقتك، بل اجعله مطيتك. وأحكم قبضتك على لحظاتك، فقد تهلك بين فتحة عين وغمضتها. والكل في قبضته فاحذره لأنه القهار. وأطلق بصرك فيما حولك، وبصيرتك في باطنك دون أن تشغل بسواه، فتحجب عما يمكن أن تلهمه. فإن صابرت وراقبت وأحاطت بك العناية، وتم لك ذلك، رميت سلاحك وكسرت شراع سفينتك.

اغتنم وقتك

لا تطرد يومك بغدك، ولا تجعل نفسك تعانق ما ليس بحاصل، أو ما لم يحن بعد وقت حصوله. وإذا لم تفعل ذلك، كنت غائبا وضيعت إمدادات وقتك، وأسأت الأدب؛ لأن الله لم يخلق شيئا عبثا، وآياته لم تزل تتجلى لك. ورب حضور منك يثمر علما يورثك القرب، ورب غيبة منك تثمر جهلا يورثك البعد. وإذا أنعم عليك بالقرب لم تعد تشغل بما سيأتي، لأن الذي يملك الكنز لا يعبأ بالفلس، كما أن القرب منه

ينفي كل الأبعاد، فلا أثر لماضي ولا لمستقبل، ومن تعلق بجمال الله وأسر بنوره حضر ولن يغيب.

احذر ريح الشرك

لا تجعل قلبك يسكن إلى علم وإن سما، أو عبادة وإن جلت، ولا تنسب ذلك إلى نفسك فتعصف بك ريح الشرك، وانسب إليه ما وصل منه إليك تكن شاكرا. وإن لم تفعل، استهوت نفسك ذلك، وتعلقت به وذلك عين المكر، لأن المرء لا يبعث إلا على ما مات عليه. والزم الخشية قلبك؛ لأن الله قد جعل التخويف أمنة من الأخذ بالمفاجأة وسببا للرحمة؛ ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

الذكر إرادتك

لم يجر الذكر على لسانك إلا وهو يريدك لحضرته، وإذا أرادك لذلك كنت في حفظه، وكان الذكر حرما آمنا لك، وأمست نار نفسك خامدة، وملكك مالك الملك زمامها، ألا ترى أنها تستسهل الأمر الصعب إذا حل بها حالة الذكر، في حين تستثقل أمرا هينا ولا تطيقه في حالة الغفلة. اصرف همك إليه واذكره مع أنفاسك لأنه لا يغفل عنك طرفة عين. وإذا حصل لك الأنس به وألفيت حلاوة الذكر، دل ذلك على الرضا، فقد جاء في الحديث القدسي "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني".

ذكرك له شرط ذكره لك

يا ابن آدم: ألم يأت عليك حين من الدهر لم تكن شيئا مذكورا، ثم غدوت مذكورا، أو ليس من الشكر والإحسان أن تذكر من صيرك مذكورا، وباهى بك الملائكة وأسجدهم لك؟ لقد أنساك الشيطان ذكر ربك حسدا لما علم ذكر الخالق

لك. فهو يطوف بك ويغويك وأنت لا تتذكر ولا تبصر. حذار أن يصدق عليك قول الله، ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾. وحري بك إن أنت ظلمت نفسك أن تذكره وتستغفره فيكشف عنك ما ظلمت به نفسك. واعلم أن ذكرك له شرط ذكره لك؛ ﴿فاذكروني أذكركم﴾، وحبلك الموصل إليه. وأنك بالذكر موجود وبعدمه معدوم. وإنك بالبيان صرت إنسانا، ﴿خلق الإنسان علمه البيان﴾ وحياة قلبك بالذكرى، ﴿فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾. وتجنب من أعينهم في غطاء عن ذكره، كي لا تعمى بصيرتك. واعلم أن أجل أوصافك وصف العبودية، فأنت عبد الله بالذكر، وعبد الهوى بالغفلة، والسجين المعذب بالإعراض؛ ﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا﴾. فعليك بذكر التسبيح والتهليل، وذكر الدعاء والثناء، وذكر التفكر، والتدبر والتفقه، وذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ثم عليك بالحسنات لأنهن ﴿يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾.

لا تكن عبد الحظوظ

تدارك أمرك إذا فاتك حظ وبدا أساك، فإن قدمك ليست ثابتة. والحق يثبت وهو الحظ فاقرع بابه. كل الحظوظ مسطرة في اللوح المحفوظ، وانتقالك بينها عين القدرة، ويمحو الله ما يشاء ويثبت. خذ كتابك بيمينك، واثبت على الصراط المستقيم وصابر وراقب وحاسب، واجمع آمالك فيه، ملكت الحظوظ أو فاتتك. ثم انظر واختبر فإن حزنت نفسك لفوات حظ، أو انبسطت لحصوله حتى أساءت الأدب، فما صحت طمأنينتها. وإن استوى عندها الحصول والفوات فقد تحقق لها المراد.

3.4- في أدب الواردات والخواطر

وبعد؛ عزيزي القارئ، تلك هي نماذج من الخواطر أو الواردات الإيمانية والمعرفية التي دونتها في مطلع الثمانينيات من القرن العشرين الميلادي، عندما كنت أحيا تجربتي الصوفية في مدينة باريس.

إن هذه الواردات عبارة عن خطاب تربوي روحي عميق، موجه إلى ذات كانت تعيش تجربة صوفية، تأمل من خلالها الظفر بالإصلاح والتزكية والاستقامة. ومما أثار انتباهي فيما يتعلق بطبيعة هذه الواردات، أنها كانت تحضرني عقب الشعور بحال من الأحوال الروحية، أو عقب لحظة تأملية في عظمة الله وجلاله، أو أثناء قراءة القرآن مع التدبر واستحضار الوعد والوعيد. فكما أن الحال معنى روحي يرد على القلب من غير اكتساب، أو يهجم عليه هجوما مباغتا، كذلك الشأن في الوارد الإيماني المعرفي، فإن المخاطب أو المرسل إليه يتلقاه دون سابق إعلام.

وكثيرا ما يكون الوارد أعظم قوة من متلقيه، فيأخذه عن نفسه، وقد يغيب عنها وعن غيره، ويحدث في باطنه من الآثار ما يجعله يشعر بالغربة النفسية، كأنه يتمثل بصدق وحرارة قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "عش في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل..."[210]. كما يحس بحقارة الدنيا وخستها، فيزهد فيها ويستقبح العوائد والتقاليد والعادات الاجتماعية المقيدة للإرادة، والمانعة من التحرر والانطلاق.

ولم يحصل قط أنني كتبت واردا واحدا خارج وطأة الحال ومناخه، أو كتبته بطريقة إرادية محضة، أعني أنني سطرته دون أن يحضرني معناه عقب الوقوع تحت هيمنة الحال.

---

[210] - رواه البخاري.

وبعبارة أخرى، فإن المعرفة الإيمانية التي أسفر عنها الوارد استفدتها من الحال الروحي الطارئ. وقد حصل عندي اليقين من خلال هذه التجربة الصوفية، أن المعرفة المستفادة من الأحوال الروحية تتصف بكونها ذوقية، وأن المعرفة كلما كانت ذوقية، كانت أرسخ وأثبت وأعمق في القلب. كما أن أثرها في السلوك لا يحتاج إلى دليل. ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا"[211]. فأخبر أن للإيمان طعما وأن القلب يذوقه كما يذوق الفم الطعام والشراب. قال الفقيه العلامة محمد قيم الجوزية: "فللإيمان طعم وحلاوة يتعلق بهما ذوق ووجد. ولا تزول الشبه والشكوك عن القلب إلا إذا وصل العبد إلى هذه الحال. فباشر الإيمان قلبه حقيقة المباشرة، فيذوق طعمه ويجد حلاوته والله الموفق"[212].

4.4- واردات وخواطر إيمانية بعد التوبة

وبعد هذا الكلام، قد يقول قائل: لولا تلك الحياة الصوفية التي كنت تحياها، ومحبتك للتصوف وأهله، واستلهامك لتراثهم، لما فتح الله عليك بهذه الواردات ولما سطرت منها شيئا.

أقول له: ليس التصوف شرطا هنا، والفتح من الله يعم المؤمنين، وأحيلك مثلا على كتاب "المدهش" لابن الجوزي رحمه الله، إنه كتاب ضخم يحتوي على مئات الواردات والخواطر الإيمانية، كتب بأسلوب جزل، سلس، أخاذ ومؤثر، علما بأن كاتبه لم يكن صوفيا، بل اشتهر بنقده للصوفية، ووضع كتابا في ذلك أسماه "تلبيس إبليس"، ثم إني بالمناسبة أضع بين يدي القراء مجموعة أخرى من الواردات

---

[211] - رواه المسلم.

[212] - إبن قيم الجوزية: "مدارج السالكين" ج 3، ص 101.

والخواطر؛ كتبتها في مطلع العقد الأول من القرن الميلادي الحالي، أي بعد اثني عشرة سنة من حصول توبتي ومفارقتي للتصوف:

لــــذّة الذكـــــر

لا تعبده على رسم التكليف، مجردا عن المحبة والتزليف. فغاية العبادة رؤيته، ولذة القلب ذكره، وما تلذذ أهل الجنة بأعظم من تلذذهم برؤيته وذكره إذ "يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس". فأصل محبته في قلبك، واذكره على كل أحوالك، واعلم ألا طعم للجنة ألا بذكره ورؤيته، وأن حقيقة العبودية في تأمله جل جلاله وعكوف القلب عليه، وعند كشف الغطاء يفرح المؤمن باللقاء .

كن موصولا بالحق

إذا رمت التلذذ بشئ فلم تظفر بلذة، أو كان حظك ضعيفا، أو كطيف لم يلبث أن توارى، فاعلم أنك لم تكن موصولا بالحق وأن حبلك منقطع. واعلم أن لا تلذذ في الحقيقة إلا ما كان مع الذكر والقرب والحضور، وأن لذة الغفلة والبعد أماني وسراب وغرور. فاظفر بالأصل تنعم به وبالفرع، وإلا فلا أصل ولا فرع وإنما ضرب في حديد بارد.

إذا استغرق الذكر كيانك

إذا سكت لسان فمك عن الدنيا ونطق لسان قلبك بالآخرة، وتجوهرت نفسك بالذكر حتى استغرق كيانك، واستمعت إلى لغته العذبة بسمعك الباطني، وحصل لك الهيام بالتهليل والتسبيح، وصرت كانك مجذوب وما بك جذب، فاعلم أن الله قد فتح في قلبك نافذة تطل منها على جنة الذكر، وأن أهل الجنة، جعلني الله وإياك منهم،

"يلهمون التسبيح كما تلهمون النفس"، وأن ذكرك يوقد من شجرة الإيمان تكاد أغصانها تتلألأ نورا ولو سكت لسان قلبك ساعة.

اختبر نفسك

إذا اعترضت محابه سبيل محابك فانزعجت نفسك واستعجلت هواها، فاعلم أنها كاذبة إذ المحب للحبيب مطيع. ولو أنها استجابت لأوامر ربها و سارعت إلى مرضاته؛ "وعجلت إليك ربي لترضى"، لظفرت بحلاوة إيمانية عظيمة و لذاقت لذة روحية زهدتها في سائر اللذات و لله في خلقه شؤون.

كيف يتحقق السفر إليه

طرقت الباب فقيل لي: ارجع من حيث أتيت، فافترشت التراب واستلقيت، ثم توسدت بخدي العتبة وبكيت، فنادتني هواتف الروح؛ تجرد من تاج الهوى وطيلسان النفس الأمارة، وطواغيت الشرك، والبس رداء الذل والافتقار، وقميص الخوف والاضطرار، وقتئذ يفتح الباب على مصراعيه، ويتحقق السفر منه إليه، ويحلو الذكر والمناجاة، ويحصل مالا تترجمه العبارات.

أين الفاني من الباقي

تقرب إلى الواحد الأحد، وعانق ساحل الأبد، ولا تقف مع اليوم، فقد أخنى عليه الذي أخنى على لبد، ولكن انظر إلى غد. فمثلك لا يرضى بالدنيا مقاما، ولا يكن لنعيمها حبا ولا غراما. فأين الفاني من الباقي، وأين الثرى من الثريا، وأين النعيم بلا نعيم من نعيم لا يفنى، وأين الملك بلا ملك من ملك لا يبلى؛ حيث ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وتطيب اللقيا؟!!.

تحرر من رغبات العاجلة

لا ترغب عن ملة إبراهيم فتشقى، ولا ترغب بنفسك عن نفس نبيك فتضل. واجمع رغباتك في المرغوب الأحد، تسعد في الدارين إلى الأبد. واعلم أن تحررك من رغبات العاجلة يقوى يقينك ويحبب إليك نعيم الآجلة، وأن لهثك وراءها يضنيك، ومن الظمأ ما يرويك. واعلم أن شمسك قد أوشكت على الطلوع من مغربها، وأن ساعتك قد بدت كاشفة حجابها. فأين قلبك من وطأتها وهولها، وما أنت قائل لربك وربها؟

مطلبك الـوهـم

إذا التفت عنه فأنت في غير مطلب، وأضحى مطلبك الوهم لأن ما سواه باطل. واعلم أن كل لذة فانية إلا لذة تصلك بوجهه، أو بصفة من صفاته. ومن ذاق حلاوة القرب زهد فيما سواها. وحلاوة القرب تدوم والأخرى لا تلبث إلا عشية أو ضحاها.

حياتك في الدنيا

حياتك في الدنيا زرع وبذر، وفي الآخرة جني وحصاد، فعليك ببذر الخير والتزود ليوم المعاد، وتجنب بذر الشر فربك بالمرصاد، والخير يدوم ويبقى ويخلد أبد الآباد، والشر في الدنيا يبلى ويفنى فما أشبهه بالرماد: ﴿مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الرياح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد﴾.

أفكلما غزلت نقضت؟

ألهمك غزل الدنيا والآخرة وأبيت إلا النقض فما شكرت، ودلك على الهداية فأبصرت ثم أعرضت فما اهتديت، أفكلما غزلت نقضت ؟ بئس ما فعلت، ألهمك التقوى فما زكيت، فضللت الطريق وهمت على وجهك بما دسيت، عاهدت الله في الزمن الأول وقبل الأزمان فما وفيت، وشهدت له بالربوبية فما حفظت وما التزمت؛

﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾. فيا ليت شعري هل إلى مرد من سبيل، ومن دواء للقلب العليل، ومن أمل في نعيم الجنة وظلها الظليل، رحماك رحماك عبد لاذ بحماك.

أقم قيامتك

إذا تذكرت الواقعة، وبرق البصر، وخسوف القمر، ولم يصبك خدر، ولا وجدت أثرا في باطنك، فما حصل لك اليقين بالمشهد الرهيب. أقم قيامتك قبل يومها، واستحضر مشاهدها قبل أن تباغتك، واجمع غدك بيومك وما ثم غير يومك. وإذا صح منك التقرب أعطيت سر العبادة، ونلت حلاوة المناجاة، وغشيتك السكينة، وكتبت في ديوان المقربين، ومن ذاق لذة الوهب لا يفرح بالكسب.

يا لوْهَوْلَ المَطْلَع

أزفت الأزفة، وصخت الصاخة، وأدبرت الدنيا وأقبلت الآخرة، وأنت في شأن آخر كأنك غير مطلوب ولا مخاطب: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾. كلا لتقفن بين يدي العزيز ويا لهول المطلع، ولتفترسنك الندامة ويا لسوء المصرع، ليت أمي لم تلدني أين المفزع؟

أجمل ما يرى

خير ما يلقى في القلب اليقين، وأجمل ما يرى وجه رب العالمين، وألذ ما يطرب السمع كلام الحبيب، وترتيل الذكر بمزمار داود وشذو نساء الجنة والحور العين. وأحسن ما تقر به العين مقام أمين في أعلى عليين. وكل ما لم يفض بك إلى هذا فوهم وغرور وتخمين، أو هشيم تذروه الرياح فوق الربى وعلى البطاح. ولله ذر لبيد:

ألا كل شئ ماخلا الله باطل   وكـل نعيم لا محالة زائل

وجه الله أعظم مما يخطر على بالك وأقر للعين وأجمل ما يرى وأبهى، وليس وراء الله مرمى، ولا بعد ذكر الله من خير يرجى أو نعمة تجتبى، ولا أحسن من قرآنه ما يتلى، وإليه يصعد الكلم الطيب ويرقى.

5.4- رجوع السفينة إلى شاطئ الأمان

وبعد، أحمد الله سبحانه وتعالى أن رد السفينة إلى الساحل وشاطئ الأمان، بعد أن أوجعتها ضربات الأمواج العاتية. لقد كانت رحلتي الصوفية، سواء أيام الخلوة التي دامت تسعة عشر يوما، أو خلال السنوات السبع التي قضيتها مع التجربة الصوفية في فرنسا، مليئة بالاكتشافات في عالمي النفس والثقافة الدينية، كما أن غرائب هذه الرحلة، وعجائبها ومظاهرها، ومعانيها أثرت في شخصيتي تأثيرا قويا حتى كأنني ولدت للمرة الثانية. والحقيقة أن طبيعة الرحلة الصوفية أهول من السيل بالليل، وطريقها وعر ملئ بالأشواك، وأكثر ما يتراءى لصاحبها من معاني وحقائق، هي أكذب من البرق الخلب "ورب غيث عاد عيثا"، ووبل صار وبالا. نعم هذا الذي حسبته غيثا كان سيقذف بي في كهوف تركيا أو الهند أو وسط غاباتها هائما على وجهي... !!!

لم أكن أتصور وقوع هذه الأمور الفاسدة قبيل الخلوة، بل كان أملي يتلخص في تربية النفس، ومجاهدتها وتزكيتها، والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى. لكن كيف يا ترى طرأ هذا الخور والهذيان، وحضرتني تلك الخيالات والرؤى الفاسدة المضلة؟! لقد كانت نيتي صادقة، غير أنني أخطأت الطريق عندما مارست الخلوة.

قال الفضيل بن عياض: العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل. وإذا كان صوابا، ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا. والخالص: ما كان لله. والصواب: ما كان على السنة. وهذا هو المذكور في قوله تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾، وفي قوله عز وجل: ﴿ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن﴾.

فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه، على متابعة أمره. وما عدا ذلك فهو مردود على عامله، يرد عليه أحوج ما هو إليه، هباء منثورا. وفي الصحيح من حديث عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"[213]. وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعدا. فإن الله تعالى إنما يعبد بما شرع، لا بالآراء والأهواء.

إن الخلوة الأربعينية التي يحث عليها أرباب التصوف مريديهم وأتباعهم، لا أصل لها في الكتاب والسنة. يقول محمود عبد الرؤوف القاسم: "الخلوة (أو العزلة): طقس إشراقي أساسي، لابد منه في السير إلى الجذبة، مارسه الإشراقيون منذ أن اكتشف إبليس أحبولة "الإشراق" التي كانت على مدى التاريخ، وما زالت، تسمى "المعرفة" وجاء إشراقيو المسلمين فغلبوا عليها اسم "الصوفية والتصوف".

[213] - رواه البخاري ومسلم.

كان إشراقيو الأمم، وما زالوا، يمارسون الخلوة في كهوف الجبال والوديان وفي شعابها، وفي أعماق الغابات، أو في كهوف تبنى في المعابد خصيصا لهذه الغاية.

ومثلهم تماما، مارسها متصوفة المسلمين، لكن قرونهم الأولى، استعاضوا عن كهوف المعابد بخلوات في بيوتهم، لأن المسلمين في ذلك الوقت كانوا يعرفون الإسلام ويفهمونه، وكانوا يعرفون أن هذه الزندقة غريبة عن الإسلام، فكل من عرف بها أقاموا عليه حد الردة.

وتوالت الأيام، وشيئا فشيئا فعلت السموم الصوفية التي كانوا ينفثونها بهدوء فعلها في المجتمعات الإسلامية، ففشا فيها الجهل والخرافة، وأخذ كهان الصوفية حريتهم بإعلان عقيدتهم الفاسدة والدعوة إليها، وسموها أسماء فيها من الوقاحة بقدر ما فيها من الجرأة والافتراء على الله سبحانه، وبنوا لها هياكلها الخاصة التي سموها "الخانقاه" وفي الخانقاهات أقاموا، وفيها أقاموا كهوف الخلوة"[214].

قال أبو حامد الغزالي: "وفي العزلة خلاص، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إثارة للخصومات، وتحريك لغوائل الصدور ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالبا"[215]!!؟

كما أن شيوخ الصوفية ينصحون مريديهم بالإكثار من الجوع والسهر والتزام الصمت التام.

---

[214]- محمود عبد الرؤوف القاسم: "الكشف عن حقيقة الصوفية"، المكتبة الإسلامية، عمان الأردن، 1413 ص 334-335.

[215]- أبو حامد الغزالي: "إحياء علوم الدين"، ج 2، ص 250.

هذه الممارسات والسلوكات التي يطلق عليها الصوفية اسم المجاهدة أو الرياضة النفسية، بعيدة كل البعد عن وسطية الإسلام وهديه، ومنافية لأهدافه السامية القائمة على بناء المجتمع الإسلامي، وإقامة الاستخلاف في الأرض. وكما أصابتني سهام الخلوة بما تشتمل عليه من جوع وسهر وصمت دائم، حيرتني التغيرات النفسية والروحية العميقة التي باغتتني بعد يومين من بدء ممارستي للذكر بالاسم المفرد. لقد كان لصدى الموسيقى والأصوات والأذكار الجميلة، وقع قوي في نفسي مما دفعني إلى التفكير في إقامة قطيعة كلية مع المجتمع خوفا على هذا الكنز من الضياع!!.

والخلاصة أن الحالة النفسية التي كنت أعيشها كانت أشبه بحال من الأحوال النفسية التي تعتري الصوفية. وكثيرا ما يطغى الحال على العقل والعلم عند أهل التصوف، فيحصل الزيغ وتظهر بعض الشطحات، فإن كل حال لا يصحبه علم غالبا ما يكون من خداع الشيطان.

يقول العلامة محمد بن قيم الجوزية: "والبلية التي عرضت لهؤلاء أن أحكام العلم تتعلق بالعلم وتدعو إليه. وأحكام الحال تتعلق بالكشف. وصاحب الحال ترد عليه أمور ليست في طور العلم.. فإن أقام عليها ميزان العلم ومعياره، تعارض عنده العلم والحال.. فلم يجد بدا من الحكم على أحدهما بالإبطال.

واعلم أن المعرفة الصحيحة: هي روح العلم. والحال الصحيح: هو روح العمل المستقيم. فكل حال لا يكون نتيجة العمل المستقيم مطابقا للعلم: فهو بمنزلة الروح الخبيثة الفاجرة. ولا ينكر أن يكون لهذه الروح أحوال، لكن

الشأن في مرتبة تلك الأحوال ومنازلها. فمتى عارض الحال حكما من أحكام العلم، فذلك الحال إما فاسد وإما ناقص. ولا يكون مستقيما أبدا.

فالعلم الصحيح والعمل المستقيم: هما ميزان المعرفة الصحيحة، والحال الصحيح، وهما كالبدنين لروحيهما"[216].

وقال أيضا: "من أحالك على الحال فما أنصفك. فإنه أحالك على أمر مشترك بين الحق والباطل. فإن كل من اعتقد شيئا وطلبه صادقا، واستفرغ وسعه في الوصول إليه، كان له لا محالة في حال ليست لغيره بحسب صدقه في طلبه، وجمع همته وقصده عليه. وهذا يكون للأبرار والفجار، بل لأولياء الله وأعدائه. فيكون الرجل له شهود بمشهوده، وحال في طلبه، لا يوجب كونه حقا ولا باطلا. فإن كل من اعتقد عقيدة، وارتاض وصقل قلبه بأنواع الرياضة، وجزم بما اعتقده تجلت له صورة معتقده في عالم نفسه. فيظن ذلك كشفا صحيحا وإن كان صادقا في طلبه وحبه لما اعتقده، كان له فيه حال وتأثير بحسبه. فالحوالة على الحال حوالة مفلس من العلم على غير مليء به.

ومن ههنا دخل الداخل على أكثر السالكين وانعكس سيرهم، حيث أحالوا العلم على الحال وحكموه عليه.

وسير أولياء الله وعباده الأبرار والمقربين بخلاف هذا، وهو إحالة الحال على العلم، وتحكيمه عليه وتقديمه، ووزنه به وقبول حكمه. فإن وافقه العلم، وإلا كان حالا فاسدا، منحرفا عن أحوال الصادقين بحسب بعده عن العلم. فالعلم حاكم والحال محكوم عليه. والعلم راع والحال من رعيته. فمن لم يكن هذا

---

[216] - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج 2، ص 112-113.

أصل بناء سلوكه، فسلوكه فاسد. وغايته الانسلاخ من العلم والدين، كما جرى ذلك لمن جرى له. والله المستعان"[217].

وقال أيضا: "وصاحب التمكين يتصرف علمه في حاله، ويحكم عليه، فينقاد لحكمه، ويتصرف حاله في حلمه، فلا يدعه أن يقف معه بل يدعوه إلى غاية العلم، فيجيبه ويلبي دعوته. فهذه حال الكمل من هذه الأمة، ومن استقرأ أحوال الصحابة رضي الله عنهم وجدها كذلك"[218].

وقال أيضا: "فصاحب الرياضات، والعامل بطريق الرياضات والمجاهدات، والخلوات هيهات هيهات، إنما يوقعه ذلك في الآفات، والشبهات، والضلالات. فإن تزكية النفوس مسلم إلى الرسل. وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليما وبيانا وإرشادا، لا خلقا ولا إلهاما، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾. وقال تعالى: ﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾.

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد. فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب. فلا سبيل إلى

---

[217] - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج 2، ص 223-224.

[218] - المرجع نفسه، ج 3، ص 150.

تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم. والله المستعان"[219].

نعم إن منطق الحال وليس منطق العقل والعلم هو الذي أملى علي الأفكار السوداء المتعلقة باستهجان الزواج وتركه والابتعاد عن الوظيفة والعمل، ثم الاغتراب في البلدان النائية متنقلا بين الزوايا أو الكهوف والغابات. وهذا سلوك يمجه العقل بله الدين الحنيف.

يقول محمد بن قيم الجوزية رحمه الله: "إذا عزم العبد على السفر إلى الله تعالى وإرادته، عرضت له الخوادع والقواطع؛ فينخدع أولا بالشهوات والرياسات والملاذ والمناكح والملابس. فإن وقف معها انقطع، وإن رفضها ولم يقف معها وصدق في طلبه، ابتلي بوطء عقبه، وتقبيل يده، والتوسعة له في المجلس، والإشارة إليه بالدعاء ورجاء بركته، ونحو ذلك. فإن وقف معه انقطع به عن الله وكان حظه منه، وإن قطعه ولم يقف معه ابتلي بالكرامات والكشوفات؛ فإن وقف معها انقطع بها عن الله وكانت حظه، وإن لم يقف معها ابتلي بالتجريد والتخلي ولذة الجمعية وعزة الوحدة والفراغ من الدنيا.

فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود، وإن لم يقف معه، وسار ناظرا إلى مراد الله منه، وما يحبه منه، بحيث يكون عبده الموقوف على محابه ومراضيه أين كانت وكيف كانت، تعب بها أو استراح تنعم أو تألم، أخرجته إلى الناس أو عزلته عنهم، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليه وسيده، واقف مع أمره ينفذه بحسب الإمكان، ونفسه عنده أهون عليه أن يقدم راحتها ولذتها على

---

[219] - محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، ج 2، ص 356.

مرضاة سيده وأمره. فهذا هو العبد الذي قد وصل ونفذ ولم يقطعه عن سيده شيء البتة. وبالله التوفيق"[220].

وهذا الكلام يتضمن حججا وبراهين غاية في الصواب والدقة، ويبين أن الانقطاع الحقيقي إلى الله يكون بطاعته وامتثال أوامره، والاستجابة لندائه، وتلبية دعوته مهما كان نوعها ووقتها، وألا يفضل ما تميل إليه نفسه مثلا من التجريد والتخلي وعزة الوحدة إلخ.، على ما يختاره الله له من معاشرة الناس، ونصحهم وهدايتهم، والتودد إليهم والصبر على أذاهم، وتلك وظيفة من وظائف الأنبياء، فكيف يتخلى عنها من يدعي مقام القرب والأنس بالله ومحبته؟؟. قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: "المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم"[221]، ولو كان صادقا في أنسه بالله ومحبته له للبى نداءه وبادر إلى ممارسة وظيفة الأنبياء والرسل، لكنه أحب نفسه وأنس بها وركن إلى كشوفاته وكراماته، واطمأنت نفسه إلى تجريده وخلوته، فذاك حظه ونصيبه، وليعلم أنه قد انقطع إلى نفسه ولم ينقطع إلى ربه. وهذا العبد ليس عبد الله وإنما عبد الحظوظ النفسية، يدور معها كيفما دارت، ويحط رحاله في فنائها أينما حلت وارتحلت، وينزعج لفواتها أو لمكروه يصيبها فيكدر صفوها عليه.

ومن باب الجمع والتوفيق، يمكن القول بأن الخلوة الحقيقية والنافعة هي الخلوة بالله وسط عياله؛ أي أن المحب الصادق يعيش خلوته بالله ومعه، وهو في أهله بين أولاده، وفي غرفته، أو متجره أو إدارته، وفي كل أعماله المشروعة.

---

220 - محمد بن قيم الجوزية: "الفوائد"، ص172.

221 - رواه أحمد، والبخاري في "الأدب المفرد"، والترمذي.

مكثت خلال السنوات الثمانية التي تلت الخلوة الصوفية متشبعا بأفكار المتصوفة ومتأثرا بمنهجهم في السلوك والعبادة. لكنني في منتصف هذه المرحلة الزمنية بدأت أستعمل حاسة النقد في تحليل بعض المعتقدات الشاذة التي سادت عند كثير من المتصوفة، مثل الأفكار المتعلقة بالمذهب الإشراقي، الذي عرف عند شهاب الدين السهروردي وغيره من الإشراقيين، أو الأفكار التي تدور حول نظرية العشق والمحبة التي اشتهر بها ابن الفارض، وكذلك بعض ما كان يعتقده الحكيم الترمذي، وأبو حامد الغزالي، ومحيي الدين بن عربي الحاتمي، من تصورات منحرفة وضالة متعلقة بطبيعة النفس، يظهر أثر الفلسفة اليونانية والفلسفات المشرقية، واضحا في ثناياها.

وهكذا بدأت شيئا فشيئا أتخلص من أدران وشوائب كانت عالقة بذهني، حتى انتهى بي المطاف، وأنا في خضم النقد الذاتي، إلى الشك في منهج العبادة والسلوك عند المتصوفة. وأظن أنني لو كنت متصوفا على طريقة صوفية متعلقة بشيخ حي أو ميت حيث الأوراد والطقوس، لكان تخلصي من التصوف أصعب، لأن المتصوف الطرقي لا يحتكم إلا إلى شيخه وفلسفة طريقته الصوفية، وكذا إلى الإلهامات والإشراقات والرؤى، كما يكون مسلوب الإرادة بعدما تمكنت منه شخصية شيخه، بحيث لم يعد في نفسه متسع لغيره، فيكثر الحديث عنه وعن كراماته خلال النهار، ويراه في أحلامه أثناء نومه. وباختصار فإنه يرى بعينيه ويسمع بأذنيه ويتنفس بنَفَسه !!؟ ولذا فإن روحه لا تنفك ممتزجة بروح شيخه، ولا يتصور وجود عيب فيه، كما لا يطيق الاستماع إلى من ينتقده أو ينتقص من قدره.

وأحمد الله أني كنت قد ولجت هذا العالم الصوفي وأنا أحمل في نفسي هم التوبة وتزكية النفس، ثم تنسم عبير المعرفة الصوفية، فكانت المغامرة وكانت الرحلة. لكن لما هدأ بحر النفس، ولم تعد أمواج الذوق الصوفي متلاطمة، وانحلت سحائب الإشراقات، وغاب صدى الموسيقى والألحان الغريبة عن الصدر والقلب والدماغ، توقدت بإذن الله عين النقد من جديد وصحوت بعد سكر، فتكسرت القيود وعادت الإرادة إلى مجراها الطبيعي، حيث العبودية ونهج المصطفى الكريم صلوات الله عليه وعلى آله.

ملحـــقـان

ملحق 1:

العبور الأمريكي عبر "الزاوية الصوفية"

ملحق 2:

أزمة التصوف الطرائقي في المغرب

ملحق 1: العبور الأمريكي عبر "الزاوية الصوفية"

مدخل:

"لا تخافوا سائر الإسلاميين، خافوا السلفيين".. بهذه العبارة الموجزة لخص الكاتب "روبن رايت" هواجس أمريكا حول "التطرف الإسلامي"، زاعماً ظهور ما يسميه (هلال سلفي جديد يتشعب من مشيخات الخليج الفارسي إلى بلاد الشام وشمال إفريقيا، هو أحد المنتجات الجانبية الأكثر تجاهلاً والمثيرة للقلق من الثورات العربية. وبدرجات متفاوتة يتحرك هؤلاء المتشدّدون الشعوبيون في الفضاء السياسي الذي كان يحتله المسلحون الجهاديون، والذين هم أقل رواجاً الآن. وكلاهما أصوليون يفضلون نظاماً جديداً مشكلاً على غرار الإسلام الأول. وليس بالضرورة أن يكون السلفيون مقاتلين، فأغلبهم ينبذ العنف)[1].

وهكذا قويت مع الزمن هذه الهواجس في نفوسهم، لدرجة وضع فيها الغرب جميع السلفيين في خانة التشدد، وانطلقوا يهرفون بمواجهتهم بما يصفونه بتيارات "الإسلام المعتدل".

ولقد كان من إحدى العلامات البارزة في مجال صناعة وصفة "الإسلام المعتدل"، توظيف الغرب مراكزه وبحوثه ودراساته المتخصصة في المجالات الإسلامية لبناء مصادر معلوماتية زاخرة لصنّاع القرار والسياسات، واضعاً بين أيديهم خلاصات رصد الصحوة الدينية وسط المسلمين، والتي يجرى دفعها في نهاية المطاف إلى "المطابخ الاستراتيجية" من أجل تحويل مخرجاتها النهائية لأغراض الإنذار المبكر حول الإسلام والجماعات الإسلامية والصحوة الإسلامية. هذا إلى جانب الاستفادة منها في بناء الاستراتيجيات والسياسات الميدانية لمواجهة التطور الحاصل في العمل الإسلامي على مستوى الدول والمجموعات الإسلامية.

وقديماً كانت تضطلع بهذا الدور المعلوماتي المهم حركة "الاستشراق والمستشرقين" التي أسدت خدمات جليلة في ذات الاتجاه؛ من خلال الغوص في أعماق التاريخ والإرث الإسلامي العميق، والعمل على استكشاف كل ما يمكن الاستفادة منه في خدمة الغرب في سجاله ومواجهته الإسلام عبر العالم؛ فكان عملها خير عون ومساعد للجيوش الاستعمارية الغربية في غزو واختراق الدول والمجتمعات الإسلامية.

وتمثل الأسطر التالية جانباً أولياً من الرصد والمتابعة والقراءة في مسيرة تطبيق استراتيجية الولايات المتحدة في "بناء شبكات إسلامية معتدلة" لمواجهة "السلفية" في العالم. وهذا الجهد في مجمله تلخيص لمعلومات وردت عبر مختلف الوسائط الإعلامية.

أولاً: أبعاد الاستراتيجية الأمريكية في استغلال الصوفية لترويض العالم الإسلامي:

كما هو معلوم انشغل عديد من مراكز البحوث الاستراتيجية الأمريكية فيما بعد (2001م)، وطبقاً لموجّهات استراتيجية عليا؛ بهندسة استراتيجيات عملية لتحجيم "السلفيين" ومحاصرة ما يصفونه بـ "الإسلام السياسي"، عبر إنشاء شبكات من مجموعات إسلامية أخرى - تحديداً ممن يطلقون عليهم الجماعات الدينية التقليدية، ممثلة في (الصوفية) و(جماعة البلاغ) والعلمانيين (الليبراليين) في جانب، والشيعة في الجانب الآخر.

وكما هو معلوم أيضاً يتلخّص الدور المناط بهذه الشبكات في تحقيق القبول لأمريكا وسط المسلمين، وتحسين صورتها ومساعدتها على خلق بيئة هادئة لعمل استراتيجياتها التي تنشط داخل أرجاء العالم الإسلامي. ولم يعد سراً اعتماد الاستراتيجية الأمريكية "الإسلامية الجديدة" على تدشين عملية بعث الفكر الصوفي والطقوس الصوفية بَدءاً بتوثيق الصلات الأمريكية مع المشيخات والطرق الصوفية التي اختيرت بعناية فائقة للعب الدور المنتظر منها، وظهر بجلاء انخراط البعثات الدبلوماسية الأمريكية في مهام جديدة عبر صندوق سفرائها لإعادة إحياء المقامات والأضرحة من أجل إعلاء المؤثرات الروحية الصوفية التي يرون فيها سبيلاً للقضاء على تأثيرات التيارات "المتشددة". وبالطبع، تنتظر أمريكا مردوداً سريعاً لذلك العمل المشترك - سياسياً ودبلوماسياً واقتصادياً.

الدراسات الأمريكية التي تناولت الإشارة للصوفية كبُعد استراتيجي للولايات المتحدة	
الجهة	الفعالية
مؤسسة راند	عام 2003م - دراسة بعنوان: (الإسلام المدني الديمقراطي)
مركز نكسون للدراسات	عام 2004م - مؤتمر بعنوان: (فهم الصوفية ودورها المحتمل في سياسة الولايات

	المتحدة)
معهد الولايات المتحدة للسلام	عام 2005 - دراسة بعنوان: (الإسلام السياسي في إفريقيا جنوب الصحراء)
مؤسسة راند	عام 2007م - دراسة بعنوان: (بناء شبكات إسلامية معتدلة)
مؤسسة كارنجي للأبحاث	عام 2007م - دراسة موسعة: (الصوفية في آسيا الوسطى)
مؤسسة راند	عام 2009 - دراسة بعنوان: (الإسلام الراديكالي في شرق إفريقيا)

1. منبع اهتمام أمريكا بالصوفية:

على امتداد سنوات العقد الماضي تركز اهتمام الإدارات الأمريكية المتعاقبة على الجماعات الصوفية في باكستان والصومال والسودان ومصر والأردن، وبعض دول المغرب العربي، ودول أوروبا وأمريكا.

ومبعث هذا الاهتمام الكبير بالصوفية، والفئات الأخرى؛ هو بحث أمريكا عن شريك داخل جسد الأمة المسلمة يمكن أن تنفذ من خلاله استراتيجياً إلى تحجيم وإبعاد التيارات السلفية التي تقف حجر عثرة أمام هيمنتها على المسلمين ومسعاها لإقصاء الإسلام من حياتهم. وقد وجد الباحثون الأمريكان هذه الضآلة المنشودة في الصوفية بصورة مركزية، من خلال وجهات نظر عديدة:

• فكرياً: يرى الأمريكان أن "فرق المتصوفة" و"النخب الليبرالية" على امتداد العالم الإسلامي، هم أكثر المجموعات التي يسهل استيعابها وانخراطها في المشروع الأمريكي لمواجهة "المد السلفي" و"الإسلام السياسي" في العالم؛ لما يتمتعون به من رغبة قوية واستعداد ذاتي للالتقاء والعمل مع الآخرين من أجل إقصاء "السلفية" من واجهة التأثير في العالم الإسلامي.

• دينياً: يتصور الغرب، وأمريكا على وجه الخصوص، أن الصوفية أكثر الفئات المسلمة تساهلاً في اتباع السنة وأعلاها احتفاء بالمبتدعات وأقلها في جانب تطبيق النصوص المنادية بالعمل بفهم

السلف الصالح؛ ولذا يعتبرونهم غير متشددين في التطبيق والممارسة، بينما يشيدون بما يتميز به الفكر الصوفي من تقديس الأضرحة والمشايخ وحب الإنشاد والميل للطقوس الاحتفالية والموالد، فهي أمور يرتضونها ويعتبرونها ممثلاً للإسلام "الوسطي!"، وهم على استعداد لدعم انتشارها وترويجها في المجتمعات الإسلامية.. وهذا بالطبع مردّه إلى أن النصرانية واليهودية لا ترغبان في وجود أمة إسلامية قوية في عقيدتها وارتباطها بربها ونبيها حتى تسهل مهمتهما بين المسلمين.

• سياسياً: يتصوّرون أن الفرق الصوفية أكثر المسلمين اعتدالاً، وأكثرها ابتعاداً عن العمل السياسي ونهج العنف. وطبقاً لذلك هم يتصوّرون أن المتصوفة أكثر عداء "للإسلام السياسي"، وأقل إلحاحاً في المطالبة بتطبيق الشريعة، ولا يعملون بصورة منظمة من أجل انتقال بلدانهم للحكم بالإسلام.. ولهذه الخصائص السياسية التي يتوقعونها من الصوفية فقد جعلوهم في تلاقٍ كبير مع الليبراليين لتشكيل جبهة للوقوف ضد خصومهم هؤلاء لمحاربة "التطرف والغلو"! بحد زعمهم.

خلاصة الدراسات الأمريكية التي بُنيت عليها استراتيجية استغلال التصوف
- الصوفية تمثل: "البديل الثقافي والاجتماعي والدين الأساسي لمواجهة الأشكال الأيديولوجية للإسلام المهيمنة حالياً في العالم الإسلامي". **- الصوفية هي: "الإسلام الذي يمكن أن تتعامل معه أمريكا والغرب، حيث يمكن أن تقدم مساعدة عظيمة للعالم، وذلك عبر مواقفهم من الاستقلال والتعددية واحترام الأديان والعقائد الأخرى".** **- الصوفية تعتبر: أوضح خيار للمسلمين للمصالحة بين "العالم اليهودي - المسيحي" و"العالم الإسلامي".**

2. السفارات الأمريكية تسابق الزمن في تنزيل استراتيجية استغلال الصوفية:

ليس صدفة أن ينهمك الدبلوماسيون الأمريكيون في الدول الإسلامية بإبداء رعاية خاصة للطرق الصوفية، فالمعلومات التي تتناقلها الوسائط الإعلامية المختلفة تشير إلى شروع الدبلوماسية الأمريكية، من خلال السفارات الأمريكية المنتشرة عبر دول العالم الإسلامي؛ في فتح قنوات تواصل وتنسيق مع الفرق الصوفية المنتشرة في هذه الدول في إطار تنزيل استراتيجية أمريكا في استخدام التصوف في محاربة "المد السلفي" في العالم الإسلامي.

وتتسابق السفارات الأمريكية ودبلوماسيّوها في العواصم الإسلامية على خلق علاقات قوية مع مشايخ الطرق الصوفية (الذين يدين لهم جميع مريديهم بالولاء والطاعة الكاملة) عبر الزيارات واللقاءات التي تتم معهم في دورهم ومشيخاتهم، وذلك كأسلوب عملي مؤثر للنفاذ إلى قلب الطريقة الصوفية ومحبّيها، ومن ثم البناء على تلك العلاقة لخلق أرضية للعمل المشترك مع الصوفية. وسنعرض نماذج من دبلوماسية التقرب من الصوفية في الفقرات الآتية.

ثانياً: المجهودات العالمية لبعث التصوف:

الغريب أن جميع المجهودات الدولية التي تستهدف إعادة بعث التراث الصوفي وإعادة ترميم وصيانة الأضرحة والمقامات الصوفية؛ تأتي في إطار الاستراتيجية الأمريكية في نشر المنهج الصوفي وتسويقه كبديل مقبول لتطبيق الإسلام في العالم لإحلال الإسلام القائم على المنهج السلفي.

1. مؤتمرات التصوف ذات الصبغة الدولية:

شهدت السنوات الماضية العديد من المؤتمرات والندوات التي عُقدت بغرض إحياء وبعث التراث الصوفي داخل وخارج العالم الإسلامي، وكان من أبرزها:

• ألمانيا (2001م) - المؤتمر 28 للمستشرقين الألمان، بحوث بعنوان: (الأخوّة الصوفية كحركات اجتماعية)، و(الحركة النقشبندية في داغستان)، و(التيجانية في غرب إفريقيا)، و(صورة الموالد الشعبية في مصر)[2].

• ألمانيا (2001م) - المؤتمر العالمي الأول لدراسات الشرق الأوسط، بحث بعنوان: (الإسلام الحديث والطريقة النقشبندية المجددية الصوفية)، و(الأولياء الصوفيون وغير الصوفيين)[3].

• مصر (2001م) - مؤتمر "التصوف منهج أصيل للإصلاح"، وقد نظمته "أكاديمية الإمام الرائد لدراسات التصوف وعلوم التراث بالعشيرة المحمدية"[4].

• مصر (2003م) - المؤتمر العالمي للطريقة الشاذلية بمدينة الإسكندرية، وقد انعقدت جلساته في مكتبة الإسكندرية بالتعاون مع (وزارة السياحة المصرية)، و(منظمة اليونسكو)، و(من دولة فرنسا كل من: وزارة الخارجية، ووزارة البحث العلمي، والمركز الوطني الفرنسي للبحوث والدراسات العلمية، والمعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ودار العلوم الإنسانية)[5].

• بلغاريا (2003م) - ندوة حول (أدب التصوف في الإسلام)[6].

• الدانمارك (2004م) - سلسلة محاضرات عن (الحلاج وابن عربي وابن الفارض).

• المغرب (2004م) - المؤتمر العالمي للطرق الصوفية: (لقاءات سيدي شيكر العالمية للمنتسبين إلى التصوف) تحت رعاية جلالة الملك محمد السادس[7].

• مالي (2004م) - المؤتمر العالمي الأول للطرق الصوفية بغرب إفريقيا تحت شعار: (التصوف أصالة وتجدد)[8].

• ليبيا (2005م) - مؤتمر دولي بعنوان: (الطرق الصوفية في إفريقيا.. حاضرها ومستقبلها) تحت شعار (معاً من أجل تفعيل دور الطرق والزوايا الصوفية في إفريقيا)[9].

• الأردن (2005) - مؤتمر: (حقيقة الإسلام ودوره في المجتمع المعاصر) برعاية الملك عبد الله الثاني.

• الأردن (2007م) - مؤتمر: (النزعة الصوفية في الأدب العربي) - عُقد ضمن فعاليات "إربد مدينة للثقافة الأردنية لعام 2007"[10].

2. جهود منظمة اليونسكو والولايات المتحدة لإعلاء الشِّعر الصوفي:

خصصت منظمة اليونسكو العام 2007 عاماً دولياً للاحتفال بالمئوية الثامنة للشاعر الصوفي "جلال الدين الرومي" (1207 - 1273م.. بآسيا الوسطى)، حيث دشَّنت اليونسكو هذه المناسبة بإقامة ندوة دامت يوماً كاملاً في مقرها بباريس، إلى جانب إقامة معرض للكتب والمخطوطات واللوحات التي تتناول حياة جلال الدين الرومي وأعماله[11].

وفي المقابل، تشهد الولايات المتحدة ترجمات غير مسبوقة للشعر الصوفي لجلال الدين الرومي، حيث تتربع مبيعات كتبه الشعرية المترجمة على رأس مبيعات الكتب في الولايات المتحدة. كما نظم مركز الدراسات الفارسية في جامعة ميريلاند الأمريكية مؤتمراً لاستكشاف شعر الرومي إضافة إلى صلته المستمرة بالعالم قديمه وحديثه.

وهناك سيل متواصل للترجمات الجديدة لمؤلفات جلال الدين الرومي الضخمة، بينما تجرى الدراسات العلمية عن حياته وأعماله بصورة مستمرة، كما تم تحويل قصائده إلى موسيقى تم عزفها على المسارح ووضعها على أقراص مدمجة ونشرها على شبكة الإنترنت في الولايات المتحدة وحول العالم.

3. ترميم الأضرحة الصوفية بواسطة "صندوق السفراء الأمريكيين":

في بيان صحفي أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية (في 8 يونيو 2009)[12] جاء فيه أن: ("صندوق السفراء الأمريكيين" لصيانة الثقافة سيقدم منحاً لمشاريع مهمة هذه السنة لترميم عدد من المعالم التاريخية والثقافية، بينها مساجد قديمة وأضرحة ومقامات لشخصيات من الفترة الصوفية المبكرة).

وقد أشار التقرير إلى ترميم "ضريح حافظ محمد حياة" الذي يعود للقرن الثاني عشر في غوجارات، و"مقام حضرة شاه شمس تبريز" الذي يعود إلى القرن الثالث عشر في مولتان، وهما معلمان متميّزان مهمان من معالم أضرحة أئمة الصوفية المبكرة في باكستان. وقد سبق لصندوق السفراء لصون الثقافة أن دعم مشاريع أخرى في باكستان لترميم أضرحة ومقامات.

يُذكر أن هناك آليات لتمويل أنشطة الشبكات المذكورة - منها مبادرات وصناديق وأوقاف مشهورة.. فهناك ثلاثة صناديق رئيسة تعمل على توفير التمويل الذي يستهدف اختراق المجتمعات الدينية والمدنية في بلاد الشرق الأوسط المسلمة تحت عنوان (نشر الديمقراطية)، وهي صناديق تعمل على تحفيز مجموعات معينة للانخراط في تنفيذ المشروع الأمريكي في المنطقة.

التمويل جاهز لمن ينخرط؟
1. مبادرة الشراكة الشرق أوسطية (MEPI)، وهي عبارة عن برنامج لوزارة الخارجية الأمريكية يهدف إلى (تشجيع الإصلاح في البلدان العربية من خلال تعزيز المجتمع المدني العربي، وتشجيع المشاريع الصغيرة، وتوسيع المشاركة السياسية، وتعزيز حقوق المرأة). 2. صندوق وزارة الخارجية لحقوق الإنسان الديمقراطية (صندوق تنمية الموارد البشرية)، وهو عبارة عن (حساب لأموال تعزيز حقوق الإنسان في الدول ذات الأغلبية المسلمة). 3. الوقف الوطني للديمقراطية في (NED) – برنامج "ديمقراطية المسلمين". 4. صندوق السفراء الأمريكيين (وزارة الخارجية الأمريكية).
ومعلوم أن هذه المشاريع تحت تصرف صانع القرار الأمريكي وسياسته المتّبعة في دعم المجموعات المختارة داخل كل دولة، وهي المجموعات المستعدة للانخراط في المشروع الأمريكي تحت لافتته العريضة (نشر الديمقراطية)؛ حيث يبيّن تقرير الكونغرس الأمريكي المعنون بـ (سياسة الولايات المتحدة لتعزيز الديمقراطية في الشرق الأوسط: معضلة الإسلاميين)؛ أن الكونغرس يخصص أيضاً أموالاً لبرامج الديمقراطية الإقليمية ولمشاريع المساعدات الخارجية، و"قد يحدد استخدام هذه الأموال لمشاريع معينة، أو توجيهها لمجموعات معينة"(*).

4. جهود بعث التصوف في باكستان:

لتحسين صورتها بين المسلمين في باكستان، تهتم الولايات المتحدة بالصوفية لقطع الطريق على "الإرهابيين والمتشددين من جهة أخرى" – حسب زعمها؛ ولذا خططت لإقامة مؤتمر دولي للصوفية في مواجهة "أفكار التشدد" في العالم الإسلامي (فبراير 2010م)،بجانب قيام السفيرة الأمريكية بباكستان في 21 أبريل 2010م بالتوقيع على معاهدة بينها وبين اتحاد الصوفية في باكستان، قدمت لرئيسه مليوناً ونصف المليون دولار، لتزيين "الأماكن المقدسة" للصوفية في باكستان، وترميم المزارات التاريخية وصيانتها، إلى جانب بناء قُبب جديدة على المزارات المختلفة[13].

وقد بدأت الحكومة الباكستانية منذ عهد الرئيس "برويز مشرّف" بالاهتمام بالصوفية كقوة كامنة في مواجهة الخصوم - خاصة الإسلاميين، فقد كان "مشرّف" أول من اهتم بهم، ونظّم مؤتمراً للصوفية في باكستان شارك فيه ما لا يقل عن ألفي شخص يمثلون 200 فرقة وجماعة من مختلف المشارب والأطياف الروحية الموجودة في باكستان. وانطلقت الحكومة الباكستانية في تنظيم الصوفية بهيئة عليا للصوفية من جهة ومجلس أعلى لمشايخ الصوفية أيضاً، ومهمتهما تنظيم الصوفية الباكستانيين، وتقديم الدعم المادي لهم، وتسهيل أعمالهم، وفتح مزيد من المراكز الدينية لجعلهم يمارسون نشاطهم دون عقبات.

وكان أول أعمال المجلس العالمي للصوفية إصداره فتوى تحرّم "العمليات الانتحارية" في باكستان، واعتبارها غير جائزة، كما أصدر فتاوى أخرى اعتبر فيها طالبان خارجة عن الدين وجماعة باغية يجب التعامل معها بما ينص عليه الدين الإسلامي!

كما يجري في باكستان ترويج الموسيقا الصوفية، خاصة فرقة القوالي الباكستانية (فريد أياز قوال وإخوانه) التي تغني القصائد الصوفية باللغة العربية والفارسية والهندية والأوردية والبنغالية، بمصاحبة موسيقى "القوالي" الصوفية الباكستانية والإيرانية[14].

5. حركة التأصيل الشرعي للتصوف التي تنتظم العالم اليوم:

أما حركة التأصيل الشرعي للفكر الصوفي من حيث المعتقدات والممارسة والتطبيق، فيمكن تلخيصها في عدة نقاط، أبرزها ما يلي:

- الإفتاء بجواز تعدّد الطرق والاختلاف والتفرق.
- محاربة التوحيد الحق واعتبار الدعوة له بدعة وخروجاً عن الملة.
- نشر العقيدة الأشعرية واعتبار عقيدة السلف تجسيماً.
- إجازة جميع أبواب الشرك التي حرّمتها الشريعة.
- الافتاء بجواز التعبّد بالأذكار والأوراد التي يؤلفها المشايخ.
- إباحة البدع وإيجاد المسوغ الشرعي لها.
- إباحة الاحتفال بالموالد والحضرات (الذكر على أنغام الموسيقى وآلات الطرب).

ثالثاً: إطلاق موجات حرق وهدم للأضرحة الصوفية للإيقاع بالسلفيين:

لقد هدف هذا المخطط البغيض إلى إحداث فتن ومواجهات دموية بين الصوفية والسلفيين عبر استهداف هدم أضرحة بعض مشايخ الطرق الصوفية في عديد من الدول الإسلامية.

• ففي السودان جرت عدة محاولات لتخريب وحرق بعض الأضرحة، منها: تخريب ضريحي الشيخ إدريس ود الأرباب والشيخ المقابلي (بالعيلفون)، والاعتداء على ضريح الشيخ حسوبة (بسوبا شرق - الخرطوم)، وتخريب ضريح الشيخ حمد ود أم مريوم (ببحري)، وتخريب مقابر العيدج والبنداري (ببحري)، والاعتداء على ضريح الأمين البطحاني (بشرق النيل)، والاعتداء على ضريح الفكي هاشم (بشمال بحري)، وضريح الشيخ بابكر محمد سعيد (بالكريعات شرق تمبول)، وضريح الشيخ السنوسي (بنيالا - دارفور). وقد تمت معظم هذه المحاولات بين 2011 و2012.

• وفي مصر - بعد الثورة - تم الاعتداء على ضريح الشيخ عز الدين (بالمنوفية)، وأضرحة للشاذلية وبعض الطرق الصوفية الأخرى.

• وفي تونس - بعد الثورة - دُمّر ضريح الشيخ بوسعيد الباجي، وتعرض مقام الشيخ أحمد الورفلي للتخريب (باكودة)، إضافة إلى أضرحة أخرى.

• وفي ليبيا - بعد الثورة - تم الاعتداء على عدد من الأضرحة، منها: ضريح الشيخ أحمد الزروق (بمصراتة)، والشيخ الشعاب الدهماني (بالقرب من طرابلس)، والشيخ عبد السلام الأسمر (بزليتين – أغسطس 2012).

• وفي الصومال جرت محاولة هدم ضريح الشيخ محيي الدين العلي، والشيخ أحمد الحاج (مارس 2010).

• وفي مالي دُمّرت بعض مقامات وأضرحة مدينة تمبكتو (يوليو 2012).

ويبدو أن هناك جهة واحدة أو عدة جهات مشتركة لها هدف مركزي واحد، هو الإيقاع والمصادمة بين السلفيين والطرق الصوفية على امتداد العالم الإسلامي، ومن ثم تأزيم العلاقة بين الطرفين، وربما الانتقال بعد ذلك إلى مرحلة المواجهات وتصفية الحسابات.

والغريب حقاً أن الأحداث التي تكررت في السودان – على وجه الخصوص - لم تستطع الجهات الأمنية القبض على أي جناة أو توجيه أي اتهام رسمي لأي جهة إسلامية بعينها، وظلت القضايا مسجلة ضد مجهول!

رابعاً: مجهودات الدول العربية في بعث التصوف:

1) صور من إحياء الصوفية في دولة المغرب:

تعمل السياسة الدينية التي انتهجتها الدولة المغربية على إحياء وتنشيط التراث والثقافة الصوفية ممثلة في المواسم الدينية، والمهرجانات واللقاءات العالمية للمنتسبين للتصوف، وإحياء وتشجيع الزوايا والطرق الصوفية، وتقديم كافة أشكال الدعم لها، خاصة الطرق: «التيجانية» و«البودشيشية» و«الكتانية». ولقد استطاعت «الطريقة القادرية البودشيشية» أن تنال سلطة معنوية يحسب لها ألف حساب، وأن تكون لها علاقات وطيدة مع هيئات دبلوماسية لبلدان عظمى، مثل الولايات المتحدة الأمريكية، وأن تستقطب أتباعاً بالملايين داخل المغرب وخارجه[15].

كما تعكس المهرجانات الصوفية في المغرب محاولات الحكومة المغربية توظيف التصوف في لعبة التوازنات السياسية، بتعزيز الصوفية في البلد كحل لمواجهة صعود "الحركات الأصولية غير المعتدلة والمتطرفة"، سيراً على درب الموجّهات الأمريكية[16].. ومن هذه المهرجانات:

- مهرجان بمدينة مراكش باسم الدورة الدولية الأولى للقاءات والموسيقى الصوفية، تحت شعار: "سماع مراكش"، أقامته جمعية (منية مراكش لصيانة وإحياء تراث المملكة المغربية).

- ومهرجان بمدينة فاس حول الثقافة الصوفية، تحت شعار: "مهرجان فاس للثقافة الصوفية: التصوف والتنمية الإنسانية"، أقامه (مجمع المسالك والتصورات).

وقد أفادت الشاعرة والكاتبة "ثريا إقبال"، مؤسِّسة جمعية (منية مراكش)، بأن اختيار أماكن أنشطة المهرجان مدروس جداً، حيث اختيرت الزوايا والقصور والأضرحة والحدائق بعناية فائقة.

وأضافت مؤسِّسة الجمعية أن الهدف من المهرجان هو تسليط الضوء وإعادة الاعتبار إلى الغنى الروحي والثقافي للمغرب، معتبرة أن: (الصوفية حقيقة أساسية في الدين والتي يصعب تناسيها

والتي يجب إعادة اكتشافها وتذوّقها والسهر على المحافظة عليها لإيصال رسالة العرفان والحب التي تحتويها إلى العالم الذي بات يفتقد أكثر ما يفتقد إلى القيم الروحية والدينية).

وتشمل مواضيع "مجالس التصوف" التي نوقشت في فعاليات المهرجان:

- "المحبة الخالصة: نموذج السيدة رابعة العدوية".
- "خزائن الجود: نموذج أبو العباس السبتي".
- "خمرة المحبة في ترجمان الأشواق للشيخ محي الدين بن عربي".
- وتركز الندوات على موضوع "التصوف شجرة المعرفة والمحبة".

2) صور من بعث الصوفية في دولة الأردن:

كما في غيرها من الدول العربية، يجري الترويج للتراث الصوفي في الأردن عبر آليات عديدة تحاول التأطير الفكري للتصوف كبديل يمكن تسويقه لممارسة الإسلام في الأردن، كما حاول تصويره الدكتور عبدالله الناصر حلمي في مقالة بعنوان: "إسلام الصوفية هو الحل لا إسلام الخوارج (التصوف جهاد ضد هوى النفس وضد الطغيان والجبروت)"، حيث سوّق للأردنيين ضرورة العمل بالتصوف قائلاً: "فلنتجه إلى رسالة التصوف نستمد منها القوة الخلقية، والعزة الإيمانية، والفضائل الروحية، فنتخذها درعاً وحصناً يقي أمتنا ويحميها، ومعراجاً تصعد عليه إلى أهدافها وأمانيها. يجب أن يشع الروح الصوفي، الطاهر المؤمن القوي، في حياتنا ووجودنا، وأن نجعله مادة في معاهدنا ومدارسنا، ونوراً في صحفنا وكتبنا وإذاعاتنا، وحياة ملهمة في كل مرفق من مرافق نهضتنا. حينئذ نظفر برضوان الله، وبسيادة الحياة، وتمتلئ أيدينا بعزة الصوفيين، وبأس المؤمنين..)[17].

وفي ذات الخط كان مؤتمر (النزعة الصوفية في الأدب العربي) بمدينة إربد قد سار مروّجاً للتصوف وأدبياته الشعرية، حيث تناولت أوراقه عناوين عديدة، من بينها: (التصوف بين الدين والفلسفة: محاولة في تحديد المفهوم)، (التأمل الصوفي في الخلق والفيزياء الحديثة)، (بين التجربتين: الجمالية والصوفية)، (قراءة في ديوان ابن عربي - ترجمان الأشواق)، (فلسفة العلامة وتأويلها بين بيرس وابن عربي)، (الجسم في تأويلات ابن عربي – سر مبهم وكشف أعجمي لنشأة

ليليه)، (الصوفية في شعر صلاح عبد الصبور)، (النزعة الصوفية عند محمد أبو دومة)، (النزعة الصوفية في الشعر العربي القديم نقداً)، (الوجه الأدبي عند النفري قدمها الدكتور نصر الدين بيبرس)، (النزعة الصوفية في شعر محمد الفيتوري)، (النزعة الصوفية في الأدب العربي الحديث – عمر اليافي نموذجاً)، و(تمثلات صوفية في شعر أدونيس)[18].

خامساً: الدبلوماسية الأمريكية ومشروع التحالف "الصوفي - الأمريكي":

عربياً، تهدف أمريكا إلى دعم الطرق الصوفية عبر إعادة إعمار المزارات والأضرحة، ونشر المؤلفات الصوفية، والمشاركة الدبلوماسية في بعض أنشطة الصوفية، إضافة إلى تمتين العلاقات الحميمية مع طرقها وشيوخها ورموزها، وبالطبع يطول ذلك تبادل الزيارات وحضور الموالد الصوفية وعقد الاتفاقيات والمؤتمرات المشتركة مع الصوفية.

وفي هذا الإطار يمكن استعراض نموذجين للدبلوماسية الأمريكية في تنفيذ برنامجها الميداني للتقارب مع صوفية مصر والسودان:

1) السفارة الأمريكية في دولة مصر .. والتقارب مع الصوفية:

يمكن ذكر النماذج الموجزة التالية حول التقارب الصوفي الأمريكي:

• لقاء السفير الأمريكي بمصر (فرنسيس ريتشارد دوني) الشيخ حسن الشناوي، شيخ مشايخ الطرق الصوفية.

• زيارة السفير الأمريكي الطريقة الجازولية ومشاركته أبناء الطريقة وهم ينشدون المدائح النبوية والأناشيد الدينية[19].

• زيارة السفير الأمريكي مولد "السيد البدوي" بمدينة طنطا للعام الثالث على التوالي، ولقاؤه مشايخ الطرق الصوفية[20].

• زيارة جواند كاردنو القنصل الأمريكي في الإسكندرية ضريح الشيخ مرسي أبي العباس.

• اختيار المجلس الأعلى للطرق الصوفية وفداً صوفياً من ١٥ شيخاً من الطرق الصوفية للمشاركة في مؤتمر "رجل السلام العالمي" بالولايات المتحدة الأمريكية، وهو مؤتمر يعقد بهدف توضيح الصورة السمحة للإسلام[21].

• قيام 16 شيخاً من شيوخ الطرق الصوفية، على رأسهم الشيخ علاء أبو العزايم (شيخ الطريقة العزمية)؛ بعقد اجتماع مع سكرتير السفارة الأمريكية ممثلاً للإدارة الأمريكية في مقر الطريقة العزمية بمنطقة "السيدة زينب"، بحضور ممثل لجهاز مباحث أمن الدولة[22].. وخلص اللقاء إلى أن تستضيف الإدارة الأمريكية مشايخ الصوفية على نفقتها الخاصة لتنظيم عديد من الفعاليات والأنشطة، والقيام بزيارات إلى الولايات المتحدة لنشر الصوفية بين المسلمين الأمريكيين.

ومن جهة ربط التصوف المصري بالتصوف العالمي، تمَّ تأسيس فرع للمجلس الصوفي العالمي المسجل في بريطانيا، ليكون أول منظمة مصرية عالمية (تحت اسم "المجلس الصوفي العالمي") لنشر الفكر الصوفي، وهو برئاسة شيخ الطريقة الشهاوية البرهامية (محمد الشهاوي)[23]. وقد أنشئ هذا المجلس الصوفي بدعم من الحكومة البريطانية وحزب العمال في مواجهة المجلس الإسلامي البريطاني[24].

2) السفارة الأمريكية في دولة السودان.. والتقارب مع الصوفية:

من خلال القائم بالأعمال الأمريكي في السودان (جوزيف ستافورد)، تنهمك الدبلوماسية الأمريكية في مهمة استقطاب الطرق الصوفية السودانية بمشاربها المختلفة للانخرط في المشروع الأمريكي. وكان من الطبيعي استخدام الدبلوماسية الشعبية والزيارات الودية وتبادل الهدايا ومشاركة الصوفية في حلقات ذكرهم ضمن الوسائل الأساسية في بناء شبكة العلاقات الأمريكية مع صوفية السودان.

وقد اختار القائم بالأعمال الأمريكية - ابتداء - المجموعات الصوفية المنتمية إلى "الطريقة القادرية الجيلانية" (نسبة لمؤسسها الأول عبد القادر الجيلاني)، ذات الانتشار الأوسع في السودان مقارنة بالطرق الصوفية السودانية الأخرى. فقد كان من بين رئاسات الطرق القادرية التي زارها الدبلوماسي الأمريكي ما يلي:

• الطريقة البدرية بمنطقة "أم ضوا بان" (ولاية الخرطوم).

• الطريقة العركية بمنطقة "أبو حراز" (ولاية الجزيرة).

• الطريقة الكباشية بمنطقة الكباشي (ولاية الخرطوم).

• مشيخة الصايم ديمة بمنطقة أم درمان (ولاية الخرطوم).

• مقام/ ضريح حمد النيل، التابع للطريقة العركية بمنطقة أم درمان (ولاية الخرطوم).

ومن قبل كان الدبلوماسي الأمريكي قد زار الطريقة البرهانية بالخرطوم أيضاً.

وفي كل المناطق التي زارها "القطب" الدبلوماسي الأمريكي بالسودان، كانت البداية مبشِّرة لمشروعه؛ فقد وجد الترحيب الحار من زعماء الطرق الصوفية التي زارها، ونحرت الذباح على شرفه، وأُلبس الحلل الصوفية الخضراء، وزُيّن بالمسبحة الصوفية، ولم ينسَ مضيفه إشراكه في حلقات ذكرهم في بعض المناطق التي زارها.

ويشهد التصوف في السودان حركة بعث وتجديد وعرض في ثوب جديد؛ فقد أنشئ مجلس أعلى للتصوف، وكُوّنت عديد من روابط الطلاب المتصوفة في الجامعات، وأنشئ مجلس أعلى للذكر والذاكرين بقانون صادر من المجلس التشريعي السوداني، وأطلقت قناة تلفزيونية وإذاعة لنشر المنهج الصوفي، وأنشئ تجمع لعلماء التصوف، وانتشرت عدة فرق موسيقية للإنشاد الصوفي تتغنى بأشعار مشايخ الصوفية.

سادساً: تحديات تطبيق المشروع الأمريكي لاستغلال التصوف:

في بحث تحت عنوان: (الصوفية.. بين الهوية والاعتدال والإنسانية)، طرح الباحث الأمريكي "أبو بكر كروليا"[25] سؤالاً منطقياً حول استعداد الصوفية وقابليتها للانخراط في المشروع الأمريكي، عندما تساءل: "هل تقوم المجتمعات الصوفية في الغرب والأماكن الأخرى بإعداد نفسها أيديولوجياً لبناء وجهة نظر عالمية والانخراط بصدق مع الغرب لوضع إطار أخلاقي ومعنوي لإقامة العدل والمساواة..؟".. إلا أن الباحث اكتفى بعرض السؤال وأعرض عن الغوص في أعماق الإجابة، تاركاً ذلك للصوفية أنفسهم؟

وانتقل الباحث إلى القضية الأهم في الجانب الآخر، ليتناول طبيعة الشريك الأمريكي وفرص نجاح مثل هذه الشراكات مع المتصوفة، فيقول مبيّناً عن حكومة الولايات المتحدة: "يجب أن تكون واعية لحقيقة أنها شريك في العالم، وأنه لا يمكن حتى للصوفية التفاوض أو الحوار مع شريك تقتصر مصلحته على "بناء عالم من المصلحة الذاتية" على أساس الهيمنة والسلطة"!

ثم بيَّن الباحث أن الاستراتيجية الأمريكية - الصوفية صائرة إلى فشل حتمي على المدى الطويل بسبب طبيعة الشريك الأمريكي، حيث يقول: "سياسة الحكومة الأمريكية لإدماج "الصوفية المعتدلة" و"المسلمين التقليديين" أو "الحكومات الصديقة"؛ ستحقق بعض النجاح، لكن نهجها الأصيل في سياستها "السياسية" و"الاجتماعية" ليس له استدامة على المدى الطويل لإقناع المسلمين، وذلك بسبب فرط استخدام القوة الأمريكية التي تضر أكثر مما تسعى إلى تحقيقه من أهداف ثقافية متعددة وأهداف تعددية للسلام والعدالة".

إذن؛ فالمصالح الذاتية هي المحرك للمشروع الأمريكي طبقاً لما يراه الباحث، وليس الحرص على إشاعة العدل والسلام كما هو الادِّعاء؟.. فما سيحدّد فرص نجاح "المشروع الأمريكي - الصوفي" هو مدى استعداد الشريك الأمريكي للتنازل عن مبدأ استغلال الآخر وترك الهيمنة والتسلط في مقابل التعامل مع شريكه بمبدأ الندية وعدم الازدواجية والالتفاف.

وانطلاقاً من ذات السياق، تبرز جملة من التحديات لسياسة تمكين الصوفية من قيادة العالم الإسلامي، يتلخص أبرزها في التالي:

التحدي الأول: يتمثل في التشكيك بإمكانية نجاح عملية بناء الشبكات (الصوفية - الليبرالية) بالطريقة التي ترغب فيها الولايات المتحدة، وبالأهداف المرجوة من صياغة شعوب مسلمة لا تبالي بدينها، وتترك الساحة لأعدائها، وتقصر تديّنها على الروحانيات والتبرك بالمقامات وتركن إلى العقائد والأذكار الباطلة.

التحدي الثاني: وينطوي على التشكيك بامتلاك الصوفية مقومات قيادة الشعوب المسلمة، أو امتلاك القدرات الخارقة لمغالبة القيادة الإسلامية الحالية التي تقود صحوة دينية قوامها التأصيل الشرعي وتظهر مجهوداتها الفذة في طرح الإسلام كمنهج حياة، ولا تكلّ عن العمل على إعادة تجميع الأمة تحت الكتاب والسنة المطهرة في حدود الممكن.

ويأتي في صلب هذا التحدي التساؤل عن مدى إمكانية دمج جميع الطرق الصوفية في المشروع الأمريكي - تحديداً الطرق الموجودة في البلدان العربية، خاصة في ظل التقاطعات والعلاقات التي تحكم وجود الصوفية في بلدانها.

التحدي الثالث: وينطوي على التشكيك بمدى مصداقية الولايات المتحدة في اتخاذ الصوفية كشريك إسلامي استراتيجي لتمثيل الأمة الإسلامية، وبمدى صبرها على السير في طريق طويل (يستهدف إعادة صياغة كامل الأمة الإسلامية على الطريقة الأمريكية) في مقابل تحقيق نجاح مشكوك فيه أصلاً.

يضاف إلى ذلك التشكيك في مدى تحمّل الميزانية الأمريكية "المرهقة" عمليات الصرف إلى ما لا نهاية على استراتيجية يرتهن تطبيقها "بالوكالة" على أطراف لم تخبرها الإدارة الأمريكية جيداً – سوى التعويل عليها من خلال فرضيات وتوقعات المراكز البحثية الأمريكية.

الدور المنتظر من الجماعات السلفية:

لقد انتهت مرحلة رسم الاستراتيجيات من قِبل الأمريكان والغرب عموماً، وانطلق العمل في بناء شبكة علاقات عمل ومصالح متبادلة بين الطرف الأمريكي وبعض الطرق والكيانات الصوفية داخل حدود كل بلد، وشبكات شبهية عابرة للحدود، وأخرى على مستوى العالم، (مثل المجلس الصوفي العالمي ببريطانيا تحت زعامة الطريقة الشهاوية البرهامية، والمجلس الإسلامي الأعلى في أمريكا تحت زعامة الطريقة النقشبندية).

وإزاء ذلك، هناك دور متعاظم ينتظر "السلفيين"، ويتمثل في كشف استراتيجيات وخطط خصومهم من جانب، والعمل على تضافر الجهود والإمكانات لمواجهة الخطط والسياسات العملية التي أفرزتها هذه الاستراتيجيات من جانب آخر. وهذا الدور له صلة وثيقة بتفعيل الحوار والتواصل داخل البيت السلفي – ما بين العلماء، والخبراء، والقادة، والدعاة، والباحثين، وأصحاب الثروة، والهيئات الرسمية والمدنية، وكلّ قادر على العطاء من أهل الإسلام.

وإذا لم يتيسَّر للسلفيين إطلاق برامج التبصير والمواجهة من خلال الأوعية الرسمية، فيتعيَّن على مؤسسات المجتمع المدني الإسلامية أن تقوم بالمهمة. ويمكن التوجيه في هذا الخصوص بالتدابير الابتدائية التالية:

• بناء شبكة سلفية دولية لمواجهة هذه الاستراتيجية تعمل على الاتصال والحوار مع الأطراف التي تسعى أمريكا لاستخدامها في إنزال الخطط الاستراتيجية، وذلك من أجل تحييدها وتبصيرها بسوء العاقبة من الانخراط في ذلك العمل المعادي للإسلام والمسلمين.

• عقد منتديات عالمية (ورش دولية) يحضرها السلفيون الذين تستهدفهم الاستراتيجية الأمريكية؛ لمناقشة آخر التطورات على المستوى التطبيقي للاستراتيجية في المنطقة الإسلامية، وتقديم أوراق علمية تعالج قضية إفشال المشروع الأمريكي. ولا غنى عن تكليف مجموعة مختارة عبر المؤتمر بمهمة قيادة هذا العمل المشترك وتطوير آليات عمل مناسبة لذلك؛ (جمع قاعدة معلومات واسعة من خلال البحث والاستقصاء والرصد والمتابعة والتحليل).

ولعل أكبر تحديات الاستراتيجية المضادة للمشروع الأمريكي، يكمن في مدى نجاح المجموعات السلفية بإبعاد الصوفية وتحييدها عن المشاركة في الاستراتيجية الأمريكية، وذلك من خلال التواصل واللقاءات والحوار بين السلفيين والصوفية.

وهنا لا بد من التأكيد على أن الصوفية ككيان إسلامي معنيّون – قبل غيرهم - بمواجهة هذا المشرع الأمريكي الذي يسعى لاختراقهم والعمل من خلال مؤسساتهم على ضرب الإسلام من الداخل، وأخذهم في مجاهيل صراعات مع السلفيين "مجهولة الهوية" و"غير محسوبة" النتائج.

وقبل كل شيء لا بد من التوكل والاستعانة بالله تعالى كما هو شأن المسلم دوماً. فالله تعالى يعلم بخطط القوم واستراتيجياتهم، وقد فضح أعمالهم في كتابه العزيز؛ قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ 36 لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ 37} [الأنفال: 36-37].

: مجلة البيان العدد 313 رمضان 1434هـ، يوليو – أغسطس 2013م.

[1] «روبن رايت»، باحث بمعهد السلام الأمريكي – كلامه حول السلفيين مترجم من مجلة «نيويورك تايمز»، 20-8-2012:

http://www.nytimes.com/2012/08/20/opinion/dont-fear-all-islamists-fear-)
.(salafis.html?_r=0

[2] أقيم المؤتمر في مدينة هامبرج، انظر جريدة الشرق الأوسط الأربعاء 4 محرم 1422 هـ، 28 مارس 2001، العدد 8156.

[3] أقيم هذا المؤتمر بجامعة يوهانسن جوتنبرج (مدينة مايتز)، كما أن المبادرة إلى عقده جاءت من رابطة دراسات الشرق الأوسط في أمريكا الشمالية، وقد حضره ألفا باحث وعالم ومفكر، كما شارك في المؤتمر قرابة الألف من السياسيين الرسميين وغير الرسميين.. الأهرام (25 محرم 1423 هـ) الموافق (8 أبريل 2002م) العدد (42126).

[4] أقيم برئاسة الدكتور أحمد الطيب شيخ الأزهر، في قاعة المؤتمرات الكبرى بالأزهر- القاهرة.

[5] انظر مجلة البحوث والدراسات الصوفية العدد الأول صفحة (595).

[6] انظر جريدة الشرق الأوسط (12 يوليو 2003) العدد (8992). قدم الأوراق بالمركز الثقافي الأوروبي (بلغاريا) ألكسندر فسلينوف، والبروفيسور تسفيتان تيوفانوف، (أشهرا إسلامهما في أوقات سابقة)، وهما من قسم الاستشراق بجامعة صوفيا.

[7] وكالة الأنباء المغربية في (2004/9/10م). وقد عقد المؤتمر بمشاركة أمريكية وبزعامة هشام قباني الذي يعتبر المنسق بين الإدارة الأمريكية وبين الطريقة النقشبندية.

[8] مدينة باماكو، انظر موقع:

http://www.alelam.net/policy/details.php?id=1760&country=1&type=N

[9] انظر موقع:

http: //www. libsc. org/LSC/elan1

[10] انظر تفاصيل المؤتمر المذكور في موقع «دروب»:

(http://www.doroob.com/?p=23756).

[11] انظر موقع الخبر موقع السفراء في وزارة الخارجية الأمريكية (23 أكتوبر 2007):

http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2009/06/20090610161555bsibhew0.4015619.html#axzz19bVFfvL2WO

[12] انظر موقع الخبر موقع السفراء في وزارة الخارجية الأمريكية (23 أكتوبر 2007):

http://iipdigital.usembassy.gov/st/arabic/texttrans/2009/06/20090610161555bsibhew0.4015619.html#axzz19bVFfvL2W(

[13](*) انظر التقرير المشار إليه.

“U.S .Democracy Promotion Policy in the Middle East :The Islamist Dilemma ”

في الموقع الإلكتروني لمكتبة إدارة البحرية الأمريكية (مؤرخ في 6 يونيو 2006):

)) http://www.history.navy.mil/library/online/democ%20in%20middle%20east.htm#combating

هناك تقرير موسع حول الموضوع في مجلة «المجتمع» الكويتية: (الصوفية.. أداة السلطة في مواجهة خصومها)، عدد 13 أكتوبر 2012م.

[14] للمزيد يراجع موقع مجلة «شتاء وصيف» الإلكترونية المغربية المتخصصة في الموسيقى والغناء:

(موسيقى-القوالي-الصوفية-الكلاسيكية-ال /96921 (http://djodaba.maktoobblog.com/.

[15] انظر مجلة «المجتمع» الكويتية: (الصوفية.. أداة السلطة في مواجهة خصومها)، عدد 13 أكتوبر 2012م.

[16] للمزيد يراجع موقع مجلة «شتاء وصيف» الإلكترونية المغربية المتخصصة في الموسيقى والغناء:

(http://djodaba.maktoobblog.comمراكش-تتصوف-بعد-فاس/319795/).

[17] انظر موقع «صوت الأردن»:

http://www.sawtordon.com/index.php

[18] عقد هذا المؤتمر ضمن فعاليات «إربد مدينة للثقافة الأردنية لعام 2007»، في يومي 5-6 ديسمبر 2007، بمشاركة عدد كبير من الأدباء والمثقفين والأكاديميين من الجامعات الأردنية الرسمية والخاصة والجامعات السورية والفلسطينية والعراق، ومن جامعة السوربون الفرنسية (انظر موقع «دروب»:

(http://www.doroob.com/?p=23756).

[19] انظر: مجلة التصوف الإسلامي، العدد 323، ذو القعدة 1426.

[20] انظر: صحيفة اللواء الأردنية - نوفمبر عام 2007.

[21] المصدر: صحيفة «الدستور» بتاريخ 3 أغسطس 2010.

[22] المصدر:

(http://asha3ira.blogspot.com/p/blog-page_3764.html).

[23] انظر: القبس الكويتية، عدد 27 فبراير 2012.

[24] راجع موسوعة ويكيبيديا:

(http://en.wikipedia.org/wiki/Sufi_Muslim_Council).

[25] انظر أبو بكر كروليا

"Sufism – Between Hegemony, Moderation and Humanness": (http://www.academia.edu/1354990/_Sufism_-_Between_Hegemony_Moderation_and_Humanness)

. مركز الأبحاث والدراسات2013/07/08

ملحق 2: أزمة التصوف الطرائقي في المغرب

ملخّص:

يهتم المقال بتحليل أسباب عجز الحركة الصوفيّة في مسار الهيكلة الدينيّة للمجتمعات العربيّة، في اتجاه يقيها من الوقوع فريسة التطرّف الديني في دول ما بعد الثورة العربيّة المعاصرة.

احتل موضوع التصوف خلال السنوات الأخيرة مكانة مهمة في المجال التداولي المغربي، كما أصبح (التصوف السني) من مسلمات الخطاب الديني الرسمي، وعماد السياسة الدينية، وأحد الركائز الأساسية في تعريف الهوية والخصوصية الدينية المغربية، إلى جانب المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، وتمّ اعتماده كمحدد مركزي لإعادة هيكلة الحقل الديني، خاصة بعد تولي أحمد التوفيق وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.[1] وقد انعكس هذا التوجه الرسمي بشكل كبير على عمل وممارسة الطرائق الصوفية، وعلى حضور التصوف الطرائقي في المشهد العمومي والإعلامي المغربي، عبر توسيع مساحات نشاط واشتغال التصوف، ليشمل الثقافة والفن والموسيقى والبحث الأكاديمي والمجال الدبلوماسي (الدبلوماسية الروحية)، كما تمّ اعتباره من قبل كثير من الحداثيين مدخلاً معقولاً للقبول بالممارسة الدينية، لما يتميز به التراث الصوفي من تنوع وانفتاح وتسامح مع الآخر، دون التقيد بالأطروحات الأصولية، ولما يتميز به المتصوفة من وجهة نظرهم بانكفائهم على ذواتهم وانعزالهم عن المشاركة في التنافس السياسي[2].

وقد ساهمت استراتيجية الحرب على الإرهاب على المستوى الدولي، حسب العديد من الملاحظين، خاصة بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر 2001 بالولايات المتحدة الأمريكية، في تنامي التوجهات الرامية إلى تقوية دور التصوف الطرائقي لمواجهة الحركات السلفية المتشددة، كما أدّت هجمات 16 ماي 2003 الإرهابيّة بالدار البيضاء، على المستوى الداخلي، إلى هذا الصعود اللافت للتصوف الطرائقي بعد وضع خطة إعادة هيكلة الحقل الديني، التي اتخذت من التصوف السني أحد معالمها الأساسية في ضمان الأمن الروحي للمملكة، وعموماً فإنّ الاستخدام المكثف للتصوف من قبل المؤسسات الدينية الرسمية في العالم العربي والإسلامي يعود بدرجة أولى حسب العديد من الباحثين الغربيين إلى توصيف الطرائق الصوفية بكونها : الحركات الدينية التقليدية الأكثر تنظيماً واعتدالاً في العالم الإسلامي، والاستجابة للدعوات التي عملت المؤسسات البحثية

الأمريكية على الخصوص على توجيهها لحكوماتها ولحكومات الدول الإسلامية، من أجل اعتماد التصوف الطرائقي كخطاب وممارسة دينية معتدلة ومسالمة، في مواجهة النزعات المتطرفة والعنيفة والتنظيمات الإرهابية التي تهدد السلم والأمن والاستقرار المجتمعي على الصعيدين الوطني والدولي والإقليمي، بل إنّ بعض المؤسسات البحثية الأمريكية اعتبرت في تقاريرها أنّ الطرائق الصوفية هي الوحيدة المؤهلة لتحمل توصيف الوسطية والاعتدال من بين الحركات الدينية في العالم الإسلامي،[3] وقدّمت عدة توصيات للعمل على خلق ودعم هذا النوع الجديد من الحركات الإسلامية المهادنة والمتحالفة مع الدول الغربية، والتي يغلب عليها الطابع الصوفي، وتقبل بالقيم العلمانية، وتعمل على منافسة حركات الإسلام السياسي من خلال توظيف مفهوم الإسلام الصوفي le soufi-islamisme الذي يبتعد تماماً عن صياغة خطاب معادٍ للغرب، كنموذج حركة خدمة التركية التي يتزعمها الداعية الصوفي فتح الله كولن، وقد انعكس هذا بصيغة مباشرة على الدعم الكبير الذي قدمته الولايات المتحدة الأمريكية لعدد من الطرائق الصوفية بالعالم العربي والإسلامي؛ كالطريقة النقشبندية بالشرق الأوسط التي يتزعمها ناظم حقاني وصهره محمد هشام قباني الذي يرتبط بعلاقات وطيدة بجورج بوش الابن والمحافظين الجدد، أو نموذج الطريقة البريلوية بباكستان وشبه الجزيرة الهندية التي راهنت عليها الإدارة الأمريكية لمواجهة حركة طالبان باكستان[4].

إلا أنّ إعصار ثورات الربيع العربي الذي ضرب عدداً من البلدان العربية سنة 2011، لم يشفع بالنجاح والاستمرارية للاستراتيجيات الأمريكية والغربية . مشروع الشرق الأوسط الكبير - التي راهنت كثيراً على الطرائق الصوفية، إلى جانب منظمات حقوق الإنسان، والأحزاب العلمانية خاصة في مصر من أجل تقزيم تأثير الحركات الإسلامية (الإخوانية والسلفية) على التوجهات والقناعات الدينية للأفراد، وتقليص أدوارها الاجتماعية واستقطابها السياسي للفئات الشعبية، بالموازاة مع عملية التدجين المكثفة للقوى السياسية والمدنية التي كانت تندرج ضمن المشروع الأمريكي لنشر الديمقراطية بالشرق الأوسط. حيث استطاعت الأحزاب والحركات الإسلامية ذات التوجهات الإخوانية نسبة (لجماعة الإخوان المسلمين) والحركات السلفية أن تتصدر المشهد العربي بشكل غير مسبوق؛ سواء في تونس مهد الثورات العربية، أو في ليبيا في مرحلة مواجهة نظام القذافي وما بعد سقوط القذافي، أو في مصر حيث تمكن حزب الحرية والعدالة، الجناح السياسي لجماعة الإخوان المسلمين من الفوز بأغلب الاستحقاقات الانتخابية (برلمانية ورئاسية)،

قبل أن تتحالف القوى العلمانية والمؤسسات الدينية التقليدية، والطرائق الصوفية مع المؤسسة العسكرية لإسقاط الرئيس محمد مرسي في 3 يوليو 2013 وإدخال البلاد في دوامة من الفوضى غير المحسوبة العواقب[5].

أمّا في المغرب، فقد استطاع حزب العدالة والتنمية الإسلامي حصد الأغلبية البرلمانية في انتخابات نوفبر 2011، وتولي أمينه العام عبد الإله بن كيران رئاسة الحكومة المغربية، في إطار تحالف رباعي ضمّ كلاً من حزب الحركة الشعبية، وحزب التقدم والاشتراكية، وحزب الاستقلال الذي عوضه حزب التجمع الوطني للأحرار (الليبرالي) بعد الخلافات التي حدثت بين أمينه العام حميد شباط ورئيس الحكومة حول طريقة التدبير وإدخال تعديلات على التركيبة الحكومية[6].

-الصراع داخل المنظومة الصوفية:

تراجُع التصوف الطرائقي في المشهد العمومي المغربي مقارنة مع ما قبل الربيع العربي، لا يمكننا أن نقيسه فقط على الانتصار الذي حققته الحركات الإسلامية في المجال السياسي، بل إن له مظاهر أخرى ترتبط بشكل وثيق بطبيعة تدبير الحقل الصوفي الذي تتحكم فيه وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، التي لم تستطع المضي قدماً في مشاريعها لهيكلة التصوف بعد تعثر مبادرة تأسيس هيئة كونية (عالمية) للتصوف التي تم الإعلان عنها بملتقيات سيدي شيكر سنة 2009[7] حيث اقترح أحمد التوفيق أن يكون مقرها بالمغرب، وأن يمثل (المغرب بها الطرائق الصوفية...) ويعود تعثرها في نظرنا لسببين: أولهما المنافسة الإقليمية حول التصوف خاصة بين المغرب والجزائر ومصر وليبيا، والتي عرفت أوجها في سنة 2011، وثانياً على مستوى البنى المؤسسة للمشهد الطرائقي المغربي (الزوايا) التي تعرف أزمة تدبير حقيقية، حيث برزت على الساحة خلال السنين الأخيرة خلافات عميقة حول تولي المشيخات وشرعية تمثيل الطريقة[8] والصراعات بين الطرائق في حد ذاتها التي لم تقتصر على استقطاب الأتباع فقط، بل تحولت إلى دعاوى قضائية معروضة على المحاكم المغربية، شملت الأمور المالية والصراع حول الهبات والمنح (نموذج الزاوية الشرقاوية) التي أدى تفاقم التناقضات بها إلى الإطاحة بأحد رؤساء المجالس العلمية[9].

هذا إلى جانب بروز الصراع التمثيلي للطرائق الصوفية داخل محاور الانتماء التوصيفي للتصوف من جهة بين التصوف المشرقي والتصوف المغربي، ومن جهة أخرى داخل هذه المكونات

بحد ذاتها في إطار لعبة التحالفات الإقليمية والاستثمار السياسي للمكون الصوفي في إطار السباق نحو الزعامة، وكسب النقاط الاستراتيجية في قضايا السياسة الخارجية والعلاقات الدبلوماسية مع دول الجوار[10] وانعكاسات ذلك السباق على المشهد الصوفي العام، ومردّ هذا الأمر في نظرنا يرجع بنسبة كبيرة، إلى عدم استقلالية الطرائق الصوفية عن السلطة السياسية وتبعيتها لها، ولعدم وجود إطار تنظيمي مستقل يمثل الزوايا والطرائق الصوفية قادر على الفصل في القضايا الخلافية من هذا النوع، ويحول دون استغلال التراث الصوفي من أجل تلبية مطامح كسب النفوذ والحظوة والسعي نحو تحقيق نوازع المشيخة لدى البعض كنموذج نور الهدى الإبراهيمي الذي ادّعى مشيخته للطريقة المشيشية الشاذلية ورئاسته للنقابة العالمية للشرفاء الأدارسة، وأصدر بياناً في دجنبر 2008 من مدينة اسطنبول بتركيا[11] بخصوص عقد المنتدى العالمي للطريقة المشيشية الشاذلية الذي نظمته وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالشراكة مع الرابطة المحمدية للعلماء ونقابة الشرفاء العلميين التي يرأسها عبد السلام بركة، وأقيمت فعالياته بمدينة طنجة في يوليو 2008 تحت شعار (من جبل العلم إلى العالم)، حيث بدا من الواضح أنّ السعي الرسمي نحو تجديد وإحياء الطريقة المشيشية الشاذلية يهدف إلى جعل المغرب مركزاً عالمياً للتصوف وفقاً لتصريح الدكتور أحمد العبادي، الأمين العام للرابطة المحمدية للعلماء، في الندوة الصحفية التي انعقدت بفندق «موفنبيك» بطنجة لتقديم المنتدى العالمي الأول للمشيشية الشاذلية، حيث قال إن انعقاد المنتدى بالمغرب جاء نظراً (لمركزية المملكة المغربية كقوة روحية عظمى من واجبها أن تتقاسم مع العالمين بعضاً مما حباها الله ب[12].

وهذا ما أثار حفيظة الكثيرين، ودفعهم نحو الدخول في عملية التنافس الشديد على المشروعية في تمثيل الطريقة المنتشرة بشكل واسع في العالم الإسلامي وتتفرع عنها عدة طرق صوفية أغلبها يوجد بمصر، حيث ضريح الإمام الشاذلي، وهو ما أدى كذلك على المستوى الداخلي إلى تأسيس اتحاد الزوايا الشاذلية سنة 2010، الذي مثل خطوة نحو تفعيل جبهة معارضة في مواجهة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، رغبة من المؤسسين في إنهاء استئثارها بتدبير حقل التصوف المغربي وتشكيل إطار تنظيمي يهدف للحفاظ على التراث الصوفي للطريقة المشيشية الشاذلية العريقة.

والأمر نفسه ينطبق على الصراع الدائر على ضريح مولاي عبد السلام بن مشيش ونقابات الشرفاء العلميين، وداخل نقابات الشرفاء الأدارسة حول الأحقية في التمثيل الرسمي، وتدبير شؤون الأضرحة والشرفاء، وتولي تسليم وتقسيم المنح والهبات الملكية[13].

-الممارسة الصوفية الطرائقية:

كما أنّ طبيعة الممارسة الصوفية الطرائقية التي ترتكز على المواسم والطابع الاحتفالي والفلكلوري، تُعد إحدى أكبر المظاهر التي يركز عليها خصوم التصوف للطعن في رسالته الإصلاحية والأخلاقية ومصداقية القائمين على شؤونه، خاصة ظاهرة المواسم التي ترتبط بالأضرحة، والتي تبرز خلالها مظاهر الشعوذة والجذب والطقوس المخالفة للشرع في الذبائح، وهي مواسم منتشرة عبر طول المغرب وعرضه، لا تكاد تخلو منها منطقة من مناطق البلاد. بل إنّ بعض الأضرحة تُعد مراكز حقيقة لاعتقال المرضى العقليين والنفسيين، ومرضى العصاب وتعريضهم للتعذيب والحرمان من الأكل، بدعوى إخراج الجن وطرد العفاريت والشياطين من أجساد المصابين.

يقول العياشي الفرفار في مقاله: "إغلاق مزار بويا عمر نهاية الأزمة وغياب الحل ؟" الجزء الثاني: (وفي فناء الضريح وداخل غرفة يتكدس مرضى وممسوسون بالجن من الجنسين ومن كل الأعمار، بعضهم قضى هناك عدة سنوات في انتظار حصوله على «الإذن» من «السيد» (أي من بويا عمر) كي يعود إلى أهله وبالتالي الحصول على البراءة داخل محكمة الجن، لأنّ أغلب الممسوسين يعتبرون قد اعتدوا على الجن بفعل ما وفق التفسير المتداول...إنّ «موالين المقراج» (أصحاب بركة الماء الساخن) هم أحفاد بويا عمر المتخصصون في نقل بركته المعالجة إلى المرضى من خلال بصق الماء الساخن عليهم، أو الاكتفاء بنفث البصاق عليهم، وهو الأمر الذي أدّى بعدد من الحقوقيين إلى إطلاق تسمية غوانتانامو على الضريح، وطالبوا بإغلاقه.

في السنين الأخيرة، أصبح العديد من المنتسبين إلى التصوف من أحفاد الشيوخ والصالحين . الذين ليس لهم أية معرفة بالتصوف - يديرون الزوايا والمواسم وزيارة الأضرحة بنمط الريع الاقتصادي، والتربح الاستغلالي، واستثمار التراث الصوفي والروحي لخدمة الأغراض الشخصية والعائلية، ومراكمة الثروات والافتئات على أهل الطريقة، فيما يصطلح عليه بالإقطاع الديني[14].

أدى التقاعس عن إنتاج وابتكار البدائل العملية والاجتماعية إلى استمرار التصوف التقليدي (التصوف النخبوي) واستغراقه في المنظومة نفسها التي تسببت في تراجعه عن لعب الأدوار الطلائعية في العالم الإسلامي منذ نهاية الفترة الاستعمارية، حيث أظهر شيوخ التصوف الطرائقي خلال مرحلة الربيع العربي مدى عجزهم الكبير عن اللحاق بالخطاب الثوري ومواءمته وتأطيره في مرحلة أولى، كما أظهر الخطاب الصوفي الطرائقي في المراحل اللاحقة عدم قدرته على تحقيق التوازن في الاستقطاب الديني مقارنة مع الخطاب الدعوي القوي والعمل الاجتماعي القاعدي الذي تعتمد عليه الحركات ذات المرجعية الإخوانية والسلفية في عملية التعبئة الشعبية وتوسيع قاعدتها الانتخابية، وهو ما يفسر فشل الأحزاب ذات المرجعية الصوفية في كافة الاستحقاقات التي تمّت بعد الربيع العربي، خاصة في مصر وتونس وعدم تمكنها من إيجاد موطئ قدم لها في ليبيا ما بعد القذافي.

وبدا فشلها هذا واضحاً في النموذج المصري الذي عرف تناسل أحزاب ذات مرجعية صوفية واصطفافات سياسية للمتصوفة في اتجاهات معادية للثورة ولحراك الشارع، ودخولها في صراعات مفتعلة مع القوى والأحزاب الإسلامية واستخدام التصوف من قبل المؤسسات الرسمية (المجلس الأعلى للطرائق الصوفية ومشيخة الأزهر وهيئة الإفتاء) من أجل إفشال تجربة الانتقال الديمقراطي[15].

وقد ظهر ضعف الطرائق الصوفية كذلك بشكل جلي، من خلال المواقف السياسية السلبية التي اتخذها أغلب مشايخ الطرائق الصوفية في سوريا (نموذج بدرالدين حسون وصهيب الشامي)، واليمن (الطريقة النقشبندية والعلوية) من حراك الجماهير الشعبية في الربيع العربي، ووقوفهم إلى جانب النظم الديكتاتورية والقوى العلمانية في مواجهة الحركات الإسلامية، والتي أدت بشكل عام إلى تشويه صورة التصوف الطرائقي والطعن في مصداقية خطابه الإصلاحي ورسالته الأخلاقية والسلوكية[16].

كما أنّ التبعية المطلقة لشيوخ الطرائق الصوفية للسياسات الرسمية، أدى إلى ضرب مبدإ الاستقلالية المفترض توفرها لدى الصوفي، كي يمارس أدواره الاجتماعية والدعوية، وبالتالي جعل الكثيرين ينظرون إلى التصوف، باعتباره مطية للسلطة السياسية فقط من أجل تمرير قراراتها واستدرار التعاطف الشعبي، كما حدث حين خرج أتباع الطريقة البودشيشية في مسيرات للدعوة

بالتصويت بنعم في الاستفتاء على الدستور المغربي في 2011، وهو الأمر الذي لم يستطع الشيخ حمزة البودشيشي تبريره بالمنطق الصوفي، رغم النفي القاطع لحفيده منير اشتغاله بما هو سياسي[17]، وهو ما تفنده شواهد سابقة مثل البيان الذي أصدرته مشيخة الطريقة سنة 2005 بخصوص النظام السياسي في المغرب.

-الاستقطاب الجماهيري

كما أنّ جاذبية الخطاب الصوفي تضاءلت بشكل كبير لدى فئات واسعة كانت تنظر للتصوف، باعتباره عنواناً للممارسة الدينية السليمة وغير المسيسة، ومنبعاً للعلوم والأخلاق والسلوك القويم والتربية الروحية، بسبب عدد من الممارسات السلبية والكتابات المسيئة، التي تصدر عن بعض المنتسبين إلى التصوف على نموذج كتاب "التصوف الإرث المشترك" لشيخ الطريقة العلاوية خالد بن تونس الموالي للنظام الجزائري، الذي خلق جدلاً واسعاً في المغرب بسبب رغبته في استغلال الطريقة لاختراق المجال الديني المغربي وإيجاد موضع قدم له في الحضرة المشيشية[18].

باستثناء الإشعاع النسبي الذي يطبع مهرجانات الموسيقى الصوفية، والسماع التي يتولى عدد من الجمعيات تنظيمها عبر ربوع المملكة في مختلف المناسبات الدينية، فإنّ بعض المهرجانات والملتقيات أصبحت مناسبات لتمرير مخططات تغريب التصوف وفصله عن جذوره الإسلامية وقواعده السلوكية والأخلاقية، في مخالفة تامة لما يطلق عليه التصوف السني المنضبط بالقرآن والسنة وطريقة الجنيد، وكمثال على ذلك ملتقى (سالكي السلام إلى مولاي عبد السلام)[19] الذي تجاوز حد التقارب بين الديانات وإشاعة قيم التسامح، إلى جلب عدد من الأجانب إلى الحرم المشيشي وإقامة ليلة للسماع الصوفي بكنيس يهودي بتطوان، وكذلك مهرجان فاس للموسيقى الروحية الذي يديره فوزي الصقلي المنتمي للطريقة البودشيشية الذي صار له جمهور معين من المتابعين الغربيين يحجون كل سنة إلى فاس، من عدد من الدول الأوروبية وفرنسا على الخصوص، حيث تحوّل إلى مهرجان يروّج للحداثة وللتغريب وللفرانكفونية تحت رداء التصوف[20].

كما أنّ محاولات ربط التصوف الطرائقي بالقضايا الكبرى الراهنة وإدماجها في منظومته الخاصة بالإصلاح وعملية استقطاب الشباب، هي الأخرى لم تعرف مسارها نحو النجاح العملي، بغض النظر عن مصداقيتها، وذلك بفعل عوامل متعددة منها الطبيعة المبهمة الأصيلة التي تربط التصوف الطرائقي بالمجال العام وكيفية التصريف الأخلاقي في الواقع السياسي والاجتماعي

المعاصر المتميز بالتعقيد، والمختلف تماماً عن التصورات الإصلاحية والمعرفية والتجارب الذوقية التي حملها الصوفيون المؤسسون.

ونشير هنا إلى أنه في سنة 2012 أطلق عدد من الشباب المنتمين إلى المرجعية الصوفية مبادرة تأسيس الرابطة المغربية للشباب الصوفي، إلا أنها واجهت منذ البداية تعثراً ملحوظاً في الانطلاق وهجمة إعلامية شرسة حاولت الانتقاص من التجربة والتشكيك في مصداقيتها وأهدافها[21].

وعلى الرغم من المحاولات الحثيثة التي تبديها بعض الطرائق الصوفية عبر توظيف الملتقيات الفكرية حول القضايا الوطنية لاستقطاب الشباب، فإنّ المردودية تبقى ضعيفة ومحصورة في الإطار الزمني الموسمي، كما هو الحال بالنسبة إلى الطريقة البودشيشية مثلاً التي درجت منذ سنة 2007 على أن يكون موسمها السنوي الأكبر بمناسبة عيد المولد النبوي بزاوية مداغ، مشفوعاً بملتقى علمي حول التصوف يتبين من طبيعة التيمات التي تم اختيارها الرغبة في اختراق المجتمع المدني، وتوجيه الحقل السياسي، والتماهي مع التوجهات الرسمية في هيكلة الحقل الديني.

أمّا فيما يخص مسألة قضية الصحراء المغربية، فقد حرصت الطريقة البودشيشية على أن يكون موسمها السنوي محطة لإبراز امتداداها الروحي في الأقاليم الجنوبية عبر وفود مريديها القادمين من هناك، كما أنها عملت على تنظيم دورة تكوينية لشبابها بمدينة كلميم صيف 2013،[22] لإدراك أهمية الدفاع عن الوحدة الترابية.

ويبقى النشاط الأساسي للطرائق الصوفية محصوراً في المواسم وزيارة الأضرحة، حيث تعتبر ذكرى المولد النبوي وإحياء ذكرى الصالحين والأولياء، مناسبة للاحتفالات الصوفية التي يأخذ بعضها طابعاً فلكلورياً شعبياً، مثل موكب الشموع بسلا الذي يرتبط بسيدي عبد الله بن حسون، وبعضها أصبح له سمعة سيئة بسبب انتشار الشعوذة والبدع المختلفة والظواهر السلبية المنفرة من التصوف وأهله، مثل موسم الشيخ الكامل الهادي بن عيسى وسيدي علي بن حمدوش الذي تنتسب إليه الطائفة الحمدوشية بمكناس[23]. غير أنّ أهم التجمعات الطرائقية على الإطلاق هو تجمع الطريقة البودشيشية بمداغ الذي يحظى بتغطية إعلامية واسعة، وتحضره شخصيات مرموقة من داخل المغرب وخارجه من أتباع الطريقة، والذي لم يعد محصوراً على طقوس زيارة الشيخ وأخذ بركته فقط، بل أصبح مناسبة لتدارس المنهج الصوفي وعقد الندوات التي تعرف بمنهج الطريقة البودشيشية في السلوك والتربية حسب منير القادري بودشيش حفيد شيخ

الطريقة، إلا أن إشعاع تلك المواسم يبقى محدوداً بالفترة الزمنية التي تقام فيها، وتقتصر على استعراض عدد الأتباع والمستقطبين الجدد من الخارج،[24]في حين أنّ عملها من أجل استقطاب أفراد من التيار السلفي نحو التصوف يبقى محدوداً ولا يُذكر، حيث لم تظهر منذ بداية الاستراتيجية الجديدة في اعتماد التصوف كعنصر للتأثير الديني ومواجهة الفكر السلفي، أية بوادر تدل على قدرة التصوف الطرائقي على استقطاب أشخاص أو منتسبين قدماء من داخل التيار السلفي نحو الممارسة الطرائقية.

وعلى الرغم من طابع الأزمة الذي خيّم على الحقل الصوفي على المستوى الداخلي بسبب الإشعاع المتنامي للحركة الإسلامية (دعوياً وسياسياً) منذ بداية حراك الربيع العربي، إلا أنه يجب أن نشير إلى أنّ استراتيجية الاعتماد على التصوف كمؤثر في ضبط إيقاع السياسة الخارجية في إفريقيا، عرف توهجاً خاصاً بفضل الدبلوماسية الملكية[25] التي تحركت بقوة في دول الغرب الإفريقي في سنة 2013، وجدّدت التواصل بشكل إيجابي بين مشايخ الطرائق الصوفية بتلك الدول ومؤسسة إمارة المؤمنين، وهي الزيارات التي تزامنت مع أحداث كبيرة عرفها الساحل الإفريقي وخاصة الزيارة الملكية لدولة مالي، ومشاركة الملك محمد السادس في حفل تنصيب رئيس مالي، التي أثمرت عن توقيع اتفاقية مهمة من أجل تكوين الأئمة الماليين وفق المنهج المغربي المعتدل، بعدما عانت مالي خلال السنتين الأخيرتين من سيطرة الحركات الانفصالية، والمجموعات المتطرفة المسلحة على جزء كبير من ترابها ، وقيامهم بتدمير عدد من الأضرحة والزوايا الصوفية بمدينة تومبوكتو العريقة التي تربطها بالمغرب علاقات تاريخية وثيقة[26].

ومن المهم أن نشير هنا، بعيداً عن التحليل السيكولوجي[27] الذي يحب البعض الاستناد إليه في تفسير ظاهرة تراجع المتصوفة عن لعب أدوارهم التربوية والسلوكية في المجتمع، إلى أنّ أزمة التصوف الطرائقي في المغرب ترتبط في جزء كبير منها كذلك بانعدام الإطار القانوني الذي تشتغل ضمن نطاقه وحدوده الطرائق الصوفية، فهي إلى غاية يومنا هذا لا تخضع لأي قانون ينظم عملها باستثناء ارتباطها بالرمزية الدينية والمكانة الدستورية لمؤسسة إمارة المؤمنين، حيث إن الطرائق الصوفية خاضعة بشكل كبير لوصاية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، على اعتبار أنها هي من تتولى تدبير الشأن الديني، مع العلم أنها هيئات غير حكومية مستقلة تشتغل ضمن نطاق المجتمع المدني، لا ينبغي أن تبقى خارج سياق المأسسة التي تعرفها الدولة المغربية منذ الاستقلال بإخضاع

نشاطها لنصوص القانون بشكل شفاف ومتسق مع المقتضيات الدستورية، والأمر نفسه بالنسبة لنقابات الشرفاء الخاضعة لوصاية مديرية الجماعات المحلية بوزارة الداخلية، مع استثناء جمعيات الشرفاء التي تخضع لظهير الحريات العامة وتأسيس الجمعيات لسنة 1958[28].

وقد أثارت مسألة وصاية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على التصوف والطرائق الصوفية انتقادات عدة[29]، لاسيما أنّ الوزير أحمد التوفيق عُرف عنه انتماؤه الصوفي للطريقة البودشيشية التي تسعى حسب البعض إلى الهيمنة على مجال التصوف المغربي وطبعه بمنهجها.

إنّ تراجع التصوف الطرائقي في لعب أدواره الاجتماعية والدينية في مرحلة ما بعد الربيع العربي يعود بحسب الباحث محمد التهامي الحراق إلى عدد من الآفات داخل الجسد الصوفي التي برزت بشكل كبير مع تجدد الاهتمام العمومي بالتصوف على المستويين الثقافي والاجتماعي، ويجملها الباحث في أربعة عناصر هي: (الإفشائية والطقوسية والحظوظية والتعصبية...)، حيث "إنّ التأمل في هذه الآفات الأربع يجعلنا نستخلص أنها تؤول إلى ضمور ركيزتين من ركائز التصوف، وهما العلم والتربية؛ إذ لما افتقرت وافتقدت الزوايا العلم، سادت الإفشائية والطقوسية، ولما تراجعت التربية السلوكية، سادت الحظوظية والتعصبية، مما جعل الممارسة الصوفية معطوبة وغير قادرة على الذهاب بشكل حاسم نحو الأقاصي؛ أي نحو المرامي التنويرية والحضارية والآفاق الاحتضانية الروحية ذات الأفق الكوني، مما هو من إمكان التصوف كمعرفة وذوق وأفق[30]... كما يعود تراجع دور المكوّن الصوفي في جانب كبير منه إلى الأزمة الثقافية التي تعرفها البلدان الإسلامية والمغاربية على وجه الخصوص، حيث تعتبر الباحثة عائشة البوعزاوي (أنّ تراجع قيم الصوفية بدأت منذ سنوات الثمانينيات لمصلحة نظرة رجعية عن الإسلام، سببه خطابات منغلقة وغامضة للتيار الصوفي الإسلامي، ما أدى إلى تراجع تأثيره في المغرب العربي[31]"...

بقلم الخمالي بدرالدين

[1]- التصوف بين التربوي والسياسي – الدكتور محمد ضريف – جريدة المساء 25 نونبر 2009.

[2]- التصوف والحداثة في المغرب العربي – منشورات مركز المسبار للدراسات والبحوث – عدد 64 أبريل 2012.

[3]- انظر تقرير مركز نيكسون بواشنطن 2004 – وانظر في ذلك تقرير مؤسسة راند الأمريكية الصادر سنة 2007 تحت عنوان (بناء شبكات مسلمة معتدلة)

[4]- انظر اليكس فيليبون في كتابه (الصوفية والسياسة بباكستان الحركة البريلوية في زمن الحرب على الإرهاب) ص 309.

(Alex Philippon - Soufisme et politique au Pakistan le mouvement barelwi à l'heure de la guerre contre le terrorisme Karthala- science po Aix 2011).

إدارة بوش تعلن أن نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط - المهمة الأخلاقية لهذا العصر – صحيفة الشرق الأوسط - السبت 10 جمادى الثاني 1424 هـ 9 أغسطس 2003 العدد 9020.

دراسة - قراءة في أفكار النخبة السياسية الإسلامية في تركيا - الفصل الخامس: التوجهات الاجتماعية الدينية المعاصرة: فتح الله كولن أنموذج - الدكتور طلال يونس الجليلي – موقع الموصل التراثي.

[5]3 - يوليوز 2013 الانقلاب العسكري بداية أم نهاية – دراسة للدكتور رفيق حبيب – كسر الإرادة استراتيجية الانقلاب والثورة ص 36 – مجلة الفرقان العدد 72 – 2013.

[6]- المغرب: حزب الاستقلال ينسحب من الحكومة وينتقل إلى صفوف المعارضة - صحيفة القدس العربي - محمود معروف – 16 يوليو 2013.

[7]- وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية يدعو إلى التفكير في إحداث هيئة كونية للمنتسبين إلى التصوف – وكالة المغرب العربي للأنباء 13 يوليوز 2009.

[8]- حرب المشيخة تشتعل في الزاوية الكتانية - اتهام وزير الأوقاف بتحويل الزوايا إلى مجالس علمية تابعة - إدريس الكنبوري - المساء - 06 - 03 – 2009.

[9]- إعفاء رئيس المجلس العلمي بخريبكة – جبير مجاهد - جريدة العلم – 5 دجنبر 2013.

[10]- الزوايا في المغرب.. من مصدر مشروعية في الداخل إلى أداة للصراع الإقليمي – إدريس الكنبوري – جريدة المساء عدد 2276- 20 يناير 2014.

[11]- المؤتمر العام للطريقة الذي يضم مقدمي ومسؤولي الطريقة في إسطنبول بتركيا الأيام 15و 16و17 – نور الهدي – نبيل الإبراهيمي – ادعى مشيخة الطريقة المشيشية الشاذلية بعد طرده من جماعة العدل والإحسان.

[12]- تقديم المنتدى العالمي للمشيشية الشاذلية بأفخم فنادق طنجة - المساء - يوم 14 - 07 – 2008.

[13]- حرب طاحنة بقيادة بني عروس حول الهبات الملكية لضريح مولاي عبد السلام – طنجة تلغرام – 27 أبريل 2011.

[14]- تاريخ اقتصاد الريع في المغرب ص 17 - 28 مجلة وجهة نظر العدد 54 خريف 2012.

[15]- مؤامرة الصوفية على مرسي -لطفي عبد اللطيف - موقع المثقف الجديد الإلكتروني.

[16]- معضلة الدور السياسي للتيار الصوفي العربي وكيفية التفعيل بعد ربيع الثورات – إعداد أبو الفضل الإسناوي – موقع البوابة نيوز الالكتروني www.albawabhnews.com/News/6765.

[17]- حوار مع جريدة المساء – كيف أصبحت الطريقة البودشيشية أقوى التنظيمات المغربية.

[18]- جريدة العلم عدد 22563 بتاريخ الجمعة 5 ابريل 2013 تحت عنوان (صراع وقضايا أمام المحاكم بين شيوخ الطرائق الصوفية ومخابرات أجنبية على الخط – وثائق مزورة باسم القصر الملكي تزيد من السخونة).

[19]- دواهي وطوام الطريقة العلاوية في ملتقى سالكي السلام – الخمالي بدرالدين – دنيا الوطن -12 – 7-2012.

[20]- الحضور الغربي في الشأن الديني المغربي - ص235 – عن تدبير الشأن الديني والتطرف محمد وراضي – دار الوطن ط 2013- انظر كذلك مقالة التصوف الفرنكو أمريكي الجديد في المغرب - نوفل بن إبراهيم – الموقع الالكتروني لمجلة العصر 2008.

[21]- الشباب المغربي والتصوف – بدر الدين الخمالي – جريدة الأخبار

[22]- كلميم: اختتام الملتقى التكويني لشباب الطريقة القادرية البودشيشية – أخبار الصحراء – 29 يونيو 2013

[23]- عن تدبير الشأن الديني والتطرف أية هفوات وأية مفارقات – كلمة عن مواسم الصالحين - ص219 – محمد الراضي – دار الوطن - الطبعة الأولى 2013

[24]- آلاف «الفقراء» يغزون مداغ لإحياء ذكرى المولد النبوي- المهدي السجاري – جريدة المساء – عدد 2271 – 14 يناير 2014.

[25]- البعد الديني في الدبلوماسية الإفريقية - مؤسسة إمارة المؤمنين نموذجاً – الخمالي بدرالدين - الملف الساخن 2013 - الصراع المغربي الجزائري على تدبير الشأن الديني إقليمياً مقاربة مغربية – إصدرات مؤسسة مؤمنون بلا حدود للأبحاث والدراسات.

[26]- انظر دلالات اللقاء الملكي بشيوخ الطرق الصوفية بالسنغال – الخمالي بدر الدين – جريدة الأخبار

[27]- تجربتي الصوفية - عبد الله الشارف، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء - المغرب. 1432-2011.

[28]- مراسلة وزارة الداخلية إلى الولاة والعمال بتاريخ 9 أبريل 2007 حول لائحة نقباء الأشراف - المديرية العامة للجماعات المحلية – وزير الداخلية شكيب بنموسى.

[29]- الطريقة الكتانية للدكتور – تراث الشيخ وتلاميذه- يوسف الكتاني – مطبعة أبي رقراق الطبعة الأولى 2010

[30]- من أجل تجديد عمل الزوايا رؤية استشرافية – محمد التهامي الحراق – موقع هسبريس 22 يناير 2014

[31]- الملتقى العاشر للتصوف بالجزائر - باحثون من المغرب العربي يؤكدون أن الأزمة الثقافية تعود إلى تراجع الصوفية – حسن لمنوري – الصحراء المغربية 25 -12-2013.

المراجع

أبو إسحاق الشاطبي ؛ "الاعتصام"، دار ابن عفان، السعودية، 1412-1992

أبو إسحاق الشاطبي: "الموافقات في أصول الشريعة"، دار الكتب العلمية بيروت د . ت.

أبو حامد الغزالي "ميزان العمل" دار الكتب العلمية بيروت، ط1،1409هـ/1989م.

أبو حامد الغزالي: "إحياء علوم الدين"، دارالحديث القاهرة، .1998-1419

أبو منصورالثعالبي: "لباب الآداب"، دار الكتب العلمية، بيروت 1997

أبو العلا عفيفي "التصوف الثورة الروحية في الإسلام"، بيروت1982

أبو يعقوب التادلي (ابن الزيات): "التشوف إلى رجال التصوف". تحقيق أحمد التوفيق، الرباط 1981.

إبراهيم حركات: "الحياة الدينية في العهد المريني"، مجلة البحث العلمي، السنة السادسة، عدد 29-30.

إبراهيم حركات: "مدخل إلى تاريخ العلوم بالمغرب المسلم حتى ق15/9" ج3"التصوف"، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء 2000.

إبن عربي: "التدبيرات الإلهية في إصلاح المملكة الإنسانية"، بيروت 1981،

إبن عربي " فصوص الحكم "، تحقيق أبو العلا عفيفي، بيروت 1980،

إبن عربي: "الإسرا إلى مقام الأسرى، أو كتاب المعراج"، بيروت 1988

إبن عربي: "ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق"، تحقيق عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة، د.ت.

إبن حزم: "الإحكام في أصول الأحكام"، دار الكتب العلمية بيروت، 2010

إيليا الحاوي: "في النقد والأدب"، دار الكتاب اللبناني بيروت، 1986

التهامي الوزاني: "الزاوية"، منشورات جمعية تطاون أسمير، د.ت.

أحمد الناصري: "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ط1، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء 1955.

أحمد بن خالد الناصري: "طلعة المشتري في النسب الجعفري"، د.ت.

أحمد بن محمد عمالك؛ "جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية"، منشورات وزارة الأوقاف، دار أبي رقراق، الرباط، 2006/1427،

أحمد بن تيمية؛ "اقتضاء الصراط المستقيم"، ص 282، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1419.

أحمد بن تيمية، "الفتاوى"، مكة المكرمة، د.ت.

أحمد بن عجيبة الحسني ؛ "ايقاظ الهمم في شرح الحكم"، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت د.ت.

إبن الجوزي: "صفة الصفوة "، دار الكتب العلمية بيروت، 1419/ 1999.

إبن الجوزي: "سيرة عمر بن عبد العزيز"، دار الكتب العلمية ،بيروت، 2001.

حمدون الطاهري الجوطي؛ "تحفة الإخوان ببعض مناقب شرفاء وزان"، دراسة وتحقيق محمد العمراني، أطروحة جامعية لنيل الدكتوراه في التاريخ، طبعة مرقونة بكلية الآداب بالرباط، 2004،

خالد بن الصغير؛ "الزوايا في المغرب والحمايات الأجنبية؛ نمودجي الزاوية الوزانية والمصلوحية"، عدد 80-81، مطبعة دار المناهل وزارة الثقافة الرباط، فبراير 2007،

الحارث المحاسبي "الرعاية لحقوق الله" دار المعارف، د.ت.

دافيد باكان "فرويد والتراث الصوفي اليهودي" ترجمة د. طلال عتريسي المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع بيروت. 1975

روم لاندو؛ "تاريخ المغرب في القرن العشرين"، ترجمة نقولا زيادة، دار الثقافة للطباعة والنشر 1980

سيد قطب ؛ الاسلام ومشكلات الحضارة، دار الشروق 1992

سعيد حوى "جولات في الفقهين الكبير والأكبر وأصولهما"، القاهرة. د.ت.

عبد الرحمن بدوي؛ "خريف الفكر اليوناني"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1970

عبد الرحمن بن قدامة المقدسي: "مختصر منهاج القاصدين"، دار الفكر بيروت 1422- 2002

عبد المجيد الخاني الخالدي النقشبندي؛ "السعادة الأبدية فيما جاء به النقشبندية"، إسطانبول 1401-1981.

عبد الوهاب الشعراني؛ "الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية"، المكتبة العلمية، بيروت، 1412-199. .

عبد الفتاح أبو غدة؛ تحقيق "رسالة المسترشدين"، دار السلام، ط5 .، .1988-1409

عبد الرحمن ابن خلدون: "المقدمة"

عبد الله الشارف؛ "تجربتي الصوفية؛ مساهمة في فهم الكيان الصوفي"؛ منشورات "الزمن"، الرباط 2011.

عبد الحفيظ الفاسي؛ "الترجمان المعرب عن أشهر فروع الشاذلية بالمغرب"، مكتبة الخزانة العامة، رقم 4400 د.ت

عبد الجواد السقاط: "الدور السياسي للزاوية في المغرب"، مجلة دعوة الحق، العدد4.

عبد المجيد الصغير: "من أجل إعادة تقويم الحدث الصوفي بالمغرب"، ضمن؛ "الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب"، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، تنسيق نفيسة الذهبي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997

عبد الرحمن الوكيل: " هذه هي الصوفية، بيروت 1984،

علال الفاسي: "التصوف الإسلامي بالمغرب"؛ مجلة الثقافة المغربية، الرباط، العدد الأول، 1970

عمر رضا كحالة "الفلسفة الإسلامية وملحقاتها" ط الحجاز بدمشق (1394)

علي بن أبي زرع الفاسي: "الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية"، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1972.

على أو مليل؛ "الخطاب التاريخي"، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء 1984.

المراكشي؛ "المعجب في أخبار المغرب"، دار الكتب العلمية بيروت 1998

محمد بن قيم الجوزية: "مدارج السالكين"، دار الجيل بيروت، د.ت،

محمد بن قيم الجوزية: "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998

محمد بن قيم الجوزية؛ "طريق الهجرتين وباب السعادتين"؛ دار الكتاب العربي بيروت، د.ت.

محمد بن قيم الجوزية؛ "الفوائد"، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، 1422هـ/2002

محمد بن قيم الجوزية "الوابل الصيب من الكلم الطيب" دار الكتب العلمية.

محمد القرطبي "الجامع لأحكام القرآن"، دار الكتب العلمية.

محمد الخضري "إتمام الوفا في سيرة الخلفاء"، دار الإيمان بيروت.

محمد بن قيم الجوزية؛ "الجواب الكافي لمن سأل عن السؤال الشافي"، دار المعرفة.

محمد بن طملوس؛ "المدخل لصناعة المنطق"، طبعة آسين بلاسيوس، مدريد 1916.

محمد بن علي الشوكاني؛ "أدب الطلب ومنتهى الأرب"، دار ابن حزم 1998.

وفيات العيان لابن خلكان، دار الفكر. د.ت.

محمد بن قاسم الأنصاري؛ "اختصار الأخبار عما كان بسبتة من سَنِيِّ الآثار"، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1969/1389،

محمد المنوني: "التيارات الفكرية بالمغرب المريني"، مجلة الثقافة المغربية، عدد5، 1971،

محمد العربي الفاسي: " مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن" طبعة حجرية فاسية، 1906

محمد حجي؛ "الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين"، ج2، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة فضالة، الرباط 1978،

محمد الصغير الإفراني: "نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي"، ط2، منشورات بردي مؤسسة علمية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1991.

محمد المختار السوسي: "إيليغ قديما وحديثا"، تعليق محمد بن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية الرباط، 1966،

محمد الإفراني: "صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر"، المطبعة الحجرية بفاس،، د.ت.

محمد بن الطيب القادري: "نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني"، الرباط 1977.

محمد المكي موسى الناصري: "الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة"، تحقيق محمد الحبيب الوحي، الرباط 1988،

منال عبد المنعم جاد الله: "التصوف في مصر والمغرب"، منشأة المعارف بالأسكندرية، 1997،

مصطفى بن سباع، "ثورة ابن هود على الموحدين" مجلة كلية الآداب، تطوان عدد 6، 1993.

المولى سليمان بن محمد بن عبد الله، "دعوة الحق"، المحرر، عدد 96.

محمود عبد الرؤوف القاسم: "الكشف عن حقيقة الصوفية"، المكتبة الإسلامية، عمان الأردن، 1413

ولي الدين العراقي؛ "الغيث الهامع شرح جمع الجوامع"، ط1 دار الكتب العلمية، 2004

هانئ عبد الرحمن مكروم: " العقل تنظيمه وإداراته " القاهرة، 1417- 1997.

فهرس الموضوعات

مصحح والاخير

2021/04/15

رمضان





د.عبد الله الشارف

- أستاذ التعليم العالي بكليتي أصول الدين و الآداب جامعة عبد المالك السعدي بتطوان.
- الإجازة في علم الاجتماع من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس سنة 1979.
- دبلوم الدراسات العليا المعمقة DEA في علم الاجتماع تخصص "الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية" من جامعة السوربون بباريس سنة 1980.
- دكتوراه السلك الثالث في علم الاجتماع تخصص الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية من جامعة السوربون بباريس سنة 1984.
- دكتوراه الدولة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة عبد المالك السعدي بتطوان سنة 1999.

التخصص العلمي: علم الاجتماع.

المجالات الفكرية: الاستغراب، الأنثروبولوجيا ، الاستشراق، الفلسفة، الفكر الإسلامي، التصوف، التربية، الهجرة.

الوظائف العلمية:

- أستاذ زائر بالمدرسة العليا للأساتذة جامعة عبد الملك السعدي بتطوان (2008) .
- أستاذ زائر بجامعة أم القرى بمكة المكرمة (2014-2016) .

المؤلفات:

- الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب
- واردات وخواطر إيمانية
- الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر
- القدوة بين الاتباع والابتداع مع موازنة بين شيخ العلم وشيخ التربية
- تجربتي الصوفية مساهمة في فهم الكيان الصوفي
- مناظرة صوفية معاصرة
- في أدب الرقائق
- مدخل إلى التربية النفسية والإيمانية
- المسلم المهاجر في بلاد الغرب (غربة ومعاناة وذوبان)
- الاستغراب في المغرب الأقصى (ظواهره وقضاياه)
- علم الاجتماع في العالم العربي دراسة نقدية

- المدونة الإلكترونية: ww-w.charef.net

يتناول هذا الكتاب؛ "الفكر الصوفي؛ إشكاليات و قضايا"، موضوعات صوفية مختلفة؛ منها ما له علاقة بالسياسة والمجتمع مثل؛ "كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي بين سلطتي المرابطين والموحدين"، أو "موقف السلطان المولى سليمان العلوي من التصوف الطرقي"، أو"علاقة الصوفية الطرقية المعاصرة بأمريكا" بهدف تكوين حلف لمواجهة المد السلفي. ومنها ما يرتبط بقضايا شاذة؛ "عبادة النفس عند بعض أرباب الصوفية"، و"النزوع نحو الحلول ووحدة الوجود". ومنها ما هو معرفي مثل؛ "إشكالية العلم اللدني بين محيي الدين بن عربي الحاتمي ومحمد بن قيم الجوزية". ومنها ما هو تربوي سلوكي مثل؛ "شيخ التربية وشيخ العلم والتعليم"، أو "التخويف النفسي عند الحارث المحاسبي".

كما حرص المؤلف على إدراج بعض النصوص الصوفية في ثنايا مباحث الكتاب، قصد تحليلها وربطها بالثقافة والمجتمع؛ أي أن النصوص الصوفية هي بمثابة مرايا تنعكس فيها مشاهد وصور نابعة من الواقع الاجتماعي والثقافي والحضاري.

ونظرا لكون الكاتب مارس تجربة صوفية قبل أربعة عقود، وحرر كتابا في الموضوع تحت عنوان؛ "تجربتي الصوفية؛ مساهمة في فهم الكيان الصوفي"، فقد حرص على إدراج ملخص موجز لهذه التجربة ضمن فصل من فصول الكتاب، لعل القارئ يستفيد منها، ومن أسباب ممارستها، ومن ومنعرجاتها، والنتائج التي تمخضت عنها.